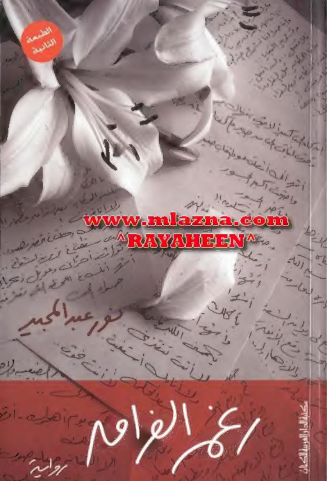
الطبعة الثانية
www.mlazna.com
^RAYAHEEN^
نور عبد المجيد
رغم الفراق
رواية
مكتبة الدار العربية للكتاب

"هاشم:

إن كنت ترى أنني أستحق النجاح، اكتب لي كلمة واحدة لأتذوقه بها .. وإن كنت مازلت ترى أنني أستحق اللعنة، فاكتب أيضا لي كلمة لأطلب من ربي الرحمة ..

هاشم:

أرجوك .. لا تقتلني مرتين!!

عايدة"

هل يخمد الفراق لهيب الحب أم يزيده اشتعالاً !!...

هل يبقى الحب رغم الزمن أم يموت !!

"رغم الفراق" رواية استثنائية وإجاباتها استثنائية..

لن تعرفها إلا حين ترتحل عبر سطورها..

مكتبة الدار العربية للكتاب

إهـــداء

إلى أخي وصديقي الوحيد ..

إلى قطعة من قلبي وروحي ..

إلى من أشعر دومًا أنني أمه رغم أنني لم ألده ، وأنه أبي رغم صغر سنه ..

إلى من أمسكت القلم وكتبت وطبعت ونشرت ؛ لأنه وحده أراد لي تحقيق الحلم ..

إلى من كان معي وأنا في الظلام ، ويوم أصبحت في دائرة الضوء ابتعد وتركني ..

إلى من علمني فراقه أن الفراق ليس أبدًا نهاية الحب والصداقة ..

إلى من علمني أن الحب يصبح أكبر ، وأن اللقاء يستمر رغم الفراق ..

إلى صديقي ورفيق القلم والحلم ..

إلى هاني عبد الحميد ...

إهــــداء

إلى نور:

إلى الرجل الصغير الذي علمني أن أفتح عيني

كل صباح ، وأنا أبتسم لأنني أعلم أن في أيامي

رجلًا لن يخذلني أبدًا ..

إلى كريم:

إلى الرائع الذي كلما أقضّ الأرق مضجعي ، ألجأ إلى

ذراعيه لأغفو وأنام في هدوء كالأطفال ..

إلى نور وكريم:

علمني حبكما أن أتمسك بالحياة ،

حتى بعد أن عرفت حقيقتها!!

مقدمة

أؤمن أن هناك رجالاً ونساءً يقتسمون بيتًا واحدًا ووعاءً
واحدًا وفراشًا واحدًا لكنهم أبدًا لا يلتقون!!

أؤمن أن هناك لقاءات وأحاديث ونجوى وأسرارًا تبدأ
ولا تنتهي بين رجال ونساء، كلٌ منهم في قارة بعيدة!!

أؤمن أن هناك مشاعر تشتعل وتحيا وتثمر خيرًا
وعطاءً بعد الفراق!!

أؤمن أن قلوبنا رغم الفراق بالحب تحيا ..
وأؤمن أنه بالعقل وحده يشقى الإنسان!

نور عبد المجيد

2010/5/28م

حبيبتي دينا :

حاولت الاتصال بك كثيرًا ولكن هاتفك مغلق ..

دينا ..

شيء ما حدث هذا الصباح .. شيء لا أفهمه .. هل تذكرين عمي طلعت .. عمي الذي لم أره سوى مرات ثلاث في هذا البيت .. حضر هذا الصباح وسيأخذني معه الآن إلى بيته في المنصورة ..

دينا ..

أشعر أن شيئًا ما يدور .. شيء يعلمه الجميع إلا أنا ..

لقد طلبوا مني إعداد حقيبتي وجمع ملابسي كلها ..

ماما هدى لم تفاجأ بحضوره كما أخبرتني .. حتى بابا عبد المنعم لم يقل حرفًا واحدًا .. في الحقيقة أنا أشعر بالخوف .. لم أزر عمي طلعت يومًا في بيته .. فَلِمَ يأخذني الآن وبكل ملابسي وأشيائي ؟!

لم تتركني ماما هدى أبيت يومًا خارج بيتها .. فلماذا تقف اليوم بكل هذا السكون والوجوم؟!

هل تتخلى عني ماما هدى ولماذا؟!

دينا ..

يجب أن أذهب الآن .. سأضع لك الرسالة تحت الباب لتجديها عند عودتك، وسأحادثك عندما أصل إلى المنصورة .. سأحادثك عندما أفهم شيئًا من كل هذه الأشياء التي لا أفهمها الآن ..

دينا ..

أنا خائفة يا صديقتي ..

«عايدة»

****

رفعت دينا وجهها الجميل لتنظر في دهشة إلى ساعة مكتبها الصغيرة .. قاربت الثانية عشرة ظهرًا .. لم يحادثها حسن هذا الصباح ، وحتى الآن لم يتصل بها .. وابتسمت في حنان .. لقد كان معها حتى الثالثة صباحًا .. لابد أنه نائم .. اليوم هو يوم أجازته الأسبوعية من عمله في شركة البورصة التي يعمل بها .. لن تحادثه .. يجب أن تتركه نائمًا .. هي أيضًا عند انتهاء دوامها ، ستذهب إلى البيت وتحاول النوم ساعة أو ساعتين .. في المساء سيخرجان من جديد لتناول العشاء في أحد المطاعم ..

عشرون يومًا ويصبحان معًا ليلًا ونهارًا .. عشرون يومًا وينتقل حسن للحياة معها ومع والدتها في شارع نهرو .. كان يفضل أن يستقلا بسكن خاص ، لكن نجوى والدتها أصرت على أن يبقيا معها ..

هي أيضًا لا تريد أن تترك أمها ولا بيتها في شارع نهرو .. لا تريد أن تترك عايدة وهاشم وطنط هدى .

الحياة معهم وإلى جوارهم أجمل وأكمل وأكثر نقاء وحلاوة .. لم تكن موافقة حسن سهلة .. حسن يخشى نجوى .. يخشى حدتها وحدة ألفاظها في بعض الأحيان .. لكن دينا تعلم أن نجوى حانية طيبة القلب هي فقط منذ وفاة مختار ، وهي أكثر عصبية وحدة .. ربما كانت تشعر أن حدتها وعصبيتها هما ذاك الغلاف الذي تضعه على وجهها ؛ لتلعب دور الرجل والأب في حياة دينا .. أو ربما كانت العصبية والحدة هي مظهر من مظاهر حزنها وضعفها

بعد رحيل مختار .. دينا لا تعلم .. كل ما تعلمه أن حسن سيعتاد نجوى .. سيعتاد عصبيتها وحدَّتها وسيحبها، بل هو بالفعل يحبها .. رفض حسن للحياة في بيت نجوى ما هو إلا حب حقيقي لها .. إنه يخشى أن يحدث ما يشوب هذا الحب ، لكن دينا استطاعت إقناعه أن حياتهما معًا ستصبح رائعة .. دينا تعمل في فندق ميرديان هليوبولس في قسم المبيعات ، وحسن يعمل في إحدى كبرى شركات البورصة في مصر .. نجوى ستهتم بالبيت .. لن يضطر أحدهم للعودة مبكرًا لإعداد طعام أو متابعة خادمة .. بل حتى عندما يرزقهم الله بأطفال ، سيكونون بمأمن مع نجوى ليتابع كل منهما عمله في هدوء وطمأنينة .

ورفعت دينا وجهها تنظر من نافذة مكتبها الزجاجية في حنان .. ما كان حسن ليقتنع بسهولة لولا عايدة ومحاولاتها معه .

وابتسمت مرة أخرى ليأتيها صوت سلوى من على المكتب المجاور تصيح:

سرحانة في إيه ؟ اللي واخد عقلك .. حسن أبو علي طبعًا ..

وابتسمت دينا ابتسامة أكثر اتساعًا لتقول في صفاء:

عارفة حتى الحب بيبقى أجمل وأحلى لما يكون في حياتك صداقة حقيقية وجميلة .. أنا كنت سرحانة في عايدة جارتي ..

وعادت سلوى تسأل في خفة ظلها قائلة:

حلوة زيك يا دينا ؟!

ونظرت دينا إلى وجه سلوى الرقيق قائلة:

لما تشوفيها حتعرفي إن الجمال داحاجة تانية خالص ..

وصاحت سلوى من جديد:

طب ما تقوليلها تيجي ..

وأجابتها دينا قائلة:

حتشوفيها في فرحي إن شاء الله ..

حقًّا الصداقة الحقيقية هي الجمال الكبير في قلب وحياة الأصدقاء !!

****

وقف حسن أمام دولاب ملابسه ينتقي ما سيرتديه في لقائه مع دينا .. اليوم سيدعوها إلى العشاء في أحد مطاعم «فورسيزونز» ..

دينا ستعترض ، ولو علمت نجوى أمها ستثور في وجهه ، وابتسم في حنان .. النساء تغضب إن كان الرجل بخيلًا لا ينفق ، وتغضب أيضًا إن كان كريمًا .

النساء عالم محير حقًّا ولكن لا يهم .. دينا عالم رائع من الأسرار والحنان .. عالم تهفو روحه إلى أن يلقي برأسه وجسده عليه ليذوب فيه قطعة قطعة ..

وارتدى بنطلونًا من اللون الكحلي الداكن وقميصًا من القطن الأبيض ووقف يمشط شعره الناعم أمام المرآة .. إنه وسيم .. قامته معتدلة الطول وجسده رائع ..

جميل حقًّا أن تكون إلى جوار الرجل الوسيم امرأة جميلة مثيرة تشد العيون إليها .

دينا من أجمل بنات مصر الجديدة أو هكذا يراها هو .. حسن عبد الكريم أيضًا من أكثر شباب مدينة نصر وسامة .

كم كان يتمنى لو يسكن هنا مع دينا في بيت والده ، اللواء عبد الكريم فياض .. لكن دينا أقنعته بحاجة أمها إليها .. لقد بدأت بعض أعراض الزهايمر تظهر على نجوى في الأعوام الأخيرة .

وتنهد حسن أمام مرآته .. لا شيء يثير خوفه سوى انتقاله للحياة مع نجوى .. إنها تثيره أحيانًا بألفاظها الحادة القاسية ، ولكن حتى عبد الكريم والده الطيب أقنعه بأن يقبل الحياة معها ..

نجوى لا أحد لها على الأرض سوى دينا .. لم تنجب سواها .. دينا هي عالمها ، ولكن حسن أيضًا عالم عبد الكريم ..

عبد الكريم تقاعد من الجيش منذ أعوام ، لكنه استطاع أن يكوّن عالمًا آخر .. التحق بالعمل بإحدى الشركات الكبرى في مدينة نصر ..

استطاع اللواء عبد الكريم فياض بخبرته العسكرية وبقلبه الطيب أن يخلق عالمًا جديدًا يحيا فيه .. بعد انتهاء عمله في الشركة يعود إلى البيت ؛ ليعد طعام الغداء حيث يتناوله مع حسن عند عودته من البورصة ، وفي السابعة يذهب إلى النادي للتريض ولقاء أصدقائه .

في العاشرة ، يعود إلى البيت ليشرب كوب الشاي ، ويعد بعض الساندويتشات ليجدها حسن عند عودته من لقائه اليومي بدينا .

كم مرة أخبره حسن أنه يتناول العشاء مع دينا ، وأنه أبدًا لا يستطيع أن يأكل مرتين، لكن يبقى ذاك الرجل العسكري بداخل صدر عبد الكريم عنيدًا كما هو .

حسن عند عودته من عشائه الليلة مع دينا في فندق الفورسيزونز ، سيجد صحنًا صغيرًا به اثنان من ساندويتشات الجبن والمربى في انتظاره ..

وانحنى حسن يرتدي حذاءه لينهض ، وينظر إلى مرآته من جديد ..

إنه وسيم .. بشرته بيضاء صافية .. شفتاه مستديرتان وأنفه مستقيم .. عينيه عسليتان عميقتان وحاجباه أيضًا يقفان ، في كثافة مقبولة ، حارسين على اتساع عينيه وعمقهما .

إنه وسيم وسعيد، وفي طريقه إلى لقاء حبيبة عمره وأيامه .. وبعد أقل من شهر سيصبح زوجًا لفتاة يراها بعيون قلبه أجمل فتاة في مصر بأكملها ، وليس أبدًا في مصر الجديدة وحدها .

ووضع زخات من العطر على ملابسه ، وانطلق إلى لقاء دينا، وهو يحلم بذاك اليوم الذي يجعلها فيه أكثر نساء الأرض سعادة بحبه وحنانه!!

****

وقف حسن بسيارته الفضية في شارع نهرو تحت العمارة المطلة على حدائق الميريلاند ؛ حيث تحيا دينا وحيث سينتقل هو بعد أقل من شهر ..

لا يستطيع أن ينكر أنه يحب هذا المكان ويحب الشارع .. يكفي أن دينا تحبه .. وأنه قريب من مكان عملها ، وأنه سيحيا فيه معها إلى جوار عايدة وهاشم وطنط هدى .. وابتسم وهو يتذكر نجوى .. حتى نجوى سيسعد بالحياة معها .. إنها حانية طيبة عدا لحظات عصبيتها البعيدة .. سيحتملها وسيعتادها من أجل دينا ، ومن أجل تحقيق الاستقرار سيتحمل لحظات عصبيتها البعيدة ..

ووقف حسن يدق جرس الباب لتطل نجوى من خلف الباب ، وهي تبتسم قائلة:

اتفضل يا حسن يا حبيبي ..

ودخل حسن في هدوء ، وهو يسمعها تكمل قائلة:

دينا لسه صاحية مالهاش عشر دقايق وبتلبس ... من ساعة مارجعت من الشغل وهي نايمة .. ماتبقوش تتأخروا بالليل يا حسن .. دي حتى ما أكلتش لقمة .

وابتسم حسن ، وهو يجلس على أحد مقاعد الريسيبشن، ليقول ضاحكًا :

طب هي ما أكلتش يا حماتي عشان كانت نايمة ، بس أنا أجازة وما أكلتش

برضه .. عالعموم ما تقلقيش احنا حنتعشى برا ..

ونظرت إليه نجوى في ثبات ثم قالت:

سعادة اللواء عبد الكريم بيه ما عرفش أبدًا يعلمك النظام يا حسن .. ما هو أنت يا حبيبي لو بتنام في وقت محدد وبدري ، كان يومك ويوم دينا بقى منظم أكثر .

وتململ حسن قليلًا في مقعده ليقول بعد لحظات :

هي دينا قدامها كتير؟!

ونهضت نجوى عن مقعدها قائلة :

حاستعجلها .. أعملك حاجة تشربها على ما تيجي ..

واختفت نجوى بعيدًا عنه ليلتفت حسن وهو ينظر حوله في هدوء ..

كيف ستكون الحياة مع نجوى .. لا يعلم ولكنه سيحاول من أجل دينا .. سيحاول .. إنه حقًا يحب نجوى لكنه خائف .. حسن لا يريد أبدًا أن يحدث ما يعكر صفاء سعادته وحياته مع دينا ..

وأفاق على صوت دينا وهي تتقدم نحوه ..

كانت ترتدي جوب سوداء ضيقة تقف فوق ركبتيها البيضاء وقميصًا قصيرًا من الحرير الوردي .. كان صدرها المستدير يطل من خلف أزرار قميصها العلوية المفتوحة في بهاء كبير ..

ورفع حسن عينيه ينظر إلى عينيها البنية الواسعة المرسومة بعناية لم تخف آثار النوم الظاهرة عليها رغم جمالها .. أنفها الأبيض الدقيق وأسفله شفاهها الرقيقة الملونة بلون قميصها الحريري كانت جميلة مثيرة .. حتى شعرها البندقي القصير كان رائعًا مثيرًا .

وتقدم حسن نحوها ليضمها إلى صدره في حنان ، وهو ينظر بعينيه من خلف كتفيها في اتجاه المطبخ حيث دخلت نجوى ..

وابتعدت دينا عن صدره بسرعة وهي تهمس:

اوعى يا حسن ..

وابتعد حسن وهو يبتسم صائحًا:

طنط إحنا خارجين بلاش تعملي حاجة والنبي ..

وأمسك حسن بكف دينا ليركض نحو الباب، وقبل أن يخرجا سمعا صوت نجوى خلفهما تقول:

ما تتأخروش يا حسن .. أنت كمان عندك شغل بكره ..

وقبل أن تغلق دينا الباب ، قالت نجوى :

يا خبر يادينا .. أنا نسيت .. كان في ظرف عشانك تحت الباب لقيته الصبح ..

وابتسمت دينا وهي تلوح لها وتهز رأسها .. لا ورق ولا رسائل على الأرض تهمها الآن .. ما يهمها هو أن تتأبط ذراع حسن عبد الكريم لتخرج معه وبين ذراعيه ، حتى يأتي يوم لا تفارق فيه ذراعيه ليلًا أو نهارًا !!

****

أغلق هاشم هاتفه الصغير ، بعدما أوقف سيارته الشيروكي الفضية تحت باب العمارة .. وصل أخيرًا بعد انتهاء اليوم الدراسي ..

وسار هاشم نحو باب العمارة ، وهو يحمل كثيرًا من الكتب بين يديه .. كل أصدقائه لا يعودون إلى منازلهم فور انتهائهم من اليوم الدراسي .. وحده هاشم يعود .. ووحده سعيد بعودته إلى البيت .. التعساء فقط هم الذين يهربون من العودة إلى منازلهم .. لكن «هاشم» عبدالمنعم رغم أعوامه التي جاوزت العشرين ـ رغم جيوبه الذاخرة بالنقود دومًا .. رغم شبابه ووسامته وتفوقه الدراسي ، لا يجد مكانًا على الأرض أجمل من بيته .. هدى في البيت .. هدى أجمل وأرق أم تنتظره كل مساء ، كأنها تنتظر طفلها العائد من أول يوم يذهب فيه إلى المدرسة ـ هدى دومًا تصيح بعد أن يفتح الباب في الثامنة مساء ، وهي تقول في حب:

«اتأخرت يا هاشم وحشتني يا حبيبي» .

كيف لا يعود هاشم إذن؟!

في البيت أيضًا والده الدكتور عبدالمنعم شيرازي ، أستاذ القانون وأحد أكبر المحامين في مصر .. منعم يذهب إلى مكتبه كل مساء في التاسعة .. لا يمكن أن يخرج إلا بعد أن يعود هاشم ، ويتناولوا جميعًا وجبة الغداء التي أصبح موعدها الثامنة والنصف منذ التحاق هاشم بالجامعة .. في التاسعة يذهب الدكتور منعم إلى مكتبه ، ويبقى هاشم مع هدى .. كيف إذن لا يعود؟!

ولكن «هاشم» يعود أيضًا من أجل عايدة .. نعم .. عايدة الضلع الثالث من أضلاع مثلث السعادة التي يحياها .

في منزل هاشم مثلث كبير .. تدغدغ أضلاعه أعصاب هاشم في حنان .. مثلث يدعوه إلى العودة .. يدعوه إلى البقاء .. أصدقاؤه وزملاؤه يكفيه منهم ذاك الوقت الذي يمر بين المحاضرات ، وفي بعض الدروس الخاصة لكن السعداء لا يتأخرون .. هاشم أكثر شباب مصر سعادة بعائلته الصغيرة .

ولم ينتظر هاشم المصعد، بل ركض على سلالم البيت في لهفة .. يجب أن يصل قبل أن تطلبه هدى وتجد هاتفه مغلقًا .. ستجن خوفًا إن فعلت .. يجب أن يصل ليخبئ الكتاب الذي أحضره لعايدة .. سيفاجئها به بعد انتهاء العشاء .. لقد بحث عنه كثيرًا .. أخيرًا أحضره على صديقه هذا الصباح .. إنه أحد مجموعة أعمال غادة السمان .. تحبها عايدة .. تحب قصائدها .. حاولت كثيرًا الوصول إلى هذا الكتاب في مصر ، ولم تجده ، ولكن ها هو على صديقه أحضره له من بيروت .

«أشهد عكس الريح» .. أخيرًا سيهديه لعايدة .. أخيرًا سيجلسان معًا ويتصفحان أوراقه .. ليرى أي قصيدة ستحبها .

سيتفقان .. حتمًا سيتفقان .. لقد فتح هاشم عينيه على امرأتين .. هدى أمه وعايدة .. عايدة هي التي حملت هاشم بين ذراعيها يوم مولده ، وهي في الخامسة من عمرها .

كيف لا يعود وخلف هذا الباب مثلث ، له ثلاثة أضلاع أحدها حب والآخر رقة ، والثالث أمان لا حدود له .

السعداء لا يتأخرون أبدًا عن العودة إلى منازلهم!

وفتح هاشم الباب لتصيح هدى:

هاشم .. قافل تليفونك ليه يا حبيبي؟!

وابتسم هاشم لتضيء ابتسامته وجهه الأبيض المستدير .

ونظرت هدى إلى عينيه الخضراوين في حنان .. إنه قطعة من جدته لأبيه الإيرانية .. عيناه المستديرتان الملونتان .. أنفه الذي يقف في اعتدال .. وشفتاه المستديرتان .. حتى شعره البني الناعم هو شعر جدته والدة منعم رحمها الله .. شيء واحد لا تعرفه هدى .. وهو كيف جاء هاشم بهذا الطول ، بينما هي ومنعم والده يميلان إلى القصر، لكنها أقبلت نحوه لتضمه في حنان .. لا يهمها إن كان هاشم طويلًا أو قصيرًا .. جميلًا أو دميمًا ، بل ربما كانت تتمناه أقل جمالًا لئلا تخاف عليه من عيون النساء بل عيون البشر جميعهم .. وضمته إلى صدرها في حنان ، وشعر هاشم أن شيئًا ما في عناقها اليوم يختلف ، لكنه ابتسم ابتسامته الهادئة، وهو يقول:

ياستي .. أنا قفلت التليفون من ثواني تحت باب العمارة .. أنا حادخل أودتي أغير .. بابي فين؟!

وأجابت هدى قائلة:

بيلبس .. يللا الأكل جاهز .

وأقبل هاشم من غرفته ليجلس إلى المائدة ، بعد أن قبّل رأس منعم ، ثم قال، وهو ينظر حوله في هدوء:

عايدة فين؟!

وردت هدى بسرعة قائلة:

دينا خدتها .. تلاقيها عايزة تاخد رأيها في طريقة فرش البيت .

إلا أن «هاشم» قال في تعجب:

يعني إيه .. مش حاتتغدى؟!

وأجاب منعم في صوت خفيض:

كُل أنت يا هاشم دلوقتي .

كان هاشم جائعًا فأخذ يلتقط قطع البطاطس التي يحبها ، وهو يقول:

مش أنا جبتلها الكتاب بتاع غادة السمّان اللي كان نفسها فيه يا مامي .. أوعي تقوليلها .. أنا حاحطه على سريرها عشان تلاقيه لما ترجع .

ثم عاد يقول:

هي اتغدت ولا أعملها طبق؟!

وأجابت هدى في نبرة حزينة:

أكيد اتغدت يا هاشم .. أكيد ..

وألقى منعم بالشوكة في صحنه ، وهو ينظر إلى وجه هدى كأنه يلومها ، ثم نهض قائلًا:

ماليش نفس آكل .. أنا نازل المكتب يا هاشم .

وعادت هدى تطعم «هاشم» ، وهي تحاول أن تشيع جوًّا من المرح .

وانطلق هاشم يحكي لها عن يومه ويسألها عن يومها .. عن دينا .. عن طنط نجوى .. إنه سعيد لأن دينا لن تغادر عمارة نهرو بعد زواجها .. دينا قطعة من قلبه وقلب عايدة .. دينا أكبرهم .. دينا في الثامنة والعشرين، وعايدة في السابعة والعشرين .. وحده هاشم أصغرهم ، فهو في الثانية والعشرين من عمره .. ولكن عايدة دومًا كانت هي أكبرهم .. عايدة هي التي كانت تحنو

عليهم وتمنحهم نصيبها من الحلوى ، بل كانت تتظاهر في طفولتها دومًا أنها خسرت في تلك الألعاب التي كانوا يلعبونها معًا وهم أطفال لتراهم سعداء.

نجوى وهدى أيضًا كانتا صديقتين .. يوم مات مختار والد دينا أصبح منعم والدها ، وأصبحت نجوى تعود إليه في كل قرار في حياتها .. حتى يوم جاء حسن يخطبها ، أخبرته أن «منعم» وحده صاحب القرار ، ومعه وحده يجب أن تتم الاتفاقات .. نجوى أيضًا كانت مترددة في قبول حسن .. بل ربما كانت ترفض زواج دينا برمته .. نجوى تريد دينا أن تبقى معها .. نجوى مجنونة بدينا وسعادة دينا ، وترى أن زواجها كان من الممكن أن ينتظر أعوامًا .. حتى يوم التحقت دينا بالعمل الذي وضعها فيه عبد المنعم شيرازي كانت مترددة .. كانت تخشى عليها من الخروج كل يوم ، والاحتكاك بمجال الفنادق والسياحة .

لكنها قبلت .. ألحت دينا وقال منعم كلمته ..

لكن «منعم» ما استطاع أبدًا أن يفرض كلمته على هدى ، حين طلبت عايدة الالتحاق بعمل ما هي الأخرى بعد تخرجها .. هدى رفضت .. هدى خوفها على عايدة أكبر من خوف نجوى على دينا ..

وخضوع عايدة واحترامها لرغبات هدى أكبر من خضوع دينا وانصياعها لنجوى ..

وابتسم هاشم في حنان .. لقد وعد عايدة أن تخرج للعمل عندما يتخرج هو من الجامعة العام القادم .. وعدها أنه هو لحظتها سيقنع هدى .. سيأخذ عايدة معه كل صباح ، وسيعود لاصطحابها إلى المنزل .. عايدة تريد أن تعمل ، ومن حقها أن تخرج إلى العمل وإلى الحياة .. ربما كان هاشم في أعماق أعماقه سعيدًا ببقائها في البيت .. هاشم وعائلته الصغيرة يرون عايدة أنقى وأرق

من أن تخرج إلى الشارع .. عايدة زهرة مكانها قلوبهم وأعينهم ، وربما كان هاشم أيضًا يغار عليها .. لا عين ترى عايدة دون أن تقف عندها ولا قلب يراها ، دون أن يتمنى أن يسكن قلبها ، ولا رأس يعرفها ولا يتمنى أن تصبح من نصيبه ..

ورفع هاشم عينيه ليقول وهو ينهض عن مقعده:

لا .. أنا حاروح أجيب عايدة .. كلنا مش عارفين ناكل من غيرها .

وقبل أن ينهض هاشم ، وضعت هدى كفها على كفه الأبيض ، لتقول في مرارة لم تستطع أن تخفيها:

هاشم .. عايدة مش راجعة .. عايدة مش عند دينا .. عايدة مشيت!

ولم يفهم هاشم شيئًا لكنه جلس على مقعده مرة أخرى ، قائلًا في ذهول:

مشيت؟! راحت فين؟!

وقاومت هدى دمعة صغيرة رقصت في عينيها لتقول:

راحت المنصورة .. رجعت بلدها عند عمها .. خدها النهاردة الصبح .

وسقطت الدمعة الحائرة ، عندما رفعت هدى عينيها لتنظر إلى وجه هاشم الشاحب ، ثم قالت:

هاشم .. عايدة مش راجعة تاني!!

****

نظر منعم إلى الساعة الموضوعة على مكتبه في ملل وحزن كبيرين .. فوجدها قاربت منتصف الليل .. يجب أن يعود إلى منزله .. ولكن كيف يعود ، وهو يعلم أن منزل عبدالمنعم شيرازي لم يعد أبدًا كما كان ..

كم مرة حادثه هاشم ليسأله عن طريقة يصل بها إلى عايدة؟!

كم مرة حاول منعم نفسه أن يصل إليها .. هاتفها الصغير مغلق .. وهاتف طلعت عمها أيضًا مغلق .

واستدار منعم بكرسيه الجلدي الكبير إلى النافذة الكبيرة ، التي تقع خلف مكتبه لينظر إلى ميدان روكسي في حزن .. كل شيء يتلألأ في الميدان .. مصابيح الشارع ومصابيح السيارات .. المحال الكثيرة وروادها الذين مازالوا يتسكعون على الأرصفة رغم انتصاف الليل .. كل شيء كما هو في ميدان روكسي .. كل شيء كما هو في مكتب الدكتور عبد المنعم صادق شيرازي، ولكن لا شيء أبدًا سيبقى في قلب منعم .. ولا قلب هاشم وحيده ولا حتى قلب هدى كما كان!!

وخلع منعم نظارته التي كان يرتديها لقراءة الملفات ، وعاد يستدير إلى النافذة من جديد .. ولمح بعينيه امرأة تسير وبيدها طفلة صغيرة لا تتجاوز الخامسة من عمرها .. وبلا وعي خرجت من صدر منعم آهة كبيرة .. كأنه رأى عايدة يوم دخلت بيته منذ أكثر من عشرين عامًا .. كم كان عمره آنذاك .. كان في الثانية والأربعين ، وكانت هدى في الأربعين من عمرها .. يئسا من

إنجاب طفل .. وكرها كل أطباء النساء والتوليد والعقم، وقررا أن يغلقا هذا الباب إلى الأبد .. كانت هدى قوية صامدة رغم انكسارها الكبير .. إلا أنها بقيت كما كانت يوم زواجه منها .. بقيت تحبه وتدلّله كأنه طفلها، وبقي هو قانعًا صامتًا لا يبالي برغبته الدفينة في أن يصبح أبًا .. حتى كان ذاك الصباح ، يوم رأى هدى تبكي، في ذهول لتخبره أن طلعت إبراهيم حادثها في منتصف الليلة الماضية ليخبرها بوفاة أخيه وزوجته في حادث فظيع .. كانت هدى تبكي ، وهي تصف له كيف وجدوا أحلام زوجة صابر ، وهي تحتضن عايدة بين ذراعيها .. وجدوا صعوبة كبيرة في فك ذراعيها من حول الصغيرة التي جاوزت الرابعة من عمرها .. شاءت الأقدار أن تنجو عايدة وحدها، دون أن يصيبها حتى خدش صغير ، وكأن ذراعي أمها هما طوق نجاتها .

بكت هدى وهي تحكي لمنعم ذاك الصباح ، ثم عادت ترفع وجهها لتخبره أن طلعت لا يريد رعاية عايدة ولا يعلم أين يذهب بها .. أحلام أمها كانت وحيدة لا عائلة لها .. وطلعت هو الأخ الوحيد لصابر ، ولكنه مثقل بخمسة من الأبناء والبنات ، كما أن زوجته امرأة سليطة اللسان قاسية القلب .. عمل طلعت سائقًا لدى والد هدى زمنًا ، ولكنه بعد أن أنجب أبناءه الخمسة فضل العودة إلى المنصورة والبقاء فيها ؛ حيث فتح بقالة صغيرة ليصبح إلى جوار زوجته وأبنائه .

منعم لا يذكر أبدًا متى بالتحديد أعلنت هدى رغبتها في تربية عايدة .. منعم لا يذكر حتى إن كانت هذه فكرتها، أم أنها كانت من إيحاء طلعت لها. كل ما يذكره هو أنه في اليوم الثالث لوفاة والدي عايدة ، جاء بها طلعت إليهم ..

منعم لا ينسى أبدًا كيف وقفت عايدة بأعوامها الأربعة ، تنظر إلى هدى ومنعم في خوف كبير ، وتتلفت حولها في ذهول .

منعم لم ولن ينسى أبدًا كيف كان ثوبها القديم متسخًا ، وكيف كان شعرها مهوشًا حول وجهها الأبيض الرقيق .

أحضرها طلعت بثوب متسخ وصندل أسود يكاد يكون ممزقًا وتركها ، كأنه تخلص من قطعة لحم فاسد ألقاها خارج بيته .

منحته هدى يومها مبلغًا من المال ليستعين به بعد مصروفات الوفاة والدفن ، وأخبرته أنها لن تسمح له أبدًا باصطحاب عايدة في أي زيارات إلى المنصورة .

منعم لن ينسى كيف نظر طلعت إليها مبتسمًا في مرارة ، وهو يقول إنه حتى لا يملك أن يحضر إليها .. إنه مشغول مثقل بالأعباء والمسئوليات .. لو غاب يومًا عن بقالته ، فلن يجد ثمن قارورة حليب يعود بها إلى زوجته وأبنائه الخمسة .

وبقيت عايدة ترتجف بعد خروج طلعت من البيت ، وأخذتها هدى إلى الحمام لتخرج بها بيضاء جميلة مشرقة .. لكن هدى صاحت لحظتها عندما اكتشفت أنه لا شيء لديها يصلح لأن ترتديه الصغيرة .. ولاحت ابتسامة مريرة على وجه منعم ، وهو يتذكر كيف وضعتها هدى في السرير تحت غطائه، وذهبت إلى نجوى لتأخذ منها بعض ثياب دينا لترتديها الصغيرة القادمة ؛ حتى تشتري لها لوازمها في الصباح التالي .

وانتفض منعم ، وهو يسمع صوته يقول: «آه يا عايدة!» .

منذ رآها ترتجف بجسدها العاري الصغير تحت غطاء سريره ، وهو يحبها .. منذ تلك اللحظة وهو يشعر أن عايدة يمامة صغيرة لا حول لها ولا قوة .. تلك اللحظة لم ينسها أحد .. حتى نجوى ودينا عندما جاءا مع هدى وهي تحمل بعضًا من ملابس دينا أحبوها في نفس اللحظة .. نجوى كانت

دومًا تستعيد تلك اللحظة .. كانت عينا عايدة الخضراء ترسل ألف استغاثة وصرخة خوف وحيرة .

منعم لن ينسى أبدًا أن نجوى وقفت بباب غرفتها ، تنظر إلى عايدة التي أطل رأسها من تحت غطاء السرير في خوف لتصيح نجوى في حنان:

يا حبيبتي يابنتي .. لبسيها بسرعة يا هدى ..

وجلست هدى إلى جوارها على حافة السرير ؛ لتخرج عايدة بجسدها الصغير العاري وتقف أمامهم جميعًا ، وهدى تسارع بوضع الملابس على جسدها .. حتى دينا التي كانت في الخامسة يومها ركضت نحو عايدة لتسألها إن كانت تريد ثوبًا آخر إن لم يعجبها ما أحضرته لها هدى .. حتى دينا الصغيرة في ذلك الوقت شعرت بخوف عايدة وانتفاضتها .. دينا وقفت تربت على رأس عايدة التي تصغرها بعامين ، وهي تقول لها:

«انتِ حلوة قوي .. اسمك إيه؟!» .

وفي لحظة .. في اللحظة ذاتها وقع الجميع في عشق اليمامة الصغيرة .. نجوى وهدى ومنعم .

دينا وعايدة أصبحتا كتوءمتين لا تفترقان إلا عند ذهاب دينا إلى مدرستها، أو أثناء قيامها بواجباتها المنزلية .

كم كان الجو باردًا .. لن ينسى منعم أبدًا كيف كانت عايدة تنتفض خوفًا وبردًا ، ولكن كيف ينسى أن قلبه هو أيضًا كان ينتفض شوقًا إلى الدفء الذي ملأت به عايدة البيت .. لم تكن أبدًا تثير المشاكل .. بل لم تكن حتى في حركة الأطفال وضجيجهم، وكأن تلك اللحظات التي قضتها بين ذراعي أمها الميتة خلقت منها طفلة هادئة ناعمة ، في عينيها انكسار وأطياف حلم ، لا هو يتحقق ولا هي تيأس منه أبدًا .

دورًا قصير ، يقف عند نهاية عنقها الأبيض الطويل .. عايدة ليست طويلة أبدًا .. إنها كملاك صغير يتلألأ وجهه بالرضا والحنان .. عايدة ليست فقط جميلة .. لكنها حنون متدفقة المشاعر والأحاسيس .. إنها هدية من رب السماء..

آه يا عايدة!! بعد حضورها بستة شهور اكتشفت هدى أنها حامل .. لن ينسى منعم أبدًا كيف ضمت هدى عايدة إلى صدرها ، وهي تعلن أن الله أكرمها بالمعجزة الكبرى ؛ لأنها ضمتْ اليتيمة وأكرمتها .

ظن منعم أن هدى ستعيد عايدة إلى طلعت بعد مولد هاشم .. ظن منعم أن حبه لعايدة سيتأثر بعد مولد هاشم ، وهو في الأربعينيات هو وزوجته ، ولكن أبدًا لا حبها لهذه اليمامة تغير ، ولا اليمامة شعرت بالغيرة من مولد هاشم .

عندما ولد هاشم ، كانت عايدة في عامها الأول في مدرسة سان چوزيف .. كانت عايدة تركض إن دخلت البيت بحثًا عن هاشم .

هاشم وعايدة!! من كان يعلم أن «هاشم» سيحب عايدة ولكن من يلومه .. هذه اليمامة يجب أن يعشقها الجميع .. هذه اليمامة رسالة حب وحنان إلى كل من وقفت على نافذته .

لا فائدة .. يجب أن يعود منعم إلى البيت .. إنه يوم عصيب .. لم فعلت هدى هذا؟!

لا يعلم إن كان يجب أن يلومها أو يشكرها ..

مسكينة هدى سيبقى عذابها مضاعفًا .. فراق عايدة يذبحها ، واختيارها لهذا الفراق سيذبحها أكثر .

يجب أن يعود .. رغم كل شيء، يجب أن يكون إلى جوار هدى وهاشم في أولى ليالي الفراق .

أطفأ منعم أضواء المكتب كلها .. لقد ذهب الجميع منذ أكثر من ساعة وهو أيضًا يجب أن يذهب .. يجب أن يذهب إلى بيت منعم صادق الذي فارقته يمامة بيضاء جميلة ، ظلت ترفرف على نافذته أكثر من عشرين عامًا .

حين أطفأ الدكتور منعم محرك سيارته المرسيدس ، ووصل إلى الدور السابع حيث لا شيء سوى بيته وبيت نجوى ، فتح باب المصعد ليزفر نفسًا عميقًا من صدره، وقبل أن يصل إلى باب بيته ، سمع دينا تفتح باب بيتها ، وهي تصيح:

أنكل منعم .. عايدة فين؟! أنا لسة راجعة لقيت الجواب .. طلبتها ما بتردش .. عايدة فين يا أنكل منعم؟!

والتفت منعم ينظر إلى دينا العروس الجميلة ، ورأى في عينيها خوفًا وذعرًا ذكره بيمامته البيضاء ، فقال ودمعة صغيرة تسقط من عينيه:

عايدة مش حاترجع يا دينا .. مش حاترجع!!

****

عايدة لن تعود .. قالتها هدى .. وإن قالت هدى كلمة فهي تعنيها .. لم تقل هدى يومًا كلمة جزافًا .. هدى وراء رحيل عايدة ، أو على الأقل هدى سعدت برحيل عايدة ..

وبلا وعي عاد هاشم يتحسس كتاب غادة السمان بين أصابعه من جديد وهو يفكر في عايدة .. ليتها أخذت معها الكتاب .. كانت ستؤنسها قراءته وهي وحدها هناك .. ليتها بقيت يومًا آخر .. ليتها رحلت في الغد .. ولكن هاشم يعلم أنها كانت سترحل يومًا .. ودق هاشم رأسه بقبضته في عنف .. إنه يلوم نفسه .. هو المسئول عن رحيل عايدة .. لم يكن يعلم أن جملة صغيرة قالها لهدى تشعل كل هذه الحرائق .. لم يكن يعلم أبدًا أن جملة صغيرة بإمكانها أن تمحو أعوامًا من الحب والذكريات .. جملة صغيرة تمحو إنسانًا بأكمله وتلغي وجوده في بيت منعم صادق .

ولكن ربما كان غلطًا .. لِمَ يظلم هدى؟!

نهض هاشم عن فراشه ، وخطى نحو نافذة غرفته المطلة على حدائق الميرلاند بمصر الجديدة ، ووقف يرقب الشارع من خلف زجاج نافذته ..

رحلت عايدة .. في أذن من سيلقي هاشم النكات التي يسمعها ويرددها حتى لا ينساها .. بذراع من سيمسك عند الذهاب إلى دار الأوبرا أو السينما؟! .. من سيستمع معه إلى موسيقى ياني وخيرت؟!

من بعد هذه الليلة سيتسلل إلى غرفته ، بعد نوم هدى ومنعم ، ليجلس إلى جواره أمام الكمبيوتر ليبحثا معًا عن أحلى الأغاني والصور .

ورفع عينيه ليرى وجهه منكسًا على زجاج النافذة .. إن وجهه الأبيض الجميل حزين ، وعينيه الخضراء المستديرة دامعة ..

نعم .. يحب عايدة .. يحبها .. صرخت هدى يوم أخبرها هاشم أنه يريد أن يتزوج عايدة بعد الانتهاء من الجامعة .. لم يرها يومًا بهذه الثورة وهذا الغضب .. لقد أقسم لها ألا شيء بينهما .. لقد أمسك بالمصحف بين أصابعه وأخبرها أن عايدة نفسها لا تعلم شيئًا .. لكن هدى ما هدأت أبدًا .. منذ ذلك اليوم، والذي مضى عليه شهران، وهدى لا تكف عن مراقبتهما .. هدى أخبرته أنها لن تسمح أبدًا بأن يفكر في عايدة كأي شيء على الأرض، سوى أنها أخته التي كبرت إلى جواره .

هدى تفضل أن تقتل نفسها على أن تسمع هذه الجملة تخرج من شفتيه مرة أخرى .. عايدة أكبر منه .. عايدة ابنة سائق بسيط من إحدى قرى المنصورة ، وعمها كان سائقًا لدى جده .. بل إن زوجة عمها كانت خادمة في بيت والدها ..

هاشم صادق يجب أن يتزوج فتاة تليق به ، وبأبيه الدكتور منعم صادق أستاذ القانون .. هاشم صادق وريث هدى أباظة ابنة سليمان أباظة الوزير السابق .

هدى صرخت يومها وهي تصيح أن «هاشم» مازال طفلًا .. مازالت أمامه أعوام من التجارب وقصص الحب والعمل والنجاح حتى يفكر في الزواج .. لن ينسى هاشم أبدًا أنها أخبرته في ثورتها أن عايدة يجب أن تعود من حيث أتت .

لم يفهم هاشم لحظتها ما تعنيه هذه الكلمات .. كل ما كان يعنيه لحظتها أن تهدأ هدى .. إنه يحبها بجنون .. إنه يخشى عليها .. إنها مريضة .. هدى تعاني من ضعف في عضلة القلب ، بالإضافة إلى السكر والضغط .. كان كل ما يعنيه لحظتها ألا تغضب هدى .. لم يكن يتخيل أبدًا أن تفعل هذا .. ولكن ربما كانت مصادفة .. ربما جاء حقًّا عم عايدة وأصر على اصطحابها .

لكنَّ هاشم نفض رأسه في جنون .. أبدًا ما كانت هدى لتتركها ترحل .. هدى لا تستسلم أبدًا .. هدى امرأة لم ير هاشم مثلها يومًا .. لا شيء يساوي حنانها وعطاءها إلا إصرارها وعنادها .

عايدة لن تعود .. قالتها هدى .. وهاشم يؤمن أن كل كلمة تقولها هدى هي حقيقة يجب أن يسلم بها .

عايدة بعيدة جدًّا .. عايدة ليست في المنصورة .. عايدة في حياة أخرى وعالم آخر .. هدى لن تسمح لها بالعودة إلى حياة هاشم أو عالمه، وهاشم لن يقوى أبدًا على التمرد على هدى .. لن يقتلها هاشم .. ليته ما قالها .. ليته ما أعلن حبه لعايدة .. عايدة وحدها تدفع ثمن خطئه .. عايدة تدفع ثمن حب هاشم لها، وهي حتى لا تعرف شيئًا عن هذا الحب .. نعم .. عايدة لا تحبه .. عايدة تراه كما تراه هدى طفلًا صغيرًا .. عايدة مازالت تدخل عليه كلما نهضت عن سريرها ليلًا لتحكم عليه الغطاء ولتأخذ من بين أصابعه جهاز الريموت كنترول لتطفئ جهاز التليفزيون .. عايدة تدفع ثمن خطأ وقع فيه هاشم وحده .

ضم هاشم كتاب غادة السمان إلى صدره، وهو يحملق في سقف غرفته ..

«أشهد عكس الريح» .. كتاب لن تقرأه عايدة أبدًا .. وحب هاشم لها سيبقى حيًّا لا تعرف عنه شيئًا أبدًا!!

****

دخلت هدى غرفة هاشم في السابعة صباحًا لتوقظه .. إنها تتحرك ببطء .. أعوامها التي جاوزت الستين ، وأحزانها التي جاوزت الألف عام تقف دون الخفة .. وجذبت ستائر النافذة الكبيرة التي تطل على شرفة كبيرة ، حين تخرج إليها تشعر أنك تتوسط بحيرة حدائق الميرلاند .. غيروا البحيرة منذ أعوام .. كانت مساحتها أكبر وعدد الطيور بها كان أكثر ..

عندما نظرت إلى طيور الفلامنجو الوردية شعرت هدى أنها حزينة .. حتى طيور البحيرة بدت حزينة .. كل شيء حزين لرحيل عايدة .. عايدة ليست مجرد فتاة جميلة ، ولا حتى ابنة هدى ، ولا هي فقط أول من قال لها «ماما» .. عايدة زهرة رقيقة حانية ، يستشعر جمالها كل ما حولها ، وإن كان قطعة من الجماد .. واستدارت هدى لتمضي في هدوء إلى سرير هاشم لتجلس على حافته ، وهي تنظر إلى وجهه النائم في حنان .. وعندما مدت أصابعها لتحكم عليه الغطاء ، شعرت بشيء ما على صدره وأزاحت عنه الغطاء لتجد كتاب غادة السمان غافيًا بين ذراعيه ..

وسقطت دمعة صغيرة من عينها .. هاشم يحب عايدة حقًّا ..

ما كان من الممكن أن ترضخ هدى لهذا العشق المجنون .. ما كان من الممكن أيضًا أن تتجاهل هذه القصة .. كان من الممكن أن تشعر بها عايدة .. كان من الممكن أن تستجيب له ..

وعادت هدى تنفض رأسها في خوف .. عايدة وهاشم أخ وأخت هكذا يجب أن يبقيا ما بقيت الحياة ..

هدى خشيت على عايدة أكثر من خوفها على هاشم نفسه .. ولكن هل أخطأت يوم حادثت طلعت وأحضرته إلى بيتها لتخبره؟! هل أخطأت يوم طلبت منه أن يأخذها إلى المنصورة؟ هل أخطأت يوم أخبرته أنه يجب أن يجد لها زوجًا بمعرفته الشخصية ..

هدى لا تريد أن تخوض معارك ومهاترات .. لا تريد أبدًا أن يقف طلعت أمامها يومًا ليرفض رجلًا تحضره هدى .. ولكن لم ليست سعيدة .. لم تشعر أنها تخلت عن عايدة .. لقد أخبرها طلعت أن لديه لها زوجًا رائعًا .. شاب يحمل الجنسية الإنجليزية .. في اليوم السابق لحضوره أخبرها أنه أعدَّ كل شيء وعايدة ستتزوج خلال أسابيع قليلة .. لم تشعر هدى بالذنب إذن؟!

هاشم سينسى .. هاشم يجب أن ينسى .. هاشم مازال طفلًا صغيرًا .. عندما تبتعد عايدة ، سيعرف كيف ينظر حوله .. سيتعلم كيف ترى عيناه سواها .. هدى وحدها أكثر من سيقتلها فراق عايدة!!

عايدة ابنتها .. عايدة هي التي تبقى معها في البيت، عندما يتركه هاشم ومنعم .. عايدة هي التي تخرج معها إلى الزيارات والدعوات والسهرات .. عايدة هي التي تملأ أيامها حبًا وعطاء ..

هدى لم تتخل عن عايدة بما فعلته .. هدى أنقذتها من خطيئة قد تحدث .. هدى تساعدها على أن تحتفظ بهاشم أخًا مدى الحياة ..

وتحسست هدى الكتاب بين أصابعها .. يجب أن يفيق هاشم من هذا الوهم .. ما كان لعايدة أن تكون له يومًا .. إنها أكبر منه .. إنها من عائلة بسيطة فقيرة .. عمل معظم أفرادها لدى هدى وعائلتها .. عايدة ستبقى ابنتها .. كل الفتيات يتزوجن ويرحلن .. عايدة رحلت لتتزوج ، ولكن سيبقى بيت عبد المنعم يرحب بها .. سيبقى لها في هذا البيت أم وأب وأخ .

وانحنت هدى تقبل كف هاشم في حنان ، وهي تناديه ليفتح عينيه وينظر إليها ، كأنه يحاول أن يفهم لم هي التي توقظه وليست عايدة ..

أرخى هاشم جفنيه في حزن .. لقد تذكر .. عايدة ليست هنا .. عايدة رحلت ولن تعود .. واتكأ هاشم على بعض الوسائد ، ثم انحنى يمسك بكف هدى ليقبله قائلًا:

أنا مش حاروح الجامعة النهاردة يا مامي .. أنا حاروح المنصورة عند عايدة ..

ونظرت هدى إليه في ألم لتقول:

هاشم .. سيب عايدة تتكيف مع حياتها الجديدة .. لو لقتك يا حبيبي قدامها حتصعب عليها الأمور .. صدقني .

ولم يستطع هاشم أن يخفي ما في صدره أكثر ، فنظر إلى هدى في شيء من اللوم ، وهو يقول:

ليه عملتي كدا .. كل دا عشان قلتلك بحبها وعايز أتجوزها .. ليه؟!

وقاطعته هدى في نبرة قوية قائلة:

لأ يا هاشم .. أنا عملت كدا عشان عايدة مش زيك .. عايدة حاجة تانية .. فاكر أنت أنا كنت إزاي بارفض أخلّي عايدة تروح رحلات فيها بيات برا .. فاكر .. ليه لما دخلت الجامعة أنا كنت باخلي السواق يقف على باب الجامعة يستناها تخلص محاضراتها وترجع .. فاكر يا هاشم لما احتاجت درس في الدراما ، أنا كنت بادفع أضعاف اللي الولاد بيدفعوه عشان المدرس ييجي

هنا وهي ماتروحش .. فاكر أنت نفسك ودينا كنتوا بتترجوني قد إيه عشان تبات ليلة برا في معسكر أو رحلة ، وأنا كنت دايمًا بارفض .. فاكر؟!

سكتت هدى لحظة ، ثم رفعت رأسها لتنظر إلى عيني هاشم ، ومضت تقول:

أنا كنت باسيبك أنت تعمل حاجات كتير من دي لأنك ابني .. لكن عايدة .. عايدة أمانة .. أمانة يا هاشم .. أنا ممكن أولع في فستاني دا .. لكن لو نجوى ادتني فستان أمانة ، لازم أحافظ عليه عشان أرجعه زي ما أخدته .. عايدة أمانة .. شعورك ناحيتها دا شعور مراهقة وتعوّد ، لكن كان ممكن يعمل كارثة .. لأ ـ الشعور دا ما كانش حيعمل حاجة غير كارثة كبيرة ، لو أنا طاوعتك حتى ورضيت أجوزك واحدة أكبر منك وبينك وبينها كل الفروق الاجتماعية والمادية دي .. كانت الكارثة حتحصل كمان كام سنة، وكانت حتخسرك وتخسرها واحنا كمان نخسر بنتنا .. ولو سبتها تعيش معانا ونسيت الحكاية يا هاشم .. كان شعورك دا حيتنقل ليها .. عايدة بكر يا هاشم .. مشاعرها وعواطفها ماتلمستش .. لو حست بالوهم اللي جواك حتجري وراه ويرضه في النهاية حتتدمر .. يا ابني دي أمانة ـ حرام .

وعادت هدى تربت على كفيه ، وهي ترى طيف دموع يلوح بين جفنيه لتقول:

قوم روح جامعتك عشان خاطري وصدقني عايدة بخير ..

نفض هاشم غطاء سريره ، وهو يقول:

أنا رايح المنصورة .. لو عايدة ماردتش على التليفون .. أنا رايح المنصورة .. حتى لو كان اللي قولتيه دا صح .. عايدة لازم تحس إن احنا أهلها .. بندور عليها وواقفين جنبها .. مين عمها طلعت دا؟! مش دا اللي أنتي كنت بتقولي إنه رماها .. أنا مش حارميها .

وقبل أن يغادر الغرفة ، التفت هاشم ينظر إلى هدى ، ثم قال:

ماما .. أنا مراهق ومشاعري متلخبطة وموهوم بحب عايدة يمكن .. لكن أنا ابنك .. وعايدة كمان بنتك .. فيه أخ في الدنيا أخته تروح بلد تانية من غير ما يشوفها .. ما يروحش حتى يقولها أنا معاكي .. فيه أخ في الدنيا أخته تسيب البيت من غير ما يقولها أشوف وشك بخير .. ينفع؟!

وأطرقت هدى برأسها ، ثم نهضت تتبع هاشم في صمت ـ ولحقت به لتناديه قائلة:

هاشم الفطار جاهز .. نفطر ونكلمها .. لو ردت يبقى خلاص .

وفي اللحظة التي عاد فيها هاشم من الحمام ؛ ليجلس إلى جوار هدى ويرقبها، وهي تصب له كوب الشاي سمع صوت الجرس يدق وانتفض هاشم في جنون .. ربما عادت عايدة .. ربما عادت ـ هي أيضًا لا تحتمل فراقها عنهم .

وركض هاشم إلى الباب ، وعيون هدى تتبعه في قلق كأن الفكرة نفسها طرقت رأسها .. وعندما فتح هاشم الباب ، أطلت دينا وهي ترتدي بنطلونًا جينز أسود وعليه قميص أحمر .. كان واضحًا أنها ارتدت ملابسها على عجل .. كان واضحًا أن القلق يأكلها .. كان واضحًا أنها جاءت تسأل عن عايدة قبل ذهابها إلى عملها .. ودخلت دينا لتتجه في بساطة إلى حيث تجلس هدى على مائدة الإفطار ، ووضعت على جبهتها قبلة، وجلست وهي تقول:

صباح الخير يا طنط .. ما فيش أخبار؟!

وعاد هاشم ليجلس أمامها ، وهو ينظر إلى مقعد عايدة في حزن قائلًا:

لسه ما جربناش نطلبها .. قلنا نستنى شوية يكونوا صحيوا من النوم .

إلا أن دينا قالت في لهفة:

أنا باطلبها من الساعة ستة الصبح .. تليفونها لسه مقفول .. خش يا هاشم غير هدومك وتعالَ معايا .

ورفعت هدى عينيها تنظر إلى دينا في دهشة لتقول:

هاشم عنده جامعة يا دينا وأنتِ عندك شغل ..

لكن دينا قاطعتها قائلة:

إيه؟ جامعة؟! قوم يا هاشم .. أنا خدت أجازة .. أنا رايحة المنصورة لعايدة .. حتيجي معايا ولا لأ؟!

****

صاح اللواء عبد الكريم في حزم مناديًا حسن ، بعد إعداده لمائدة الإفطار؛ ليأتي حسن بعد دقائق ويجلس إلى جواره قائلًا:

دي لخبطة يا سيادة اللواء .. النهاردة دوري في تحضير الفطار .. ولا أنت عايز تبدل معايا؟!

وابتسم عبد الكريم ابتسامته الوقورة الصغيرة ، وهو يربت على كف حسن، ثم قال:

أونطجي وضلالي طول عمرك يا حسن .. عارف؟! حتوحشني ..

ومد عبد الكريم يده إلى حسن بكوب الشاي ، ثم أكمل قائلًا:

حسن .. تحبوا تحجزوا للفرح فين .. في المدفعية ولا دار الدفاع الجوي ..

وبلا وعي أطلق حسن تنهيدة صغيرة ، عاد عبد الكريم بعدها يقول:

لسة متردد من حياتك مع دينا في بيت أمها يا حسن؟!

وأخذ حسن رشفة من كوب الشاي ليقول في صوت هادئ:

أيوة؟ عارف أنا كنت عايز نعيش معاك أنت .. والله مش عشان أبويا .. لأ .. عشان أنت عاقل .. طنط نجوى بتتدخل في كل حاجة وكلامها جامد .. أنا مش عايز أشيل منها ولا عايزها هي تشيل مني .. أنا مش عايز حياتي مع دينا يا بابا تدخلها مشاكل .. كفاية مشاكل الحياة الطبيعية اللي حتقابلنا ..

وفي هدوء نظر عبد الكريم إلى وجه حسن الجميل قائلًا:

حسن .. أنت عاقل .. عاقل جدًا .. رغم تهريجك وضحكك وانطلاقك الفظيع اللي كان دايمًا يقلق أمك الله يرحمها .. لكن جواك راجل عاقل متزن وحكيم .. نجوى أم ومش أي أم .. أم ماعندهاش غير بنت وحيدة .. أم أرملة وحيدة وكمان عندها مشاكل صحية .. ما نقدرش نحرمها من بنتها ولا نقدر نسيبها تعيش لوحدها .. فيه حاجة واحدة كبيرة مشتركة بينك وبينها هي التيمة اللي لازم تشتغل عليها .. الحاجة دي هي حب دينا وسعادتها .. دي هدف نجوى وأنت طريق تحقيقها .. نجوى حتحبك من حب دينا ليك وحتحبك لحبك لدينا .. حسن ..

وبتنهيدة أخرى رفع حسن عينيه الواسعتين ، وهو يقول:

نعم!!

وعاد عبد الكريم يقول:

لو نجوى دي أمك بكلامها الجامد وبمرضها كنت حتتوقع من دينا إيه؟! تتخلى عنها وترفض تعيش معاك ومعاها .. أنت راجل يا حسن ودينا وأمها اتحرموا من الراجل وأنت الراجل دا يا حسن ..

ما قلتش .. الدفاع الجوي ولا المدفعية؟!

وابتسم حسن ، وقبل أن يجيب أخرج هاتفه الصغير من جيبه ؛ ليقول في صوت حاني:

دي دينا .. نسيت أصبح عليها عشان كنت عايز أحضر الفطار ..

وابتسم عبدالكريم وهو يسمعه يقول:

أيوة يا دندون؟!

وعاد حسن يقطب حاجبيه قائلًا:

إيه؟! رايحة المنصورة .. ليه يا دينا؟! مع مين؟ هاشم .. طب أنزل آجي معاكم ..

دينا .. دينا طمنيني على عايدة أول ما توصلي ..

طيب يا حبيبتي محمد رسول الله ..

وأغلق حسن هاتفه ، وعاد ينظر إلى عيني عبد الكريم المفتوحتين ليقول في حزن واضح:

دينا منهارة يا بابا .. عايدة رجعت المنصورة تصور .. بعد العمر دا كله .. عايدة سابت بيت أنكل منعم ورجعت بلدها ..

وقال عبد الكريم في صوته الهادئ:

وإيه يعني؟ تلاقيها زيارة .. دول أهلها برضه .

ورفع حسن عينيه ليقول بعد لحظات:

لأ طبعًا .. لو زيارة ما تبقاش دينا منهارة كدا .. لو زيارة ماتاخدش هاشم سبعة الصبح ويسافروا .. لو زيارة كانت طلبت مني أنا أروح معاها .. الحكاية شكلها أكبر من كدا .. ربنا يستر .. يللا أنا لازم أنزل ..

سيب كل حاجة يا سيادة اللوا .. لما أرجع حانضف مكان الفطار ..

وانحنى حسن يقبل رأس والده في حنان، ومضى ورأسه مازال مشغولًا بالتفكير في دينا وهاشم وعايدة ورحلتهم إلى المنصورة!!

****

في حنان بالغ مد هاشم كفه ليربت بها على كف دينا ، التي نامت إلى جواره في طريقهما إلى المنصورة لتفتح دينا عينيها ، وهي تسأل في لهفة كبرى:

وصلنا يا هاشم؟!

وقال هاشم في صوت خفيض:

أيوة يا دينا .. هو العنوان إيه تاني عشان أنزل أسأل؟

وأخرجت دينا ورقة صغيرة من حقيبتها ، كان منعم والد هاشم قد كتبها لها قبل خروجها ، وقالت:

75 شارع المصرف .. عزبة الشال يا هاشم .. خلف مصنع الألبان .

والتقط هاشم الورقة من يدها بعد أن أوقف سيارته ، وهبط منها بحثًا عمن يرشده إلى الطريق .. وأخذت دينا تتلفت حولها .. المدينة جميلة وشوارعها نظيفة لامعة .. وأطلقت آهة صغيرة من صدرها .. هل تعود عايدة معهم؟ ..لا .. عايدة يجب أن تعود .. حتى إن كانت المنصورة بلدًا جميلًا ونظيفًا ..

المنصورة لم تعد بلد عايدة ولا عاد بيتها هنا .. بيتها هناك في شارع نهرو بمصر الجديدة .. بيتها إلى جوار هاشم الشيرازي .. بيتها إلى جوار دينا مختار.

وانتفض قلبها وهاشم يدخل إلى جوارها من جديد ، حيث انطلق مرة أخرى إلى حيث وصفوا له الطريق، وفتحت دينا عينيها في ذهول ..

الشوارع تضيق ومنازل قديمة متهالكة عشوائية، تطل برؤوسها القبيحة أمام عيني دينا .. حتى هاشم لم يستطع أن يخفي دهشته وكرهه للشوارع الضيقة والمطبات التي ترتطم بسيارته في قسوة .. ووصلا إلى مصنع الألبان ووقف هاشم بسيارته .. أصبح من المستحيل أن يتسع لها شارع من الشوارع التي تقع خلفه ، وتبادلا نظرة كلها ألم وخوف ليهبطا معًا من السيارة ، ويبدآ رحلة على الأقدام بحثًا عن شارع المصرف ..

أطفال بملابس متسخة يركضون .. وأطفال آخرون في زي مدرسي قديم متهالك يسيرون ، ورائحة كريهة تنبعث حولهم من فضلات الحيوانات وتراب الحارات الضيقة .. وبلا وعي أمسكت دينا بكف هاشم بين أصابعها؛ لتقول في خوف:

مش ممكن .. معقولة يا هاشم يكونوا ساكنين هنا؟!

وأحنى هاشم رأسه في صمت ، ثم عاد يرفعه ليسأل أحد المارة عن البيت، والذي رفع يده ليشير له دون اهتمام، لكنه وقف بعينيه طويلًا على وجه دينا الجميل ، كأنه لا يصدق أن شابين مثلهما يتجولان في هذا المكان .

وعاد يفيق من ذهوله قائلًا:

الحارة اللي هناك .. تاني بيت على إيدك اليمين ..

استكملا خطواتهما على وقع ضجيج دقات قلبيهما الملتاعة على عايدة ، وعلى فراق تلك اليمامة التي يحبونها جميعًا ، وأطل البيت حين دخلا الشارع واتسعت عينا دينا في ذعر .. البيت يكاد يقع على رأسيهما ، رغم أنه مازال على طوبه الأحمر .. لم تمر على واجهته الأمامية فرشاة دهان واحدة .. ودخلا من بابه الحديدي الضيق ليجدا سلمًا صغيرًا ضيقًا ، لا يمكن أن يعبره أحد إن كان بدينًا ، واحتارا إلى أين يصعدا ، إلا أن دينا قالت في عصبية:

نطلع لغاية ما نلاقي باب نخبط عليه يا هاشم ..

وصعد هاشم أمامها .. السلم لا يحتملها أبدًا إن سارا أحدهما إلى جوار الآخر .. وبعد درجات قليلة مليئة بالفضلات والقاذورات ، وجدا أمامهما بابًا خشبيًا قديمًا لا يعلم أحد كيف يمكن أن يأمن سكان الدار النوم خلفه .. وطرق هاشم الباب في هدوء .. لا يمكن أن يكون هذا هو المكان الذي قضت فيه عايدة ليلتها .. عبد المنعم شيرازي أخطأ في العنوان .. لا يمكن أبدًا أن يكون حتى خلف هذا البيت أحياء .

وبعد لحظات قليلة ، فتح الباب شاب يرتدي بنطلون بيجاما له خطوط عريضة لا يظهر لونها .. كان الشاب جميلًا طويلًا .. صدره العاري تمامًا كان عريضًا وذراعاه قويتين ، رفع إحداهما ليمسك بها الباب ويبقيه نصف مفتوح ، ونظر بعينيه الخضراوين في وجه دينا وهاشم ؛ ليقول دون دهشة:

مين؟

وجاء صوت هاشم ضعيفًا مذبوحًا ، كأنه يستحضره من زمن بعيد .. زمن لا كوابيس فيه .. زمن كانت عايدة وحدها تفتح فيه الأبواب .. كانت دينا تقف خلف هاشم ، وتطل بوجهها وعينيها المفتوحتين إلى وجه الشاب المتجهم، حيث خرج صوت هاشم الضائع ، وهو يسأل:

دا بيت طلعت إبراهيم؟!

وافسح الشاب الطريق ليقول في تهكم:

جايين لعايدة؟! اتفضلوا .. أنا أحمد ابن عمها ..

لم يخطئوا العنوان إذن .. عايدة نامت هنا .. عايدة هنا .. مع شاب يتجول نصف عار في بيت صغير ، لا شيء به سوى صالة ضيقة ، بها بعض المقاعد القديمة وغرفتين صغيرتين أبوابهما مغلقة .

جلس هاشم وجلست دينا إلى جواره في هدوء ، وكلاهما مذبوح بدهشته .. كلاهما مقتول بشوقه وإشفاقه على يمامة قلبه البيضاء .

وسمعا صوت أحمد ، وهو يصيح بعد أن طرق أحد الأبواب قائلًا:

زيارة لعايدة من مصر .

وقبل أن يختفي داخل الغرفة الأخرى ، التفت يقول:

أنا حاضر هدومي وأنزل أنده أبويا من الدكان ..

«زيارة لعايدة!!» .. كأنه سجان يعلن عن زيارة لأحد السجناء ..

تنهد هاشم في ألم كبير .. إن كان أحمد هو السجان ، وكانت عايدة هي السجينة البريئة ، فهاشم وحده صاحب الذنب الكبير .

وأطلت امرأة في منتصف عمرها من خلف الباب ؛ لتنظر إليهما نظرة زائغة لا ترحاب فيها لتقول ، وهي تربط رأسها بمنديل صغير:

أهلًا .. اتفضلوا .. أنا شلبية مراة طلعت عم عايدة ..

وابتسم هاشم ابتسامة صغيرة ضعيفة ، وهو يمد كفه ليصافحها ثم جلس ينظر حوله كأنه لا يعلم ماذا يقول ، إلا أن شلبية صاحت تقول:

يا عايدة .. ضيوف عايزينك .

وعادت تنظر إلى وجه هاشم قائلة:

من ساعة ما وصلت وهي نص وقتها في الحمام .. مع أنه حمام واحد لينا كلنا ..

ثم عادت تحدق في وجه دينا قائلة:

لو أنت هاشم بيه ابن الست هدى .. دي مين؟ خطيبتك؟

وقبل أن يجيب أحدهما ، ظهرت عايدة من على يسارهما .. ظهرت لتقف مفتوحة العين هي الأخرى في ذهول كبير ..

كانت عايدة ترتدي إحدى بيجاماتها الأنيقة من لون أخضر هادئ كلون عينيها الجميلتين .. كان عنقها الطويل يحاول أن يبقى مرفوعًا .. لكنها أرخته في حزن ، عندما رأت الذعر يطل من عيني هاشم ودينا ، التي أسرعت إليها تضمها في جنون وهي تقول:

أخص عليك يا عايدة ولا تليفون ..

وعادت شلبية تقول في تهكم:

المحمول ما بيشتغلش جوا البيت .. تشربوا إيه؟ أعملكم شاي ..

واختفت شلبية ليلمح هاشم أحمد ، يخرج بعد أن ارتدي جاكت بيجامته الباهتة ليحضر أباه من الدكان كما قال، ونهض هاشم عن مقعده لتقبل نحوه عايدة ، وترفع عينيها لتنظر إلى وجهه .. كان واضحًا أنها لم تنم .. كان واضحًا أنها بكت طويلًا .. عيناها كانت دامعة حتى رموشها البنية الطويلة كانت مبللة .. ونظرت إلى عين هاشم كأنها مازالت لا تراه .. كأنها مازالت لا ترى شيئًا ولا تفهم شيئًا .. وفتح هاشم ذراعيه ليأخذها على صدره ، وهو يقول:

أنتِ حتروَّحي معانا يا عايدة .. مش ممكن أسيبك هنا أبدًا .. يللا ياحبيبتي خشي غيري هدومك .. يللا يا عايدة ..

كان رأس عايدة ساكنًا على صدر هاشم ، كأن اليمامة حطت على شجرة بعد مطاردة طويلة من صياد أحمق لا رحمة في قلبه .. لم تقل حرفًا ولم تحرك ساكنًا حتى أبعدها هاشم عنه ؛ لينظر إلى وجهها من جديد ، وهو يقول:

مالك يا عايدة؟ حد أذاكي .. حد ضايقك؟! عايدة ..

وجاء صوت شلبية يقول:

مين دا اللي يضايقها يا باشمهندس .. احنا أهلها ..

والتفت هاشم ينظر إليها في مرارة وقسوة ؛ ليعود إلى مقعده ، بعد أن أطلق عايدة من بين يديه قائلًا:

أنا آسف يا حاجّة .. أنا قصدي ..

وفي قسوة أكبر ، منحته شلبية كوب الشاي ، والتفتت تحمل الكوب الآخر إلى دينا ثم عادت إلى مقعدها ، وهي تنظر إلى عايدة قائلة:

إيه يا عايدة .. طمنيهم .. قوليلهم إن ماحدش أذاكي ..

ورفعت عايدة عينيها من جديد ، وبصوتها الحاني الهادئ الذي ما ارتفع يومًا قالت:

هاشم ما يقصدش حاجة .. هو بس ..

إلا أن دينا لم تعد تحتمل فوقفت لتقول:

ممكن نتكلم لوحدنا يا عايدة ..

ولوت شلبية شفتيها لتقول:

ادخلوا أودتي يا عايدة .. أصل احنا ماعندناش غير أودتين ، والأوضة التانية الولاد لسه نايمين فيها ..

ووقفت عايدة لتتبعها دينا إلى غرفة شلبية وطلعت ؛ لتغلق دينا الباب خلفها ، وتنظر إلى سرير الغرفة الخشبي القديم والملابس المتناثرة على أرض الغرفة ، وعادت ترفع رأسها إلى عايدة لتقول:

بعني .. ليلة وعدت .. شنطك فين عشان نرجع ..

وابتسمت عايدة ابتسامة صغيرة ، ظهرت بها تلك الغمازة العميقة التي تحتل خدها الأيسر ، ثم أمسكت بيد دينا وجلست بها على حافة سرير شلبية،

ثم قالت في هدوء:

أنا رجعت خلاص ..

أنا خرجت من هنا وكان لازم أرجع هنا .. أنا حاتجوز كمان أسبوع .

وفي جنون نظرت إليها دينا ، ثم قالت:

تتجوزي مين؟! انتِ اتجننتي يا عايدة ..

ومن عينيها الخضراوين الواسعتين سقطت دمعة صغيرة ، قالت بعدها:

ماما هدى وبابا منعم هما اللي طلبوا من عمي طلعت ياخدني .

وشهقت دينا في جنون ، وقبل أن تفتح فمها بكلمة ، وضعت عايدة أصابعها على شفتي دينا لتقول:

ورحمة أبوك ما تقولي لهاشم .. أوعي تزعليه من ماما هدى وبابا .. اسمعي .. أنا حاتجوز يا دينا .. أنا شفت العريس امبارح المغرب .. حاتجوز وحامشي من هنا .. حاعيش في لندن ..

وعادت دينا تصيح في ذهول:

لندن؟! لندن إيه يا عايدة .. اسمعي خلاص بلاش ترجعي عند طنط هدى .. تعالي عندنا .. معايا .. أنا حاتجوز كمان عشرين يوم ولا شهر مانتي عارفة .

وقاطعتها عايدة في هدوء قائلة:

ينفع؟ ينفع أرجع وأقعد معاكي .. وهاشم يقول إيه؟! بابا منعم يقول إيه .. يعرفوا إني عرفت إنهم مش عايزني .. أوجعهم بعد كل اللي عملوه .. لا يا دينا .. وبعدين حسن حيرضى أعيش معاكم؟! إذا كان هو قلقان من عيشته مع طنط نجوى يبقى كمان عايدة ..

وقاطعتها دينا من جديد ، وهي تقول:

إيه الجنان دا؟ انتي خريجة جامعة .. اشتغلي وعيشي لوحدك .

وعادت عايدة تبتسم ابتسامة أشد مرارة لتقول:

اشتغل؟ عمي طلعت عنده ست عيال .. كلهم بيشتغلوا إلا أحمد ومصطفى .. عارفة ليه لأنهم اتخرجوا من الجامعة .. الباقي اللي في ورشة واللي في مصنع الألبان .. اللي اتخرجوا من الجامعة بقى مش عارفين يشتغلوا زيهم ولا قادرين يلاقوا شغلانة تانية .. اشتغل إيه؟ مدرسة .. بكام؟ وألاقي شقة فين .. ولو لقيت شقة .. أعيش لوحدي .. وماما حتقول إيه؟!

دينا .. أنا كويسة وبعدين إحنا مكتوب لنا نتجوز سوا في نفس الوقت، وبرضه مكتوب لنا كل واحد يعيش في بيته .. أنت في مصر في بيتك وأنا في الغربة .. الغربة طول عمرها بيتي .. ماما هدى كمّلت رسالتها .. ربتني وعلمتني وخلاص بقى ..

دينا صدقيني أنا مقتنعة جدًا باللي بيحصل .. صدقيني .

ونظرت دينا في وجه عايدة من جديد .. إن وجهها الأبيض شاحب وشفتيها المكتنزتين كقطعة خشب جافة .. حتى شعرها الذهبي الناعم كان ساكنًا كأنه يستغيث ، ولكن هذه هي عايدة .. كبرياؤها العنيد يقيد صراخها ويكمم شفاه دموعها .. إنها لا تعلم ماذا يمكن أن تقول ، ولكن كل وريد في جسد دينا يرفض أن تبقى عايدة هنا مع هذه المرأة الكريهة التي رأتها .. ربما استطاع هاشم أن يفعل شيئًا آخر .. وعادت تمسك بأصابع عايدة الرشيقة البيضاء بين كفها لتقول:

عايدة .. حتى لو العريس كويس .. يتجوزك من مصر .. من بيت طنط هدى ..

وقاطعتها عايدة قائلة:

لا يا دينا .. الصح إنه يتجوزني من هنا .. من بيت عمي أخو أبويا .. وبعدين دا هو من الشارع اللي جنبنا .. لو راح بيت بابا ودخله حيخاف يتجوزني .. كفاية إني شكلي غريب في وسطهم .. كفاية إنهم بيعاملوني زي ما أكون جاية من الفضاء ..

كلها أيام يا دينا وخلاص .. حاعيش في لندن .. عايزة إيه بقى أحسن من كدا ..

ودون حتى طرقة صغيرة على الباب .. رأت دينا شلبية تفتح الباب وتطل بوجهها المتجهم لتقول:

عمك عايزك يا عايدة ..

ونهضت عايدة لتخرج ، ودينا تنظر إلى وجه شلبية في ألم كبير ، كأنها تتمنى لو تتسلل إلى خلف جلدها لتعلم سر هذا الجمود والقسوة الكبيرين .. إلا أنها أرخت رأسها لتتبع عايدة في صمت .. وخرجت إلى الصالة ليقف طلعت يصافحها في ترحاب كبير ، وهو يقول:

زارنا النبي .. أهلًا أهلًا ياست دينا هانم .. انتوا تتغدوا معانا .

إلا أن «هاشم» قال في عصبية كبيرة ، كأن صبره قد بدأ ينفد:

عايدة .. عايدة أنا عايزك ترجعي معانا .. قلتي إيه؟!

وبابتسامة ، حاولت عايدة أن تجعلها صادقة ، قالت:

لا يا حبيبي .. أنا لسه بأقول لدينا .. أنا رجعت خلاص .. ارجع أنت يا هاشم ، ولما نحدد ميعاد الفرح عمي طلعت وأنا حننزل مصر ونعزمكم .. مش أنت وعدتني يا عمي؟!

وقبل أن يقول طلعت حرفًا ، نهض هاشم عن مقعده ليقول:

تعزمينا؟ تعزمونا؟! يقينا بتتعزم يا عايدة ..

وصاح طلعت:

العفو يا هاشم بيه .. العفو .. عايدة ما تقصدش ،

واقتربت عايدة من هاشم ؛ لتنظر إليه في حب واعتذار ، وهي تقول:

هاشم .. ما تصعبش الأمور .. بس لا .. أنا مش رايحة معاك .

كانت عينا هاشم مليئتين بالدموع .. كانت عروقه تحترق بلهيب الشعور بالألم والخوف وأيضًا الغضب .. عايدة تتزوج بعد أيام .. عايدة؟! أبهذه السرعة .. أفي هذا البيت؟! وهذا المكان؟! .. وماذا أيضًا؟! ستدعوهم لزفافها ..

كانت عايدة ترى دموعه .. عايدة تعلم قسوة أن يبكي هاشم .. هاشم لم تلون عينيه الدموع يومًا .. هاشم لم يهزم عناده أحد .. هاشم كأمه لا يبكيان ولا يتنازلان عما في رأسيهما .. وها هي عايدة تضع في عيني هاشم الدمع بأصابعها، وها هي تقول له كلمة ما اعتاد سماعها .. كلمة «لا»!!

عندما شعر هاشم بدمعه الساخن يدق وجنتيه ، انتفض في جنون ليلتفت إلى دينا قائلًا:

يللا يا دينا .. أنا ماشي ..

واندفع هاشم نحو الباب ، وطلعت يركض خلفه على السلالم الضيقة ، وهو يكرر اعتذاره ووعوده وسعادته بشرف استقبال هاشم ..

كان هاشم يأتيه صوت طلعت ، كأنه فحيح أفاع يخترق سُمها جلده .. كان يتمنى لو يلتفت إليه ويصفعه ألف صفعة، ولكن لِمَ يصفع طلعت ..

هاشم يجب أن يذبح نفسه .. يجب أن يقطع لسانه الذي اعترف بحب عايدة .. هاشم وحده هو الذي أحضرها إلى عزبة الشال .. ما ذنب طلعت إذن؟!

كان هاشم يركض في الحارات الضيقة ، وطلعت يحاول اللحاق به ، وما أن وصل هاشم سيارته وفتحها حتى التفت ليراه يركض من بعيد وأشفق عليه .. إنه رجل كبير .. إن هاشم يذله ، وخطا هاشم نحوه ليقف أمامه منتظرًا أن يلتقط طلعت أنفاسه اللاهثة ، وربت هاشم على كتفيه ، ثم مد يده إلى جيبه ليخرج كل ما فيه من نقود ، دسها بين كفي طلعت ، وهو يقول:

أنا آسف يا عم طلعت ، ما عرفتش أجيب حاجة في أول مرة أدخل فيها بيتك .. خد دول اللي معايا .

ودون تردد مد طلعت أصابعه ليلتقط بها النقود ، وهو يقول:

مالوش لزمة يا هاشم بيه .. أنت آنست وشرفت .

وظهرت دينا .. ظهرت وهي تخطو خطوات صغيرة كسيرة .. ظهرت من خلف دموع كثيفة كانت تخبئ وجهها .. لقد شعرت حين ضمت عايدة ، وهي تودعها أنها تنتفض .. إنها حقًا تتبعثر كيمامة مذبوحة .. لكن عايدة على حق في كل كلمة قالتها .. عادت اليمامة إلى أرضها .. هذا المكان هو أرضها وإن كانت أرضًا مليئة بالصقور المفترسة .

وحيّاها طلعت في طريق عودته ، لتدخل هي إلى جوار هاشم في صمت، وأدار هاشم محرك سيارته وانطلق كأنه عائد من تشييع جنازة كبرى ، وما أن وصلا على الطريق الرئيسي ، حتى دق هاشم عجلة القيادة بكفه ، وصاح قائلًا:

ليه عايدة تعمل كدا .. ليه ما رجعتش معانا يا دينا ليه؟!

وشعرت دينا أن صرخة هاشم سكين تمزق ضلوعها .. تمنت أن تخبره ما عرفته من عايدة .. تمنت أن تخبره أن هدى «ومنعم» هما من طلبا من طلعت نفيها من شارع نهرو بمصر الجديدة .. لكنها أبدًا لن تفعل .. ليس لأنها أقسمت لعايدة برحمة مختار ، ولكن لأنها لن تشعل النار بين هاشم وهدى .. لن تشعل النار أبدًا في بيت منعم صادق الشيرازي .. هي تعلم أنهما يحبان عايدة ، وإن كانا أصدرا حكمًا بنفيها ، فلابد أن هناك أسبابًا يجب أن تحترمها دينا وإن كانت لا تعلمها .. والتفتت تنظر إلى وجه هاشم الغاضب الباكي ، وقالت في حزن:

هاشم .. مين عارف .. يمكن العريس دا يسعدها .. عايدة مش ممكن حد ما يحبهاش .. لازم حيحبها ويسعدها .. إحنا بس مش لازم نكون أنانيين يا هاشم .. احنا اللي واجعنا بعدها عننا .. عايدة لعبت دور أختي وصاحبتي وبرضه بتلعب دور أختك وصاحبتك وحبيبتك يا هاشم . احنا اللي قاتلنا إن احنا حنتحرم من دا كله .. لكن عايدة من حقها بقى تتجوز وتعيش .. مش حنفضل طول عمرنا حابسينها جنبنا يا هاشم .. كل واحد فينا حيبقاله حياة ، هي كمان لازم يبقالها حياة .

وهز هاشم رأسه في عنف .. وعادت دموعه تغزو عينيه في قسوة .. دينا لا تفهم .. دينا لا تفهم أبدًا .. إن كانت عايدة في حياة دينا أختًا وصديقة ، فهي في قلب هاشم وحياته .. هي الحياة نفسها!!

****

انحنت عايدة لتجلس في هدوء على قطعة القماش، التي غطت بها اللحاف القديم، الذي تفترشه كل مساء في أرض الصالة الضيقة التي اعتادت النوم فيها .. كل شيء في هذا البيت يخبو صوته بعد العاشرة .. طلعت وشلبية في غرفتهما .. أحمد ومصطفى وسعد الصغير في الغرفة المجاورة .. وحدها عايدة تنام في أرض صالة بيتهم الضيقة ..

لماذا يكرهونها جميعهم .. إن «سعد» ابن العشرة أعوام يتعمد أن يدوس كفها الملقى إلى جوارها، كلما استيقظ ليلًا ليذهب إلى الحمام .. حتى أحمد ومصطفى يتعمدان إصدار ضوضاء أثناء نومها ..

لقد صاح سعد في وجهها منذ أيام، وهو يقول إنه يكرهها ويكره وجودها في البيت .. شلبية كانت تسمعه ولم تحاول حتى أن تنهره .. وحدها عايدة أرخت عينيها في حزن كبير .. ومدت أصابعها البيضاء الطويلة لتسحب بها الملاءة القديمة لتغطي بها جسدها، وهي تنزلق بجسدها واضعة رأسها على الوسادة القديمة لتنام .. يجب أن تنام .. وفتحت عينيها تحملق في سقف الصالة المتآكل في حزن ..

وسقطت دمعتان على أطراف وجنتيها الورديتين، وهي تتذكر هذا الصباح.

كان صباحًا حزينًا .. جاء فيه صلاح ومعه المأذون واثنان لا تعرفهما عايدة .. في صمت، أنهى المأذون إجراءات زواجها من صلاح .. في هدوء أمسكت

هي بالقلم لتوقع اسمها في خانة الزوجة .. في صمت وهدوء أصبحت زوجة صلاح رفاعي .. دون كلمة تهنئة واحدة .. دون زغرودة .. دون حتى كوب واحد من الشربات .. أسرع صلاح بعدها بالخروج، وهو يخبرها في جمود كبير أنه كان يرفض تمامًا ذهابها إلى القاهرة لحضور زفاف دينا، ولكنه قَبِلَ فقط إرضاء لتوسلات طلعت ..

في الصباح، سيحضر ليأخذها إلى القاهرة .. ستذهب معه إلى السفارة لإجراء مقابلة الحصول على تأشيرة لندن .. ستذهب بتأشيرة زيارة .. في لندن ستتزوج صلاح مرة أخرى .. في لندن ستبدأ رحلة جديدة لإنهاء إجراءات حصولها على إقامة، وبعدها بشهور وربما سنوات ستحصل على الجنسية ..

لقد استخرج لها صلاح جواز السفر .. قبل الذهاب إلى السفارة سيتوجهان لاستلامه .. صلاح كان يظهر تأففًا كبيرًا لاضطراره إلى تأخير سفره لإنهاء إجراءاتها .. كأنه يصطحب خادمة أو موظفًا .. لا فرحة في عينيه .. لا فرحة في كلماته .. كلما رآها أخبرها أنه يلهث من أجل إنهاء إجراءات سفرها .. هذا الصباح، وبعد أن أصبح زوجها، قال لها إنه لا يصدق أنها رغم كل ما تراه تريد أن تبيت في بيت عبد المنعم صادق، لتذهب إلى زفاف دينا في مساء الغد.

عايدة قالت له في صوت خفيض إنها لم تطلب ذلك، إلا أن طلعت قاطعها قائلًا إن هدى هانم طلبت منه أن يحضرها، وإنه لا يملك أبدًا أن يرد لها طلبًا .. لكن صلاح صاح عندها بقسوة أن هدى هانم هذه لا تعني له شيئًا .. هو أصبح زوج عايدة .. وحده سيدها، وعاد طلعت عندها يرجوه من جديد ..

هذا الصباح كان صباحًا حزينًا جدًّا .. شعرت عايدة فيه أنها شيء لا قيمة له .. بل شعرت فيه أنها لا شيء سوى قطعة لحم صغيرة ، لا أحد يريد تذوقها .. وحده صلاح قبل بها .. لكنه حتى ليس سعيدًا بها .. صلاح لم يحضر لها شيئًا ، سوى دبلة ذهبية رفيعة وضعها في أصبعها ، دون حتى قبلة صغيرة يطبعها على كفها أو خدها .

هذا الصباح كان صباحًا حزينًا جدًّا ولكن غدًا يوم آخر .. غدًا ستذهب إلى القاهرة .. غدًا ستذهب إلى شارع نهرو من جديد .. غدًا تدخل بيتها .. تدخل غرفتها ..غدًا ستنام على سريرها .. وبعد غد ستذهب إلى زفاف دينا .. يومان .. يومان آخران وربما أخيران في شارع نهرو .. في أحضان منعم وهدى وهاشم .. ربما استطاعت فيها أن تسأل هدى لماذا أرسلوها إلى هنا .. ولكن أبدًا لن تستطيع .. هل تخبر ماما هدى أنها علمت أنها لا تريدها .. كبرياؤها لن تسمح ..

طلعت أيضًا أقسم عليها بأغلظ الأيمان ألا تخبرهم بما أخبرها به .. لقد سألته كثيرًا عن السبب ، لكنه هو الآخر أقسم أنه لا يعلم .. هدى حادثته وأخبرته أن عايدة يجب أن تعود إلى المنصورة .. لقد أخبرها طلعت أنها محظوظة ، ليس فقط لبقائها أعوام عمرها معهم ، ولكن محظوظة لأن صلاح رفاعي كان يقضي أجازته في المنصورة .. كان يبحث عن عروس ، وعندما أخبروه عنها وافق .

وعادت دموع جديدة تسقط على أطراف وجهها .. عرضها طلعت عليه أو ربما توسل إليه أن يتزوجها ، كما توسل إليه هذا الصباح أمامها أن يسمح لها بالمبيت لدى هدى .

ماما هدى .. اشتاقت إليها .. لو تراها ماما هدى كيف تنام الآن وأين تنام ، لكرهت تلك اللحظة التي طلبت فيها من طلعت ما طلبته ، ولكن

هي لن تخبرها .. لن تؤلمها وأيضًا لن تفضح طلعت وقسوة زوجته وابنائه .. سيبقون دومًا عائلتها الحقيقية .. لقد علّمتها هدى كيف تحفظ الأسرار .. علّمها منعم كيف ترفع وجهها الجميل وتبتسم ، حتى وإن كانت تغرق في نهر من الدموع .. علّمها هاشم ألا تشكو .. علّمها هاشم وتعلمت معه الكثير من كتب كثيرة قرآها معًا .. من دواوين شعر حفظاها معًا .. يومًا قال لها هاشم ، وهما يقرآن معًا ديوانًا لكامل الشناوي ، إن أجمل ما قرأ في عمره هو ما كتبه الشناوي حين قال:

أنا لا أشكو ففي الشكوى انحناء

وأنا نبض عروقي كبرياء ..

لن تنسى عمرها أنه ضمها إلى صدره ، وهو يقول إن عايدة لا تشكو وإن هدى لا تشكو .. قال لها يومها إنهما وحدهما دون نساء الأرض يغزلان ضفائر العطاء من دمعهما وألمها .

هاشم! كم تحبه .. هاشم ودينا قطعتان من روحها .. كانت تحمل «هاشم» بين ذراعيها وهي طفلة .. وأصبح هاشم يحملها بين ذراعيه ، كلما جاءها أو جاء هدى بخبر سعيد .. يوم نجاحه في IGCSE حملها بين ذراعيه .. يوم نجاحها هي وتخرجها في الجامعة حملها بين ذراعيه .. وتحسست عايدة صدرها لتمسك بذاك الهلال الذهبي، الذي يضم قلوبًا ثلاثة من الماس والذهب الأبيض .. أخبرها هاشم أنها هلال من ذهب يضيء أيام قلوب ثلاثة صغيرة قلب منعم وهدى وهاشم .

هاشم غضب منها عندما رفضت العودة معه إلى شارع نهرو .. ترى هل يصفح عندما يراها في الغد؟! هاشم لا يغضب بسهولة ولكنه أيضًا لا يصفح بسهولة .

هذا هو الكبرياء .. لا تُغضب أحدًا ولا تجرح أحدًا ، ولكن إن أغضبك أحد فأنت لا تعلم كيف تصفح عنه .. ولكن «هاشم» سيصفح عن رفضها العودة ..

هي تعلم أنه سيصفح .. لن يبخل عليها بحنانه في يومين أخيرين ، قد لا يجتمعان بعدهما أبدًا .

وأغمضت عايدة عينيها على دمعها ، وقبل أن تذهب في النوم ، سمعت صوت شلبية يصيح في تأفف:

مش معقول يا عايدة .. مش تنامي بعيد شوية عن السكة .. هو الواحد ما يعرفش يروح الحمام أبدًا .. يا قاعدة جواه يا نايمة في طريقه؟!

وكتمت عايدة ألمها .. لقد داستها شلبية بقدمها ولكنها لم تجب .. سالت دموعها من جديد ، وهي تسأل نفسها .. كيف تذهب شلبية إلى الحمام من هنا .. من جوار باب البيت حيث تنام هي .. كيف والحمام يقع في الجهة الأخرى البعيدة ..

وكتمت عايدة صوت بكائها لتدفن رأسها الصغير في الوسادة .. انقضى اليوم الثامن عشر لحضورها إلى المنصورة .. أيام وترحل .. أيام وتعود شلبية وأبناؤها للتجوال كما يحلو لهم ، دون أن يغضبوا من عايدة ، ودون أن يركلوها بأقدامهم مدّعين أنها صدفة وأنه دومًا خطأها وحدها .

انقضى اليوم الثامن عشر .. لكنه كان يومًا حزينًا جدًّا!!

****

طلبت هدى من عم علي الطباخ أن يعد أصنافًا كثيرة .. كل الأصناف التي تحبها عايدة .. إنها سعيدة بحضورها اليوم .. سعيدة لأنها ستبيت معها الليلة .. سعيدة لأنها ستذهب معها في الغد إلى زفاف دينا .. وسعيدة أكثر بعد أن علمت أنها عقدت قرانها على صلاح ..

عايدة الآن زوجة ، وهي تعلم أن «هاشم» لن ينظر إليها أبدًا بعد الآن تلك النظرة القديمة .. هاشم يعلم معنى كلمة زوجة .. منعم وهدى أنشآه على القيم .. على المبادئ .. على الكبرياء .. هي تثق أن عايدة منذ اليوم لن تكون في قلب هاشم سوى أخته الكبرى ، التي شاركتها في تربيته ، وشاركته طفولته وصباه ..

هدى تعلم أن «هاشم» يتألم لكنه سينسى الألم .. سيساعده سفر عايدة إلى بريطانيا .. شيئًا فشيئًا سينسى .. سيبدأ في البحث عن فتاة من عمره .. من محيطه .. فتاة تليق بحفيد وزير وابن أستاذ في القانون .. كل شيء سيعود كما كان .

ونهضت هدى عن مقعدها لتذهب إلى عم علي .. نسيت أن تطلب منه تحضير كعكة المارون .. عايدة وهاشم يعشقان المارون .. دينا ونجوى وحسن سيتناولون معهم العشاء هذه الليلة ، وصلاح زوج عايدة يجب ألا تنساه هو الآخر ..

لم تخبر هدى «هاشم» ولا دينا بحضور عايدة .. إنها هديتها لهم .. وحده منعم يعلم .. هو أيضًا سعيد بحضور عايدة .. لقد جاء مبكرًا من المحكمة

ليكون في استقبالها هي وصلاح زوجها، وقبل أن تدخل هدى إلى غرفتها سمعت صوت الجرس ، وأسرعت بخطاها الهادئة لترى عايدة تدخل حيث صاحت هدى في فرح قائلة:

يا منعم .. يا منعم عايدة وصلت ..

أسرعت هدى إلى عايدة ، تضمها إلى صدرها ، ولم تستطع حبس دموعها، فبكت وهي تقول:

يا حبيبتي .. يا حبيبتي وحشتينا .. وحشتينا يا عروسة .

كانت عايدة ساكتة على ذراعي هدى ، لم تقل حرفًا واحدًا حتى رأت منعم ، فصاحت بصوتها الحاني الرقيق قائلة:

بابا .. بابا منعم ..

وأطلقتها هدى من بين ذراعيها ليأخذها منعم بين ذراعيه هو الآخر، ومن خلف كتفيها رأى «صلاح» .. رأى هدى تنظر إليه في وجوم تحاول التخلص منه .. لكن حين أعاد النظر إلى وجه صلاح ، عرف منعم أن هدى سيصعب عليها كثيرًا أن ترسم على وجهها فرحة بلقائه ..

أطلق منعم عايدة من بين ذراعيه متوجهًا إلى صلاح ، يرحب به ويشير له بالدخول إلى ريسيبشن البيت .. ودخل صلاح ناظرًا حوله في دهشة كبيرة وجلس ، حيث أشار له منعم وجلست عايدة إلى جوار هدى والتي عادت تضمها إلى ذراعها في سكون ..

وجاء صوت منعم يقول:

أهلًا يا صلاح بيه .. أهلًا بجوز بنتي ..

رفع صلاح وجهه الأسمر لينظر في ابتسامة لا تخلو من السخرية .. هل يدعوه منعم «بيه» وعاد ينظر حوله .. البيت أكثر من أنيق .. البيت مبهر .. أثاثه جميل ، وفي كل ركن هناك طاولة ، عليها قطع كثيرة من الفضة وكادرات فضية كثيرة بها صور لعايدة معهم ..

كل شيء أنيق جميل .. الستائر .. المقاعد .. حتى السجاد الذي يضع صلاح عليه حذاءه المتسخ يبدو ثمينًا غاليًا .. صلاح لم ير بيتًا كهذا أبدًا .. وبعد لحظات من الصمت ، قال في هدوء:

عايدة عندها حق تحبكم قوي كدا ..

رفعت هدى عينيها لتنظر إليه في ذهول ، ثم قالت:

مافيش بنت ماتحبش أمها وأبوها يا صلاح ..

وضغطت هدى على كلمة صلاح وتوقفت عندها .. لم تستطع أبدًا أن تقول «بيه» التي قالها منعم ، ولم تستطع حتى أن تسبقها بأستاذ ..

صلاح أسمر وشعره مكوش فوق رأسه ويتدلى في خصل ملتوية .. لقد كانت تظن أهل المنصورة جميعهم في جمال عايدة .. كانت تظنهم ملوني الأعين ، ولكن لم تكن تعلم أبدًا أن بها رجالًا بهذه السمرة .. ولكن سمرة صلاح وشعره المكوش ليستا هما ما يعيبانه..

صلاح على وجهه جمود .. في عينيه قسوة .. في شفتيه الغليظة وأنفه الأفطس رائحة شيء لا يمكن أن تحبه .. حتى جسده ليس مريحًا .. إن رأسه وصدره يبدوان أصغر من جزئه الأسفل .. أصابعه السمراء ، والتي يضع في أحدها خاتمًا من الذهب تلوّح كثيرًا ، وهو يتحدث ، كأنه عتَّال في محطة مصر .. لقد ظنته هدى سائق السيارة التي جاءت فيها عايدة ..

وأفاقت هدى على صوت منعم ، وهو يلتقط أطراف الحديث مع صلاح، الذي رفض أن يأخذ كوب الشاي الذي أحضرته هبة الخادمة ، ووقف يعلن في إصرار أنه يجب أن يعود إلى المنصورة الآن، وقالت هدى في صوت لا إصرار فيه:

لازم تتغدى معانا يا صلاح ، وتتعرف على هاشم أخو عايدة .

لكن «صلاح» وقف ينظر إليها ليقول:

فرصة تانية .. أنا ماشي يا عايدة .. آجي أخدك ولا عم طلعت يجيلك ..

وبصوت هادئ قالت عايدة في خوف:

تاخدني أمتى؟! مش أنت قلت بعد بُكره ، عشان نروح السفارة نستلم التأشيرة .

وقاطعتها هدى قائلة:

بعد بُكره إيه .. هو أنت مش حتحضر مع عايدة فرح دينا بُكره؟!

واستدار صلاح ينظر إلى البيت مرة أخرى ، وعاد ينظر إلى هدى بملابسها الأنيقة وشعرها المصفف ، الذي لا توجد فيه شعرة واحدة بيضاء ، رغم تقدم سنها الواضح ، وابتسم في سخرية:

لا والله يا هانم .. أنا لازم أخلص إجراءات وورق .. أنا كل يوم باغيبه عن شغلي في لندن بيكلفني فلوس .. ماعنديش وقت لأفراح .

كان واضحًا جدًّا أن «صلاح» شعر بدهشة هدى وعدم إعجابها به ، وكان واضحًا أنه عندما رآها ورأى البيت علم أنه حقًّا لا يستحق الإعجاب أو الرضا .. لذا لم يجد صلاح ما يفعله ، سوى أن يظهر التعالي والاستخفاف. ولم تحاول هدى أن تضيف حرفًا .. وحده منعم أسرع خلفه يودعه ببعض

كلمات رقيقة ، وما أن أغلق خلفه الباب ، حتى استدارت هدى تنظر إلى عايدة ، وهي تستعيد كلمات صلاح لتقول في دهشة:

هو صلاح بيشتغل إيه في لندن يا عايدة؟

وأطرقت عايدة برأسها إلى الأرض لحظات ، ثم قالت:

مش عارفة يا ماما ..

وشق الألم ملامح هدى في وضوح .. إنها تشفق على عايدة من صلاح ، لكن من يدري قد يكون خلف هذه القسوة قلب طيب .. بل إنه لا أحد على الأرض بإمكانه أن يقسو على عايدة .. عايدة ستجعل منه شخصًا آخر ..

هدى تثق أن عبير قلب عايدة سيحوله إلى زهرة أخرى .. عايدة حنانها أكبر .. عايدة نقاؤها أقدر على أن يغسل عنه الهمجية الواضحة في تصرفاته وكلماته .. هدى تثق أن الحب والعطاء دومًا أقوى .

وعادت هدى تضم عايدة بين ذراعيها ، ثم قالت وهي تنظر إلى شحوب وجهها:

تعبانة يا عايدة .. تدخلي تريحي شوية على ما هاشم ودينا يوصلوا .

وكأنها غابت عنهم زمنًا .. كأنها حقًّا ما عادت منهم .

رفعت عايدة عينيها الجميلة ، وقالت من خلف دمعة تراقصت فيها:

ممكن أدخل أودتي وآخد حمام؟!

وقاطعتها هدى في حنان ودهشة:

ممكن؟! عايدة دا بيتك وحيفضل يا بنتي .. قومي يا حبيبتي .

ونهضت عايدة لتأخذ في طريقها الحقيبة الصغيرة ، التي أحضرتها ، وقبل أن تمضي في طريقها ، سألتها هدى:

جبتي معاكِ حاجة سواريه يا عايدة لفرح دينا بكرة؟!

ونظرت إليها عايدة لتقول في انكسار:

لأ يا ماما .. أنا ماجبتش غير بيجاما وطقمين .

وأشارت لها هدى بالدخول إلى غرفتها ، وهي تقول:

ولا يهمك .. لما تصحي آخدك وننزل نروح نجيب أحلى فستان .. روحي ياحبيبتي استريحي دلوقت .

ومضت عايدة لترفع هدى عينيها ناظرة إلى وجه منعم في حزن ؛ لتجده هو الآخر تائهًا .. لم تسرُه أبدًا رؤية صلاح ولم يستطع أبدًا أن يحبه .. إلا أن «منعم» كان يعلم أن ألم هدى أكبر ووجعها لا شك أضعاف أضعاف ما يشعر به منعم .. واقترب منها في هدوء ليقول:

ماعادش في ايدينا حاجة غير إننا ندعيلها .. تعالي نرتاح شوية .

****

حين أغلقت عايدة خلفها الباب واستندت بظهرها عليه، سقطت حقيبتها الصغيرة من بين أصابعها، وأخذت تنظر حولها في ذهول ..

كأنها نسيت غرفتها .. كأنها نسيت سريرها الأبيض .. كأنها ما عاشت هنا عشرين عاما .. وأجهشت في بكاء حاد يقطر ألمًا وخوفًا ، وهي تقترب من فراشها لتتحسسه بكفها الأبيض وأصابعها الرقيقة .. كأنها حقًّا نسيت كيف يكون النوم على وسادة نظيفة وفراش وثير .

ومن بين صوت نحيبها، عادت لتفتح حقيبتها الصغيرة حيث أخذت بيجاما وردية ، دخلت بها إلى حمام غرفتها الصغير .. كانت تظنه صغيرًا .. لكنها بعد عودتها اليوم من المنصورة ، علمت جيدًا كيف يصبح حمام صغير في شارع نهرو أجمل وأكبر من بيت بأكمله في عزبة الشال بالمنصورة .

وقفت عايدة تحت الماء الساخن ، تغتسل ومدت أصابعها إلى قارورة الشامبو الخاصة بها، وهي مغمضة العينين .. أبدًا عايدة لم تنس شيئًا .. عايدة مازالت تذكر كل شيء في هذا البيت وتعلم مكانه جيدًا ، وإن كانت مغمضة العينين .

وأنهت حمامها لتقف أمام مرآتها تنظر إلى شعرها الناعم النحاسي اللون وأخذت تحدّق في المرآة بعينيها الواسعة .. عزبة الشال كانت كابوسًا أسود يجب أن تنساه .. بل ما نسيته حقًّا هو عزبة الشال .

وانحنت ترتدي بنطلون البيجاما، وفي اللحظة التي اعتدلت فيها بظهرها ارتطمت عيناها بالدبلة الرفيعة التي تشنق إصبع يدها اليسرى، وعاد دمعها يسقط .. إنها زوجة ـ زوجة لصلاح رفاعي الذي لا تعرف عنه شيئًا .

وأكملت ارتداء ملابسها من خلف دموعها، ثم خرجت لتلقي بجسدها على سريرها في ضعف شديد ..

هنا ستنام .. هنا ستنام دون أن يركلها أحد بقدميه ، دون أن يلومها أحد .. دون أن يتأفف من وجودها أحد .. ولكن لو كان سكان شارع نهرو حقًّا يحبونها ، لم أبعدوها عنه إذن؟!

إن كانوا أيضًا لا يحبونها لم أحضروها اليوم؟! لم ضمتها هدى بكل هذا الحنان؟! لم أغلق منعم عليها ذراعيه كما كان يفعل دوما؟!

لا تعلم .. عايدة لا تعلم ـ هل هو قدرها حقًّا أن تكون دومًا قطعة اللحم البيضاء الصغيرة التي يتقاذفها الجميع؟!

لا تعلم .. ما تعلمه اليتيمة أنها تريد أن تنام كما لم تنم منذ ثمانية عشر يومًا ـ تريد أن تنام دون بكاء ـ دون أنين ..

وسقطت عايدة .. سقطت في نوم عميق هادئ ، ولكن بين جفنيها مازال هناك نهر عميق من الدموع!!

****

كانت السابعة مساء حين عاد هاشم لتخبره هدى أن عايدة تنام في غرفتها .. ظنها عادت لتحيا معهم، لكن هدى أخبرته أنها ستبقى فقط لحضور زفاف دينا في الغد، واستلام جواز سفرها في الصباح التالي ..

دخل هاشم لإيقاظ عايدة كما طلبت منه هدى .. دخل ليجدها نائمة في فراشها .. كان واضحًا أنها متعبة .. كانت تغط في نوم عميق، حتى أنها لم تشعر بجلوس هاشم إلى حافة سريرها؛ حيث أخذ بعدها يرقبها في لوعة كبيرة ..

كانت دمعاته تسقط على وجنتيه ، وهو يرقب وجهها الجميل النائم .. شيء ما في وجه عايدة تغير .. شيء ما في عينيها المغلقة يقول إنها تبكي حتى وهي مغمضة الأعين .. شيء ما يقول إنها ترى كابوسًا كبيرًا .. ولم يعلم هاشم هل يوقظها ليخبرها أنه حلم ، أم يتركها لأنه يعلم أنه أيا كان كابوس نومها ، فحقيقة يقظتها أكثر ألمًا وحزنًا .

ومد كفه الأبيض يبحث عن كفها ، وأخرجه من تحت غطائها في هدوء واقترب بكفها من شفتيه .. عايدة أمه .. عايدة أخته .. عايدة كل شيء وعندما لامست شفتاه كفها ، شعر بدبلتها الذهبية ترتطم بشفتيه لينظر إليها في ذهول ، وينكس رأسه في خجل كبير .. عايدة أيضًا زوجة .

وسالت دموعه أكثر وضغط على كفها من الألم .. اليمامة تزوجت .. اليمامة ما عادت إلا لتبقى لليلة واحدة ..

آه يا عايدة لو تعلمين كيف كانت أيام الفراق .. لقد تحدث إليه منعم طويلًا ، لكي يهدأ ويعود إلى جامعته .. أخبره كثيرًا عن أن عايدة نفسها سيذبحها ضعفه وهربه ..

عايدة لن يخفف عنها إلا أن تجدهم جميعًا ناجحين أقوياء .. الضعفاء والفاشلون لا يمنحون الحب ولا يستطيعون العطاء ..

«آه يا عايدة» .. ومع آهاته زاد ضغطه على كفها ، لتفتح عايدة عينيها في ذهول ، وانتفضت دون وعي منها تسحب كفها من بين أصابعه ، ثم صاحت لتحاول الوقوف وهي تقول:

إيه دا؟! أنا فين؟! هاشم .. هاشم أنا .. كنت بحلم مش كدا ..

وضمها هاشم بين ذراعيه ليقول:

أيوة يا عايدة كنتِ بتحلمي .. حمدا لله على السلامة يا حبيبتي .. وحشتيني .. وحشتينا كلنا ..

وأرخت عايدة عينيها .. لم تكن تحلم .. كانت غائبة وستعود إلى الغياب .. لم تكن تحلم .. كانت تظن فراقهم حلمًا ، ولكن فراقهم سيبقى وحده الواقع الكبير .

****

عايدة وهدى عادتا مع هاشم ، بعد أن اشترت هدى ثوبًا لعايدة لحضور زفاف دينا .. دينا لم تعلم هي أو نجوى بعد بعودة عايدة .. منذ الصباح وهما ينهيان آخر المشتروات ، وتتسلم دينا ثوب زفافها وبروفة ماكياج الغد .. لقد حادثتها هدى ، وأخبرتها أن العشاء سيكون في العاشرة ، وأنهم في انتظار حضورها مع نجوى وحسن .

في العاشرة كانت عايدة تجلس بين ذراعي منعم ، يشاهدان أحد البرامج التليفزيونية وهاشم يجلس إلى جوار هدى على الأريكة المقابلة .. ألف قصة وألف سؤال وفرحة واحدة كبيرة بوجود عايدة ، وألم أكبر من كل الآلام أيضًا لفراق عايدة ، ولكن كلًّا منهما كان يحاول أن يظهر إيمانه واقتناعه بالغد، وبالسعادة التي سيحملها الغد إلى عايدة .

عندما دق الباب ، ذهب هاشم ليفتح حيث وقفت عايدة مكانها وقلبها يقفز بين أضلعها للقاء دينا ، التي أطلت من بعيد وخلفها حسن ونجوى .. ووقفت دينا لحظة تنظر إلى وجه عايدة في ذهول .. لا تصدق .. لا تصدق أبدًا .. هل تتخيل؟ هل رسم شوقها صورة عايدة؟ لكنها رأت دموعًا تقفز من عيني عايدة كأنها تناديها، وركضت دينا تأخذ عايدة بين ذراعيها لتبكيا معًا في جنون .

ومن خلف كتفي دينا ، فتحت عايدة عينيها لترى نجوى و«حسن» ، يرقبانها بحب حقيقي صادق وسألت .. لم يحبونها ولم تركوها تذهب؟ وكيف يكرهها سكان عزبة الشال ويطلبون عودتها؟

وابتعدت دينا عن عايدة لتأخذها نجوى بين ذراعيها ، وهي تقول:

ربنا يسعد قلبك يا عايدة .. من غيرك ما كناش حنعرف نفرح أبدًا .

ووقفت عايدة تنظر إلى حسن بقامته الطويلة ووجهه المرح ، ولم تستطع أبدًا أن تمنع نفسها من أن تلقي بجسدها بين ذراعيه للمرة الأولى ، وهي تقول:

مبروك يا حسن .. مبروك .. ربنا يسعدكم يارب ..

وضمها حسن في حب وفرحة ، ونظر من خلف جسدها إلى وجه دينا ، التي كانت تمسح دموعها وابتسمت ، لتبتعد عايدة في خجل وتمتمت قائلة:

أنا آسفة ..

ووضع حسن كفه على كتفيها قائلًا ، وهو يحاول أن يزيل الحرج .. قائلًا في مرح:

إيه حتخوفي دينا من حضني ؟

ونكست عايدة رأسها قائلة:

أنا كنت مشتاقة ليكم كلكم .. ربنا ما يحرمك يا دينا من حسن أبدًا .. أبدًا ..

وقبل أن يجلس أحدهم ، أمسكت دينا بكف عايدة قائلة:

تعالي .. تعالي شوفي الشقة لما خلصت يا عايدة تعالي .. وأودة نومي الجديدة ..

ولم تدع لها فرصة لكلمة .. أخذتها دينا وخرجت بها لتفتح باب البيت ، الذي طالما ركضتا فيه أيامًا كثيرة في طفولتها .. ودخلت عايدة لتشهق شهقة صغيرة .. كل شيء تغير .. كل شيء جديد أنيق ..

ستائر تشبه ستائر بيت منعم صادق .. سجاد حرير صغير متناثر على الأرض .. صالونات جديدة ، وسفرة من الخشب الفرنساوي المطعم بالنحاس .. كل شيء جديد .. إلا الأريكة الحمراء القديمة مازالت مكانها .

ووضعت عايدة أصابعها على الأريكة في حنان ، لترفع عينيها إلى دينا التي قالت:

فيها ريحة بابا .. فيها ريحتك .. فيها ريحة هاشم .. ياما كنا بنام عليها واحنا صغيرين وماما بتحكيلنا حكاية .. فاكرة يا عايدة ..

وعادت دينا تكمل بعد أن تهدج صوتها بالدمع قائلة:

ماما عندها حق .. عمري ما كنت حاحس بالفرح يا عايدة لو ماجيتيش .. باحس إنك أمي يا عايدة .. أمي ..

وعادت عايدة تضمها في حنان .. آه لو تعلم دينا كم تشعر عايدة باليتم والضياع .. آه لو تعلم دينا كيف تفضل عايدة الموت عن فراقهم .. إلا أنها رفعت رأسها في كبرياء ، وقالت:

أنا يا دينا ماكنتش حاحس بالحياة لو ما حضرتش فرحك .. تعالي .. تعالي وريني أودة النوم الجديدة ..

****

في الواحدة صباحًا ، دخلت هدى غرفة هاشم لتطلب من دينا العودة إلى بيتها .. يجب أن تنام دينا وقتًا كافيًا .. أمامها يوم طويل .. أمامها ليلة العمر .. يجب أن تنام .. وما أن فتحت باب غرفة هاشم بعد طرقاتها الصغيرة ، حتى انهمرت دموعها .. الثلاثة كانوا نائمين على فراش هاشم الكبير .. عايدة كانت في المنتصف ، وعلى كل جانب من ذراعيها كان رأس أحدهم ملقى على صدرها .. تمامًا كما كانوا يفعلون وهم صغار ..

مرت أعوام طويلة ، لم تر فيها هدى دينا تنام إلى جوار هاشم في فراش واحد ، ولكن عودة عايدة أعادتهم إلى لحظات طفولتهم البعيدة .. واقتربت هدى من الأطفال الثلاثة ، ومن خلف دموعها رأت عايدة تفتح عينيها .. رأت دمعًا كثيفًا يسقط من عيني عايدة ، وهي تحاول النظر إلى هدى ، وعلى صدرها رأت ديوان الشعر ، الذي أحضره هاشم لها يوم رحيلها .

رأت خلف دمعات عايدة الصامتة نظرة لوم وعتاب ، كأنها تسألها لماذا فرّقتهم .. كأن عايدة تخبرها أنها تعلم أنها وحدها من أصدرت حكمًا بنفيها وتعذيبها وسحق عروقها .. ولم تحتمل هدى دمعات عايدة ونظراتها .. هي أيضًا تشعر بالألم والذنب .

وشهقت هدى بالبكاء .. كان من الصعب أن تحتمل كل هذا الألم .. هل حقًا أخطأت؟ .. هل حقًا قتلت هدى ثلاثة أطفال جمعهم الحب زمنًا؟!

****

وضعت شلبية بعضًا من الصحون القديمة على الطبلية المستديرة ، التي يتناولون عليها الطعام ، ثم جلست تأكل مع طلعت وأبنائها في صمت ، وبعد لحظات قالت:

أنا أديني باشهّد عليك عيالك .. البت دي ماترجعش هنا تاني أبدًا .

ورفع طلعت عينيه الخضراء ليقول في ألم:

شلبية ورحمة أبوكي .. دا هما يومين وحتسافر .

إلا أنها قاطعته ، وهي تصرخ:

ماتدخلش هنا تاني .. هي إيه مش بقالها راجل؟ .. ياخدها بيته .

وعاد طلعت يقول في انكسار:

يعني رحته مرة قلتله يتجوزها ، وكمان لما يجيبها من مصر أقوله خدها على بيت أخوك .. صلاح ماعندوش بيت في المنصورة وانتِ عارفة ..

التقط أحمد بعض أعواد الجرجير ليقول:

جرى إيه .. أمي بتقولك مش عايزاها .. كلنا مش عايزينها يا أخي .. استحملناها تلات أسابيع تقريبًا .. كفاية كدا .

وعاد طلعت في إصرار الفلاح يقول:

والنبي .. دي يتيمة ..

ونظرت شلبية إليه في غضب لتقول في تهكم بعيد:

يتيمة ولا عشان بنت الغالية .. بنت أحلام اللي كنت بتجري وراها وسايبتك ؛ عشان تتجوز أخوك .. وأنا .. أنا اللي رضيت بيك مش عاجباك .. يا أخي اتلم بقى .

وأطرق طلعت برأسه .. أحلام .. رحمها الله .. كانت أجمل بنات المنصورة .. لم يكن طلعت وحده الذي أحبها .. كل شباب الحي في ذاك الوقت كانوا يحبونها .. كانت جميلة رقيقة .. حتى صابر أخوه كان يحبها .. لكن لم يكن أحدهما يعلم من تحب هي ..

شلبية كانت صديقتها ، ومنها علمت أن طلعت يطاردها ويلاحقها بحبه ورغبته في الزواج .. كانت أحلام خائفة من خلق مشكلة بين طلعت وصابر، الذي كانت تعشقه في جنون .

شلبية هي التي أخبرت طلعت الحقيقة ؛ ليبتعد تاركًا «أحلام» لصابر ، ولكن ما تركته شلبية أبدًا حتى تزوجها في أيام يأسه وحزنه على فراق «أحلام»..

شلبية أبدًا لم تغفر له حبه لأحلام .. كانت ترفض استقبالها أو استقبال صابر .. كانت تشعر أن دخول أحلام إلى بيتها هو مهانة كبرى ، كأنها ترى «أحلام» تخبرها أنها تزوجت من رفضته هي ..

شلبية تشعر أنها أخذت فضلات أحلام .. صابر رحمه الله كان دومًا يسأل طلعت عن سر كراهية زوجته لأحلام .. ما استطاع طلعت أن يخبره يومًا ، بل لم يستطع استقباله أو استقبال زوجته يومًا في البيت .. لم يستطع حتى أن يصطحبها لتبارك مولد عايدة .

مات صابر وماتت أحلام وبقيت كراهية شلبية لها تكبر كل يوم .. يوم جاءت عايدة وهي طفلة بعد ذلك الحادث ، الذي مات فيه والداها ، لم تقبل شلبية ، بها بل رفضت حتى أن تدعها تنام إلى جوار أبنائها في فراشهم ..

عايدة ابنة أحلام .. وأحلام كابوس شلبية الكبير .. لقد أنقذ القدر عايدة من الحياة معها يوم قبلت بها هدى هانم .. عشرون عامًا لم يطفئوا نار الكراهية في قلب شلبية .. عشرون عامًا لم ينسوها أن عايدة هي ابنة أحلام .. حلم قلب طلعت القديم . كانت شلبية تتمنى أن تصبح عايدة خادمة في بيت هدى أباظة ، لكن هدى جعلتها ابنتها .. كانت حقًّا تتمنى أن تكون عايدة مثلما كانت شلبية يومًا ، ولكن هدى أشعلت في قلبها نارًا أكبر ، عندما جعلت منها شابة أنيقة كأنها سيدة شلبية هي الأخرى .. كيف لا تكرهها إذن؟!

وبعد لحظات رفع طلعت رأسه ؛ ليقول في صوت خفيض:

أنا نازل أروح لصلاح أترجاه يسيب عايدة عند الست هدى ، ويبقى ياخدها وهو رايح المطار .. يارب يرضى!

وفي سخرية وقحة ، عادت شلبية تقول:

وماتنساش تروح تبوس إيد الست هدى كمان ؛ عشان ترضى تخليها بعد ما طلبت تمشيها من عندها .. حتعيش وتموت يا طلعت وأنت بتبوس الأيادي!!

****

في قاعة الأوركيد بدار الدفاع الجوي .. كانت دينا تجلس بثوبها الأبيض الرقيق ، المصنوع من الدانتيل الأبيض المطرز بزهرات الأوركيد العاجية اللامعة .. صدر ثوبها وظهره كان عاريًا حتى منتصف ظهرها العاجي الجميل . ويمتد ذيل ثوب عرسها خلف ظهرها في دائرة كبيرة ، يصل طولها إلى متر ونصف ، وترقد عليها ثلاث زهرات صغيرة من الأوركيد الأبيض المشغول في خفة وأناقة .. شعر دينا البني الناعم كان مجموعًا فوق رأسها في شينيوه جميل ، يقف عليها تاج من اللؤلؤ وبعض قطع الماس التي تبرق في عيون كل من وقف حولها وذراعيها في ذراعي حسن .. طرحتها البيضاء المصنوعة من الدانتيل كانت متوسطة الطول ، تقف على منتصف ظهرها لتنافس جمال ظهرها العاري ..

بشرتها البيضاء الصافية بدت هادئة وهانئة ، وعيناها البنيتان المشروطتان تطلقان ابتسامات صغيرة عديدة .. كانت عيناها تتجول وهما يخطوان على دفوف الزفة إلى داخل القاعة ، وكفها الأبيض بين أصابع حسن ، وفي يدها الأخرى باقة صغيرة من زهرات الأوركيد البيضاء ، المزدانة بشرائط من الساتان والدانتيل الأبيض .

كانت نجوى تخطو خلفها في ثوبها الأزرق الأنيق ، وكان عبدالكريم فياض سعيدًا وأنيقًا ..

وانحنت نجوى تصلح أطراف ثوب دينا ، وهي تجلس على مقعدها في منتصف القاعة ، ثم اعتدلت لتنظر إلى عينيها ، وانحنت تضع على رأسها قبلة صغيرة ؛ ليلمح حسن دمعة تسقط من عين نجوى ، وقال وهو ينهض من مكانه:

مافيش بوسة لحسن يا طنط؟!

وأخذته نجوى بين ذراعيها ، وهي تقول:

طبعًا ياحسن .. طبعًا ياحبيبي .. انت خلاص ابني ..

وحينها انحنت سلوى لتقبل دينا، وتأخذ هي وكل زملائها في الشيراتون صورة معها ، قالت سلوى في صخب:

دينا .. اللي واقفة هناك عايدة مش كدا؟!

والتفتت دينا حيث اشارت سلوى وابتسمت ، وهي تهز رأسها بالموافقة حيث رأتها عايدة لتقبل نحوها ..

كانت عايدة ترتدي ثوبًا طويلًا من الشيفون الأبيض عاري الظهر مكشوف الصدر أيضًا ، ومن تحت صدر عايدة الأبيض المستدير تتدلى ثلاثة شرائط من الساتان الوردي ، تصل حتى نهاية الثوب .. شعر عايدة بخصلاته الشقراء الداكنة كان كعادته قصيرًا ، كما اختارت له منذ أعوام في قَصة الكاريه الفرنسي .. شعر عايدة كثيف ناعم لا كسرة واحدة فيه ، يقف على نهاية عنقها الأبيض الطويل ..

عايدة أيضًا كان ماكياجها مثل ماكياج دينا رقيقًا هادئًا .. ظلال من اللون البني فوق خضرة عينيها الداكنتين المستديرتين الكبيرتين ، وشفتاها الصغيرة المكتنزة كانتا ملونتين بلون شرائط ثوبها الوردية .

أقبلت عايدة نحو سلوى ودينا ، وهي تبتسم لتظهر غمازة خدها الأيسر العميقة ، حيث صاحت سلوى قائلة:

مين فيكم العروسة؟! ومن فيكم أحلى .. والله مش عارفة .

وابتسمت عايدة في حنان ، وهي تقول بصوتها ، الذي ما ارتفع يومًا :

دينا أحلى عروسة ، وصحابها دايمًا أحلى أصحاب .

****

ضمت دينا عايدة إلى ذراعيها ، وأقبل هاشم بقلبه الحزين وعينيه المبتسمتين ؛ ليحتضن «حسن» في حنان ، ويقف إلى جوارهم جميعًا أمام عدسات المصورين .

كان الزفاف رائعًا .. كانت هدى وعبدالمنعم يتنقلان مع نجوى بين طاولات المدعوين ، وكأن دينا ابنتهم .. كل مدعوي نجوى وأقارب مختار والد دينا كانوا يعرفون عبدالمنعم شيرازي وعائلته .. كل المدعوين كانوا يصافحون عبدالمنعم ويهنأونه كأنه والد دينا أو عمها .

رقصت دينا مع حسن ، ورقص معها أصدقاؤه وزملاؤه في شركة البورصة والأوراق المالية ، وضمها عبدالكريم فياض إلى صدره أكثر من مرة ، ورقص بها في وقاره وحنانه ، الذي تذوب فيه دينا عشقًا ..

حتى هاشم رقص مع دينا أكثر من مرة ، ولكنه كان دومًا يتركها بعد ثوان للراعي لحسن أو أحد أصدقائه ؛ ليعود إلى ذراعي عايدة ويرقص معها ، أو يبتعد بها ليجلسا إلى جوار هدى أو منعم .

بدا هاشم وكأنه قطعة من ثوب عايدة دومًا خلفها أو معها أو يبحث عنها بعينيه .. عايدة أيضًا كانت تشعر أنها تريد أن تلتصق بكفيه ، وكأن كفيه وحدهما عكازها ..

في نهاية الليلة ، وقفت نجوى تبكي في جنون ، وهي تودع دينا و«حسن» وهما في طريقهما إلى غرفتهما بالفندق ليبيتا فيها ليلتين ، قبل التوجه إلى لبنان

لقضاء أسبوع أو أقل ، حيث اتفق الجميع على سفرهم ، بعد سفر عايدة إلى لندن لوداعها مع صلاح .

ورغم محاولات عايدة ورجائها الطويل لهما ألا يبقيا من أجل وداعها ، إلا أن دينا و«حسن» بالتصميم ذاته ، أخبراها أنهما لابد أن يبقيا ليكونا معها يوم سفرها إلى لندن .

وضمت هدى «حسن» إلى صدرها ، وعادت تأخذ دينا بين ذراعيها ، وهي تطمئنها وتخبرها أنها ستذهب للمبيت مع نجوى في بيتها ؛ ليحضروا جميعًا في ظهر الغد ، ويتناولون معًا طعام الغداء في أحد الفنادق القريبة .

كانت هدى تشعر بلوعة نجوى ، ولكنها أيضًا كانت تعلم أن اللوعة يليها دومًا الاعتياد ، والاعتياد يصحبه مع الوقت السكينة والهدوء ..

هاشم بدا متعجلًا للعودة إلى البيت .. هدى ستذهب إلى نجوى وعبد المنعم سيخلد إلى النوم .. أما هو سيبقى ما بقي من الليل إلى جوار عايدة ، يتحدثان ويستعيدان لحظات الليلة وتفاصيلها ..

هاشم سيبقى الليلة وكل الليالي الآتية مع عايدة ، يحدثها ويسمعها ويختزن تحت جلده ألف ذكرى، وألف قصة ليواجه بها أيام الفراق القادمة .

الجميع يتعجل الرحيل !!

إلا عايدة !! عايدة وحدها كانت تستجدي الزمن أن يقف .. كانت تستجدي اللحظات أن تطول .. الليالي الباقية قليلة، لكنها تتمنى لو أصبحت كل لحظة فيها دهرًا طويلًا .

عايدة تخشى ليلة قادمة اسمها الليلة الأخيرة .. ليلة ستصحو بعدها على الفراق ، وهو يدق الباب .

عايدة تستجدي الزمن أن يزحف في بطء لتتنفس ، وتنسى أيامًا سوداء قضتها في عزبة الشال ..

عايدة تستجدي الزمن أن يقف ، لأنها تشعر أن كل لياليها ستصبح أكثر سوادًا إن هي فارقتهم ..

عايدة تفضل الموت عن فراقهم !

****

عندما دخلت دينا إلى جناحهما بفندق الدفاع الجوي ، أغلق حسن خلفها الباب ، وأمسك بذراعيها في حنان ، وعينا دينا ترقبانه في حب كبير ..

كان حسن أنيقًا .. بدلته السوداء وقميصه الوردي الفاتح كان يضفي على بشرته القمحية ظلالًا مضيئة هادئة ..

وبدا حسن في عيني دينا أجمل وأكثر وسامة من كل ليالى عمرها ، التي رأته فيها .

أنفه المعتدل ووجه المربع وشفتاه المكتنزتان كانت ترقص في عينيها .. لقد قبلها حسن كثيرًا ، ولكنها الآن وهي مازالت على باب غرفتهما في الفندق، وقبل أن يخطوا خطوة إلى داخل الغرفة ، تشعر أن شفتيها ترقص هي الأخرى، وتبحث عن شفتي حسن ليبادلاها الرقص .

وفي حيرة مدت أصابعها إلى طرحة رأسها ، تحاول أن تفك تاجها عنها ، وانحنى حسن في لحظة ليحملها بين ذراعيه، ويركض بها في انطلاقه وجنونه إلى داخل الجناح الأنيق ، وصاحت دينا ، وهي تقول:

يا مجنون .. الفستان .. الديل ياحسن حتدوس عليه .. نزلني ..

وألقاها حسن بثوبها على فراش سرير الغرفة ، وانحنى فوق جسدها ينظر إلى عينيها في مرح قائلًا:

خلاص .. الفستان خلص دوره .. حاقطعه يا دينا .. مالوش لزمة ..

وحاولت دينا أن تنهض من تحت ذراعيه لتقول متظاهرة بالغضب:

تقطع إيه يا مجنون؟! فستان الفرح دا هو الفستان الوحيد اللي اتعمل عشانك وليك .. أي هدوم تانية ممكن ألبسها لغيرك .. مع غيرك .. ومن غيرك .. لكن دا .. دا مش فستاني .. دا فستانك .. فستان العروسة يا ناصح هي تلبسه لكن يفضل بتاع العريس ..

ودفعت ذراعيه لتخرج من تحتها ، وهي تقول:

حاشيله ياحسن .. لبنتك .. تشوف قد إيه أنا بحب أبوها ، وقد إيه عملتله فستان حلو ، وإزاي هاحافظ عليه ..

ونهض حسن ليضمها وهو يخلع طرحتها عن رأسها قائلًا:

حتحافظي على الفستان ولا على صاحبه يا دينا؟!

وسقط شعرها البني الناعم على كتفيها العاريتين ؛ لتقول وهي تنظر في عينيه بابتسامة كبيرة:

حسن ..

ووضع أصابعه على شفتيها ليقول:

ماتقوليش حاجة يا دينا أنا عارف .. عارف ..

وسقط ثوب دينا تحت جسدها ، ومدت أصابعها تلتقط قميص نومها الوردي ، والذي وضعته لها عايدة على حافة سريرها ، قبل نزولهم إلى قاعة الاحتفال ... التقطته دينا لتركض به إلى حمام الغرفة ، وأغلقت خلفها الباب وهي تضحك في صخب ..

وانحنى حسن يلتقط ثوب زفافها من على الأرض في حنان ، وضمه إلى صدره ، وهو يخطو به ليضعه في حرص على أحد المقاعد الموجودة ، وعاد

يقف أمام المرآة ليبدل ملابسه هو الآخر ، ويضع زخات من قارورة عطر أحضرها..

وبدا في عين مرآته وسيمًا حقًّا .. شعره الكثيف القصير .. وجهه المبتسم الهادئ .. ملامحه التي تمتزج فيها الرجولة بالطفولة والوسامة .. كل شيء كان يرقص ويغني في عروقه وتحت جلده ، والتفت ينظر إلى دينا وهي تخرج من خلف حمام الغرفة مرتدية قميصًا من الدانتيل الوردي .. كان قميصًا رائعًا حانيًا يضم جسدها في لهفة ، وانطلق نحوها حسن ، بعد أن ارتدى بيجاما من اللون الكحلي المنقوش بدوائر بيضاء ، وضمها إلى صدره والتقط شفتيها بين شفتيه في حب، علا صوته على صوت رغبته وشهوته ، وعاد يحملها بين ذراعيه ، وشفتاه مازالت تضم شفتيها ليعود بها إلى فراشها .

دينا أيضًا كانت تريده في جنون .. رغم خوفها .. رغم اضطراب أنفاسها .. إلا أن كل شيء مع حسن عبدالكريم له أصابع تقتل الخوف وتزرع الحب والطمأنينة .

وتركت له دينا نفسها .. تركت له شفتيها وخصلات شعرها .. تركت له جسدها وأخذت شفتيه وخصلات شعره ... أخذت جسده في حب وفرحة لاحدود لها .

****

أغمضت عايدة عينيها ، وهي تلقي برأسها على مقعد طائرة مصر للطيران ، المتجهة إلى مطار هيثرو بلندن ..

حتى دينا وحسن جاءا معها إلى المطار لوداعها .. دينا سهرت معها حتى اللحظات الأولى من الصباح ، ثم عادت إلى حسن ليلتقيا جميعًا عند موعد الطائرة .

وعادت اليمامة ترتجف ، وهي تتذكر كيف وضعت هدى في يدها هذا الصباح في غرفتها حوالة بثلاثة آلاف جنيه استرليني ، أخبرتها أن «هاشم» قام باستخراج هذه الحوالة وتحويلها باسمها على أحد البنوك في لندن .. لقد طلبت منها هدى ألا تخبر صلاح بأمر هذه النقود ، وأن تفتح بها حسابًا باسمها تحسبًا لأي ظرف ، قد تحتاج معه نقودًا ..

لقد ضمتها هدى وبكت ، وهي تخبرها أنها دومًا ستكون على استعداد لأن ترسل لها كل ما تحتاج ..

هدى تحبها .. نعم تحبها .. لاشك عند عايدة في هذا أبدًا .. لماذا إذًا طلبوا من طلعت أن يأخذها؟ .. وفتحت عايدة عينيها لتنظر إلى وجه صلاح النائم إلى جوارها ..

صلاح زوجها لكنها لا تعرفه .. شهر تقريبًا منذ بداية قصتها معه .. منذ مساء يوم ذهابها إلى المنصورة حين رآته للمرة الأولى .. لم يطل النظر في وجهها مرة .. لم يحاول الانفراد بها .. لم يحاول حتى أن يمسك يدها ، يوم

ذهب بها إلى السفارة الإنجليزية في القاهرة .. لم يحاول أن ينظر إلى عينيها .. ألا تعجبه؟! لا تعلم ولا تصدق!!

في المدرسة كانت عايدة أجمل فتاة .. في الجامعة كانت أجمل فتاة .. لم تمر عليها عين زميل أو استاذ، دون أن تشهق انبهارًا بجمالها وجمال جسدها ..

صلاح يحيرها .. صلاح يشعرها أنها لا شيء أكثر من امرأة يصطحبها معه إلى حيث لا تعلم ..

وسقطت من عينيها دمعة صغيرة، وهي تنظر إلى خصلات شعره الملتوية، والتي يسقط بعضها على جبهته السمراء .

صلاح يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاما .. هل يزهد الرجل النظر إلى النساء بعد الأربعين، أو ربما كان صلاح لا يحب المرأة الشقراء؟ ربما كره الشقراوات من طيلة حياته في لندن؟ ولكن عايدة ليست كغيرها من الشقراوات .. إن خضرة عينيها داكنة .. حتى شعرها الأشقر داكن .. وعادت عايدة تهز رأسها في حيرة .. هل تريده أن يعجب بها؟ هل هي حقًّا معجبة به؟

وعادت تنظر إلى قميصه الكاروه والسويتر الأسود القديم الذي يرتديه .. صلاح ليس جميلًا ولا أنيقًا .. كل من يراهما معًا لا يصدق أبدًا أنهما معًا .. ولكن عايدة لا يهمها أبدًا كيف يبدو صلاح أو ماذا يرتدي .. عايدة علّمتها هدى وعلّمها منعم وعلّمتها الكتب، التي قرأتها كثيرًا مع هاشم، أن الإنسان يجب أن يحب الكائن الموجود خلف الملامح .. الملامح لا تُعشق!!

لكن «صلاح» جاف .. كلماته دومًا لاذعة، ولكن ربما كان له قلب رقيق وإلا ما تزوجها .. حتى زواجه منها لغز لا تعرفه!

كيف أصبحت في ليلة واحدة حياة عايدة كلها أسئلة لا أجوبة لها؟ .. رموزًا لا حل لها؟ .. حقيقة واحدة باقية .. هذا الرجل الأسمر زوجها ..

يجب أن تصل إلى قلبه .. يجب أن يحبها .. لم يعد لها سواه .. هي الآن تائهة معلقة بين السماء والأرض، وحين تهبط بها الطائرة على الأرض، ستجد نفسها على أرض غريبة .. أرض لم ترها عيناها من قبل .

أصبح كل ما تعرفه في الأرض هو صلاح .

نعم صلاح رفاعي هو بقعة الضوء الوحيدة، على أرض كاملة من الظلام والمجهول ..

ورأته يفتح عينيه لينظر إليها، ثم قال:

عايدة .. هي إيه الشنطة اللي خدتيها من إيد هاشم واحنا في المطار؟!

وبعد لحظة قالت عايدة، وهي تحاول أن تبتسم:

الهاندباج؟!

ونظر إليها ليقول في رنة سخرية:

أيوة ياستي .. الهاندباج .

وعادت عايدة ترخي عينيها قائلة:

مش عارفة .. هاشم قاللي إنه حط فيها شوية حاجات حتنفعني في السفر..

وأدار صلاح رأسه إلى نافذة الطائرة، وهو يقول:

يمكن اشترى شوية معلبات وأكل .. على الله يعدوا من الجمارك .. أهم ينفعونا .. الحياة غالية مولّعة هناك .

وابتلعت عايدة الكلمات، وقالت في صوت متردد:

أنت .. قصدي احنا حنسكن فين يا صلاح؟

وعاد ينظر إليها قائلًا:

في حتة اسمها «ناين إلمز» .. يعني .. حتعجبك إن شاء الله .

وبيد مرتجفة وكتلميذة خائبة صغيرة ، مدت عايدة كفها إلى كف صلاح قائلة:

أنا ما عرفش أي حاجة عنك يا صلاح .

واطلق صلاح ضحكة ساخرة ليقول:

أنا عندي تاكسي وبادفع مية وخمسين جنيه استرليني كل أسبوع للراديو .. راديو إيه؟ .. دي أجرة عشان أعرف وأقدر أسوق التاكسي .. شوفي انتي بقى لازم اشتغل قد إيه عشان أقدر أجيبهم ، وأجيب أكلي وشربي وفلوس السكن حوالي مية وعشرين استرليني كل أسبوع .

وفي هدوء ، أرخت عايدة عينيها كأنها لا تريده أن يرى خوفها ودهشتها، إلا أن «صلاح» كان يبدو ، وكأنه اتخذ قرارًا بأن يخبرها كل ما لا تود معرفته .. هو يعلم جيدًا أنه لا مفر ولا خيار آخر الآن أمامها .. باب الطائرة مغلق وحين ترسو على الأرض ، لن يكون أمامه أو أمامها سوى الحياة معًا ..

وعاد صلاح يتحدث بصوته الأجش قائلًا:

أوعي تفتكري إن الحياة هناك سهلة .. أو تفتكري إن البلد حلوة أو نضيفة .. الحتت الحلوة والنضيفة يا عايدة ليها تمنها وليها ناسها اللي تقدر تشتري وتدفع التمن دا .. أنا سبت المنصورة من عشرين سنة وليومك دا باشقى ، وأحط القرش على القرش ويادوبك عايش .. أنا حتى ماعرفتش أشتري شقة عدلة في عزبة الشمال .

وعاد يكمل بعد لحظات:

أنا اتجوزت عشان محتاج ست تراعيني وتراعي بيتي .. أنا طول النهار في الشارع ، وكفاية إني حاضطر أضيع «وقت كبير» الأيام الجاية عشان نعمل إجراءات الجواز والإقامة من أول وجديد هناك .

وبعد لحظة صمت ، رفع صلاح حاجبه ليقول في استعلاء كبير:

أحمدي ربنا إن واحدة زيك حتاخد الجنسية الإنجليزية .. انتي عارفة الناس بتموت عشان تاخد تأشيرة ، تحط بيها رجلها في أوروبا مش جنسية.

وأغمضت عايدة عينيها من جديد .. مازال جسدها يرتجف .. مازالت خائفة .. بل إن خوفها يكبر كلما فتح صلاح شفتيه ، وقال كلمة .. من قال إنها كانت تحلم بدخول أوروبا .. من قال إنها تطمع في الحصول على الجنسية الإنجليزية .

عايدة لم تكن تريد شيئًا سوى بقائها في شارع نهرو .. لم تكن تريد أبدًا أن ترى صورتها على بطاقة أو جواز سفر .. بل هي لم ترد يومًا أن يكون لها جواز سفر .. كان يكفيها سفرها مع هدى ومنعم وهاشم إلى شرم الشيخ ومارينا والغردقة.

وضغطت عايدة جفنيها في قوة .. عائلة عبدالمنعم شيرازي أصبحت ماضيًا يجب أن تنساه عايدة .. ماضيًا قد لا تعود إليه يومًا ، ولكن من يعلم .. قد تعود .. ألم تظن أنها لن تراهم ، يوم أخذها طلعت إلى المنصورة وعادت .. عادت لتحيا معهم أيامًا لم تذق أيامًا في حلاوتها .. عادت لتشتري لها هدى حقيبتين من الملابس الجديدة ، وليأخذها هاشم إلى العشاء في أجمل المطاعم كل ليلة .. عادت لترى «منعم» يتسلل إلى فراشها ويقبلها كل ليلة ، كما كان يفعل أعوام طفولتها .

لا أحد يعلم ما الذي يخبئه الغد ..

هناك دومًا غد بعيد قد لا نراه .. قد لا نصدق حضوره .. ولكنْ هناك دومًا غد بعيد .. غد جميل وسعيد ..

لا شيء أبدًا في قلبها وروحها أجمل وأسعد من أن تعود إلى ذراعي بابا منعم وعائلته .. لا شيء أجمل من أن تعود إلى دينا وحسن وطنط نجوى وشارع نهرو .. علمتها الكتب أن الغد ، وإن كان بعيدا سيأتي يومًا .. سيتغير اسم الغد ذات يوم ليصبح اسمه الآن ..

يومًا سيصبح الغد البعيد حاضرًا قريبًا !!

****

لم تصدق عايدة أبدًا ما يفعله صلاح .. لم تصدق أبدًا أنه يحمل حقائبها وحقائبه من المطار إلى محطة الباص .. بل لم تصدق أنهما قاما بتغيير عدة باصات للوصول إلى البيت .. لقد سألته قبل أن يخبرها أن هذا هو الباص الأخير الذي سيأخذهما إلى «ناين إلمز» حيث يسكن .. سألته عايدة لِمَ لم يأخذا تاكسي أو على الأقل المترو؟

أجابها بسخرية كبيرة أنه هو سائق تاكسي ، ويعلم كم يأخذ التاكسي .. أخبرها أن المترو سيضطره إلى دفع ثلاثة جنيهات استرلينية زيادة عما يدفعه في الباصات .. لا تصدق أَمِنْ أجل ثلاثة جنيهات فقط يتكبدون كل هذه الصعاب؟! .. هل صلاح فقير إلى هذه الدرجة ، أم أنه بخيل حتى الموت؟ .. لا تعلم .. لم تكن أبدًا تتخيل أن أحدًا ممن يعملون في خارج مصر يتكبد كل هذه الصعاب ؛ ليوفر ثلاثة جنيهات استرلينية بعد رحلة سفر طويلة ، وفي يومه الأول مع عروسه .. نعم .. إنها عروس !!

وابتسمت عايدة في مرارة .. إنها لا شيء .. لا شيء .. حمقاء إن ظنت أنها عروس .. إنها هنا وعلى أرض هذا البلد ليست حتى زوجة صلاح رفاعي .. إنها سائحة .. جاءت بتأشيرة سياحية .. إنها فقاعة صغيرة من الهواء لا تعلم أبدًا أين أو متى تتبدد .

وأفاقت عايدة على صوت صلاح ، وهو يخبرها أنهما وصلا إلى منطقة سكنهما وفتحت عايدة عينيها ؛ لتنظر من نافذة الباص التي جلست إلى

جوارها ، واتسعت عيناها المستديرتان الواسعتان وهي لا تصدق .. الشوارع متسخة .. وحوائطها أكثر قذارة .. حتى البشر الذين يتجولون أمام عينيها أكثر بشاعة من سكان عزبة الشال في المنصورة، وعندما حاولت إرخاء جفنيها ، رأت من خلف زجاج الباص فئران تركض إلى جوار الحائط ، الذي وقف إلى جواره الباص ليأتيها صوت صلاح يأمرها بالنهوض .

كتمت عايدة صرختها الصغيرة ، ووقفت خلف صلاح تتقدم إلى باب الباص بعد أن زاد خوفها .. عايدة تكره الفئران وترتعد منهم .. هل جاءت عايدة لندن لتحيا في مكان يسكنه بشر كهؤلاء؟ مكان تتجول فيه الفئران في الشارع ، دون حتى أن تثير خوف أحد أو تسترعي انتباه أحد سواها؟!

وصاح صلاح كأنه يفيقها قائلًا:

إيه يا عايدة مالك؟! البيت أهو هناك .. أنا عندي عربية بعجل حاروح أجيبها نحط عليها الشنط .

وصاحت عايدة في ذعر ، وهي تنظر حولها:

لأ .. ما تسبنيش يا صلاح .

ولمعت عينا صلاح ، وهو يرى الخوف في عينيها ، لكنه مضى يقول:

إحنا لسه بدري .. دقايق حاجيب العربية وارجع .. ماهو ماحدش يجيب الشنط دي كلها ، مش كفاية الفلوس اللي اتدفعت في الوزن .. لأ كمان عذاب وشيل وحط .

ونظرت عايدة إليه ، وهو يخطو بعيدًا عنها ، وانحنت تجمع الحقائب حولها ، وعلقت يدها اليمنى في الهاندباج التي منحها هاشم إياها في المطار .. وتنهدت .. يلومها صلاح لأنها جاءت بثلاث حقائب .. يلومها لأن هدى

اشترت لها ثيابًا وأحذية .. يلومها رغم أنه لم يدفع مليمًا واحدًا في المطار .. وحده منعم دفع ثمن زيادة الوزن ، بل ربما أصر على الدخول إلى صالة المطار ليفعل ذلك .. لم يعترض صلاح ، ولم يقل حتى كلمة يبدي فيها رغبته في الدفع .. لكن هل هو فقير أم هو بخيل؟ .. وعادت تنظر حولها .

عادت تنظر من جديد إلى الشارع الذي وقف به الباص .. عادت تنظر إلى البيت الذي أشار إليه صلاح بإصبعه .. إنها السابعة مساء .. لقد وصلا مطار هيثرو في الرابعة ، واستغرقت رحلتهما من المطار إلى هنا ما يقارب الثلاث ساعات .. الشوارع مرعبة ، وكل من يخطو على ظهرها إلى جوار عايدة يقف بعينيه على وجهها الأبيض الجميل في دهشة كبيرة .. ورأت رجلًا يحاول الاقتراب منها وارتجفت .. هل هو لص؟! هل هو مخمور؟! وسمعته يدمدم بكلمات ماجنة ، ورفعت عينيها ، تنظر حولها في خوف ، لتصيح وهي ترى «صلاح» يأتي من بعيد ، وهو يدفع بكفيه عربة كعربات التسوق أو ربما قام بسرقتها من أحد المحال وصاحت تناديه، وابتعد عنها المخمور وهو يرى صلاح يتقدم مسرعًا إليها .. وساعدته عايدة في رفع الحقائب .. كانت تريد أن تبتعد .. كل ما تريده حقًّا أن تختبيء خلف جدران .. خلف أبواب .. بعيدًا عن هذا الحي الغريب .. بعيدًا عن هذه الوجوه العجيبة .. بعيدًا عن الفئران!!

لكن قلب عايدة اشتعل أكثر عندما وصلا منزل صلاح .. إنه بيت مكون من طابقين بسلم معلق في الشارع .. صلاح يسكن الدور الأول ، الذي ما أن وصلته عايدة حتى كاد يصيبها الغثيان .. كل شيء تصدر عنه رائحة كريهة .. أوراق قمامة مبعثرة في كل مكان ، ورغمًا عنها ورغم حرصها الكبير على عدم التفوه بحرف واحد تجرح به مشاعر صلاح .. إلا أنها أبدًا لم تستطع أن تكتم صرختها ، عندما فتح صلاح باب بيته وأشعل الضوء ..

صاحت عايدة صيحة جريحة مذبوحة لا تصدق .. صالة متوسطة الحجم بها سجادة ، لا يمكن أبدًا أن تعرف لها لونًا أو شكلًا ، وفي أحد أركانها طاولة سوداء صغيرة حولها مقعدان ، ومازال عليها صحون فارغة تحمل آثار طعام .. وإلى جوار النافذة أريكة جلدية سوداء متهالكة ، إلى جوار مقعد أو هكذا كان يومًا .

طاولتان جانبيتان صغيرتان إحداهما مكسورة الأرجل ، كانت في أحد الأركان ، وفي الزاوية المقابلة باب يبدو أنه باب غرفة ، وحين التفتت عايدة تنظر يمينها رأت مطبخ البيت ، وشهقت شهقة أخرى مجروحة .. كانت تظن أن مطبخ شلبية هو أقذر مطبخ رأته عيناها ، ولكن ها هي تعلم اليوم أن مطبخ شلبية هو قصر باكنجهام ، إن قارنته بمطبخ صلاح رفاعي .

وسمعته يقول:

إيه فيه إيه .. مش تدخلي معايا الشنط يا عايدة ، ولا حاشيل كل حاجة لوحدي؟!

ونظرت إليه عايدة بعينيها الزائغتين .. من قال إن صلاح يحمل شيئًا .. وحدها تحمل الخوف والذعر والغثيان ، كما لم يحمله قلب إنسان على الأرض .. لو أقسم سكان الأرض يومًا لعايدة أن هناك ، وفي بلد مثل إنجلترا ، يوجد حي ويوجد بيت بمثل هذه القذارة لما صدقت ، ولكن اليوم علمت أنه يوجد ، وأنه أصبح وحده بيتها وسكنها!

عندما تبعت عايدة صلاح إلى غرفة البيت الوحيدة ، كانت تحمل في يدها الحقيبة الثالثة والأخيرة .. كانت ثقيلة لكن أفكار رأس عايدة كانت أكثر وزنًا وثقلًا ، وما أن دخلت الغرفة حتى شعرت بأطنان جديدة من الخوف تلقى على صدرها .. الغرفة صغيرة تتسع بالكاد لفراش صلاح ، الذي كان عبارة عن علبة خشبية ، ارتفاعها عن الأرض عشرون سنتيمترا وعليه مرتبة

عرضها 160سم ، وبجواره طاولتان أيضًا عليهما بعض الصحون والعلب الفارغة ..

النافذة تطل على شارع خلفي غير ذاك الذي دخلوا منه .. وعلى الحائط المقابل دولاب كبير ، هو جزء من الحائط ، وفي الحائط المقابل للسرير يوجد تليفزيون أسود صغير معلق على منتصف الحائط ، وفي أسفله أيضًا فيديو صغير معلق على رف أسود .

في الحقيقة كل شيء في عينيها بدا أسود .. كل شيء .. حتى وجه صلاح ما عادت تراه عايدة أسمر .. بل أصبحت تراه أسود في لون دقات قلبها .

وعاد صلاح يقول:

الحمام عندك الناحية التانية .. طلعي حاجة تلبسيها ويللا خلينا ننام ..

وفي هدوء ، تقدمت عايدة إلى إحدى الحقائب التي ألقاها صلاح على أرض الغرفة ، وانحنت تحاول حملها .. لكنها لم تستطع ، وفي ملل واضح جاء صلاح من خلفها ليحملها عنها ويضعها ، على شيزلونج أحمر قديم في أحد أركان الغرفة ، وقال وهو يراها تفتح الحقيبة:

بكرة ابقي رصي هدومك في الدولاب .. أنا ماعنديش هدوم كتير .. الناس العاقلة ما تضيَّعش فلوسها في الهدوم .

ولم تسمعه عايدة .. أخرجت قميصًا قطنيًا أزرق ، وحملت على يدها فوطة زرقاء جديدة ، ومن أحد جيوب الحقيبة أخرجت كيسًا بلاستيكيا صغيرًا ، كان فيه أدوات استحمامها ومعجون أسنانها ، ومضت إلى حمام البيت تفتحه .

ورغم الرائحة الكريهة .. رغم ضيق الحمام .. رغم أنه حتى لا شيء فيه .. سوى تواليت متسخ يبدو أنه يومًا كان أبيض .. وحوض صغير وشاور

أرضي حوله باب زجاجي به شرخ كبير .. إلا أن عايدة أغلقت غطاء التواليت ووضعت ملابسها لتستدير وتغلق باب الحمام ، وتتكيء عليه كأنها تكاد تسقط .. لا شيء يقف بينها وبين السقوط على الأرض ، سوى اشمئزازها الكبير من قذارة الأرض .. لكن مازال بإمكانها أن تبكي .. وبكت .. بكت عايدة كما كانت تبكي دومًا في حمام عزبة الشمال .. بكت كثيرًا وطويلًا ، وهي تنظر حولها ولا تصدق أنها ستحيا هنا .. في هذا الحوض الصغير القذر ستغسل وجهها وأسنانها البيضاء كل يوم .. في هذا الشاور الصغير الصدئ ستستحم .. في هذا البيت ، وفي هذا الحي ومع هذا الرجل أصبحت حياة عايدة ..

لكنْ مازال في صدرها أمل .. قد يكون صلاح رجلًا طيب القلب .. ليس ذنبه أنه فقير .. ليس ذنبه أنه يعمل ليلًا ونهارا .. ستحاول أن تساعده .. سترعى له بيته .. ستحاول أن تجعله أكثر نظافة وجمالًا .. ولكن هي أبدًا لم تقم بأعمال النظافة .. لم تكن تفعل شيئًا مع هدى سوى إعداد بعض المأكولات وترتيب غرفتها أو غرفة هاشم .. لكنها الآن لا غرفة لها ولا هاشم حولها .. هذا هو ما تحياه ، وهذا هو ما يجب أن تجعل منه شيئًا أفضل ..

ومسحت عايدة دموعها الكثيفة ، وتقدمت في خوف إلى الشاور الصغير لتفتح في خوف مياه الدش .. كانت تشعر أنها سترى فأرًا يهبط من الدش أو ربما قوافل من الصراصير .. لكنها رأت ماء أصفر يتسرب أمامها على أرضية الشاور الصفراء ، وانتظرت حتى عادت المياه إلى لونها الطبيعي ووقفت تخلع ملابسها ، ثم نظرت إلى المرآة الصغيرة فوق الحوض .

كان وجهها جميلًا وشعرها الذهبي القصير العالي فوق رأسها أيضًا كان جميلًا ، وسقطت عيناها على صدرها الوردي المستدير .. حتى هذا ما عاد ملكها .. كل شيء الآن بين يدي صلاح ، ومن حقه وعلى أرضه وفي بيته .

وأنهت حمامها ، وهي تقاوم شعورًا كبيرًا يدق صدرها ورأسها .. في هذا المكان وتحت هذا الماء عايدة لم تغتسل .. عايدة لم تمحو آثار السفر وغباره .. عايدة كانت تشعر أنها اتسخت .. كانت تشعر أن حتى ملابسها النظيفة الجديدة التي ارتدتها اتسخت .. وعند عودتها بها رمقت بعينيها صلاح على سريره في بيجاما حمراء ، شعرت عايدة أنها هي بأكملها ستتسخ من جديد ، عندما يلامس جسدها هذا الفراش .. إلا أنها أغمضت عينيها ورفعت رأسها تسحب نفسًا عميقًا من صدرها ، وألقت بجسدها على السرير كأنها تنتحر .. كأنها تلقي بنفسها من أعلى برج القاهرة .. والتفت صلاح ينظر إليها وتسللت رائحتها الجميلة إلى رئتيه .. كان يرى ذعرها ويشعر بعذابها وألمها ، وكان يفهم سبب كل هذا .. بل كان يعلم أنه سيحدث ، أو ربما توقع أن يحدث ما هو أكثر ..

منذ اللحظة التي دخل فيها صلاح رفاعي إلى بيت طلعت ليرى عايدة، علم أنها شيء آخر .. رأى يومها دموعًا تبلل عينيها المستديرتين الواسعتين ، وعندما سألها ابتسمت وقالت .. إنه لا شيء سوى حساسية تصيبها عند تغيير المناخ .. يوم دخل صلاح بيت عبدالمنعم شيرازي ، علم أيضًا أن عايدة شيء آخر .. رأى يومها في أي بيت نشأت ، وعلى أي مقاعد جلست .. يوم اصطحبها إلى السفارة الإنجليزية ورآهم كيف يحادثونها ، وكيف ابتسموا في وجهها ، كما لم يفعلوا معه هو نفسه ، رغم أنه يحمل الجنسية الإنجليزية التي لا تحملها هي .. عرف أنها شيء آخر .. لغتها الإنجليزية القوية الواضحة .. جملها الأنيقة الراقية .. عرف صلاح يومها أنها شيء آخر .. وعرف أيضًا أن مهمته معها ستكون صعبة ..

صلاح يعلم أنها تظن نفسها أفضل منه .. بعلمها .. بشهادتها .. بمظهرها .. بجمالها .. بأرستقراطيتها التي تكمن في بساطتها وكبريائها .. لا .. هي

تعلم أنها أفضل منه ، ولكن صلاح سيقهر كل هذا .. صلاح يعشق المرأة الحزينة الضعيفة .. عايدة رغم هذا الدمع الرقيق ، الذي يراه اليوم في عينيها يعلم أن كبرياءها العنيدة لن تصمد طويلًا .. صلاح ماهر في إطاحة رأس الكبرياء .. ربما كان الأمر صعبًا ، ولكن مازال أيضًا الأمر سهلًا ..

عايدة وحيدة .. عايدة يتيمة .. عايدة لا سند لها ولا أهل .. حتى عائلة منعم شيرازي تخلت عنها .. طلعت أخبره أنهم طلبوا رحيلها ؛ لأن هاشم سيتزوج ويقيم معهم ، ولم يعد لعايدة مكان .

سيهزم صلاح كبرياءها وسيستمتع وينتشي بسقوط دمعها أمام عينيه قطرة قطرة .. سينتشي طويلًا وكثيرًا بهذا الجسد الأبيض المرمري الرشيق ، ولكن لن يلمسها أبدًا ، إلا بعد أن تذوب كبرياؤها قطرة قطرة بين أصابعه ..

وجاءه صوت عايدة يقول:

صلاح؟! ممكن بكرة الصبح نشتري أدوات نضافة يعني ..

وقاطعها قائلا:

الصبح حافهمك .. في بقال جنب البيت .. حبقى أسيبلك شوية فلوس اتصرفي انت .. أنا لازم أنزل الشغل ، عشان أعوض وأقدر أخدك ونروح نعمل إجراءات الجواز والجنسية .

ورفعت عايدة عينيها تنظر إليه في ذهول .. هل يخرج وحده في الصباح التالي لحضورهما .. وأرخت عينيها بسرعة .. كانت تعلم .. ألم تخبر نفسها .. هي ليست عروسًا .. هي لا شيء .. لا شيء .

وشعرت عايدة بكف صلاح ، ترفع وجهها إلى وجهه ، وعندما التقت عيناهما ، قال لها صلاح في تذمر كبير:

اطفي الأباجورة اللي جنبك خلينا ننام!

وبعد أن وجدت مفتاح الأباجورة استدارت تنام ، وهي تكتم أنفاسها .. إن رائحة الوسادة بشعة .. ولكن رائحة هذا الغموض أكثر بشاعة وقذارة..

واستدار صلاح هو الآخر بجسده بعيدًا عنها وكتم آهة في صدره .. إنه يريدها .. يريد الجسد الجميل .. يريد هذه الرائحة الجميلة .. لكنْ صلاح رفاعي لا يأخذ امرأة إلا إذا كانت تشعر أنه سيدها وأفضل منها .. صلاح سيأخذها قريبًا .. سيأخذها بعد أن يعلمها كيف تبكي أمامه .. كيف تعلن أنه سيدها الذي غمرها بفضله وعطفه ، يوم تزوجها وأحضرها إلى أحد أجمل بلاد العالم .

صلاح رفاعي يوم يعتلي جسد عايدة ، يجب أن تعلم أنه يعتليه لأنه الأفضل ولأنه الأقوى .. سيصبر على لهفته إلى جسدها .. سيكتم ظمأه إلى أخذها ؛ لأن نشوته ستبلغ الذروة عندما يحطم كبرياءها ويسقط دمعها أمام عينيه!!

****

كانت الثامنة صباحًا عندما استيقظت عايدة لتفتح عينيها ، وترى «صلاح» يرتدي ملابسه واتسعت عيناها أكثر ، وهي تسمعه يخبرها ، دون اهتمام أنه سيخرج إلى العمل .. قفزت عايدة خلفه لتلحقه ، وهو يخطو في صالة البيت وصاحت:

طب أنا أعمل إيه؟!

والتفت ينظر إليها ليقول في سخرية:

أسيب شغلي وأقعد أفهمك تعملي إيه؟! بتتكلمي إنجليزي كويس ، وأدي يا ستي عشرة استرليني ـ انزلي هاتي أكل وكل اللي أنت عاوزاه .. وبعد كدا حاديكي المصروف بالأسبوع .. في حوالينا كل حاجة والمنطقة الصبح أمان .. عايزة إيه تاني؟!

وصفق الباب بعد أن ألقى بالنقود ، ومعها مفتاح البيت على الطاولة السوداء البعيدة ، ومضت عايدة تمسك بها بين يديها وهي تفكر .

إن عشرة جنيهات استرلينية لا تساوي أكثر من مائة جنيه، وإن كانت المائة جنيه لا تشتري شيئًا في مصر ، فما عساها تصنع هنا .. وفي لحظة تذكرت ذاك المظروف الذي وضعه منعم شيرازي في يدها ، وهي في طريقها إلى المطار .. لقد طلب منها أن تضعه في حقيبة يدها الصغرى ، وأخبرها عندها أنها قد تحتاج إلى شراء شيء في يومها الأول .. عايدة لم تناقشه كثيرًا لحظتها .. كان كل ما يأكل رأسها في تلك اللحظات هو فراقهم ووداعهم .

وأعادت لحظتها النقود إلى حيث كانت ، ودخلت إلى غرفتها من جديد ، والتقطت الحقيبة الصغيرة لتخرج منها المظروف وتفتحه ، وسقطت دموعها في صمت .. ثمانية ورقات كل ورقة بمائة جنيه استرليني ؛ أي ما يعادل ثمانية آلاف جنيه مصري تقريبًا .. وزوجها يلقي لها بعشرة جنيهات ، من المفترض أن تشتري بها كل شيء في يومها الأول معه .. وأين في لندن !

وعادت عايدة تخطو نحو المطبخ لتفتح باب الثلاجة الصدئة ، التي تقف في وهن على أحد حوائطه القذرة ، وشهقت من جديد .. لا شيء .. سوى علب فارغة وقوارير متسخة فيها بقايا عصير ومياه غازية .

لا شيء حتى تفطر به .. بل إنه حتى لم يسألها ليلة الأمس إن كانت جائعة .. كأنه اكتفى بذاك الطعام الذي تناولوه على الطائرة .

لن تنهار .. لن تبكي .. ربما كان صلاح معذورًا .. ربما كان حقًّا لا نقود معه .. من أجل هذا خرج للعمل .. ربما عندما يعود هذا المساء بعد العمل تسمع منه تفسيرًا أو تبريرًا .. لن تظلمه ولن تحاول أن تكرهه .. إن فعلت ستموت قهرًا .. ستحاول أن تسعده .. ستحاول .. إيا كان .. حياتها معه أرحم كثيرًا من حياتها مع شلبية وتعليقاتها اللاذعة .. عايدة ستعلم «صلاح» الحب ، كما تعلمته هي من منعم وهاشم وهدى .. ستفعل بالصبر .. بالحكمة ستفعل .

وفي هدوء وبعد أقل من ساعة ، وضعت عايدة ورقتين من الورقات الثمانية في حقيبتها وخرجت .. كان الجو ربيعيًا جميلًا .. ورغم اتساخ الشوارع ورغم دمامة الوجوه التي كانت تتجول فيها ، إلا أن الهواء كان نظيفًا والسماء كانت صافية .. ومضت عايدة تتجول في هدوء ، وهي تحاول ألا تبتعد كثيرًا عن البيت ، فإن هي ابتعدت قد لا تعرف كيف تعود .. ووقفت بمطعم صغير اشترت منه بعض الفطائر ، التي التهمتها ، وهي تخطو بحثًا عن مكان

ما تشتري منه كل ما أرادت ؛ لتجعل من ذاك البيت مكانًا يصلح لأن يحيا فيه البشر .

كان الجميع ينظر إليها في دهشة .. عايدة لا تنتمي إلى هذا المكان .. كان واضحًا أن الحي لا يسكنه إلا المتشردون والفقراء .. وعايدة كانت أنيقة جميلة ، يبدو على ملامحها الرقي رغم البساطة ..

لم تنس عايدة أبدًا أن تشتري قفازات بلاستيكية سميكة ؛ لتؤدي بها أعمال النظافة ، وأيضًا لم تنس أن تشتري شريحتين من اللحم وبعض البقالة لتعد لصلاح ولها وجبة عشاء .. لكن عندما وقفت تفكر كيف أن قطعتين من اللحم فقط كانتا باثني عشر جنيهًا استرلينيًا ، سألت نفسها في دهشة كيف ترك لها صلاح عشرة جنيهات وما ظنها تفعل بها؟! لكنها نكست رأسها في صمت لتعود إلى البيت ..

عايدة قررت ألا تظلمه .. عايدة اختارت الصبر والحكمة .. ليس لأنها قوية ولا لأنها اعتادتها ، ولكن إن كان كل من في ذاك البلد البعيد رفضها ورفض بقاءها معهم .. فوحده صلاح رضي بها ، وأيا كان سبب قبوله يكفيها أنه رضي بها .. يكفيها أنه جاء بها إلى عالمه .. ليس من حقها أن تلومه إن كان عالمه هذا فقيرًا أو قذرًا .. وفتحت باب البيت ، وهي تهمس لنفسها «مكره أخاك لا بطل» .. عبارة قرأتها يومًا ، وها هي تذكرها اليوم .. اليوم يجب أن تحيا في عالم ما تمنت الحياة فيه يومًا ..

مكره أخاك لا بطل!! عايدة لا خيار أمامها ... عايدة علمتها الكتب والسطور أن الحب يغير كل شيء، وأغلقت خلفها الباب ، وشحذت نفسًا عميقًا من صدرها ، وهي تنظر حولها .. أمامها يوم شاق وطويل!!

****

كانت السابعة مساء حين انتهت عايدة من كل شيء .. لم تدع قطعة في بيت صلاح رفاعي ، دون أن تحاول معها .. لم تدع قطعة واحدة دون أن تحاول خلقها من جديد .. ورغم اهتراء الأثاث وتراكم الأوساخ عليه ، إلا أنه كان واضحًا أنه حتى قطع الجماد في ذلك البيت أحبت عايدة واستجابت لندائها .. كل شيء يبدو أجمل .. كل شيء كان يبدو وكأنها أخرجته من حقائبها النظيفة اللامعة .. حتى الثلاجة بدت كأنها تستعيد قوتها ، وتقف أكثر قوة وصلابة ، رغم قطع الصدأ التي تطل برأسها من زواياها .. طاولة الطعام السوداء وضعت عليها عايدة شالًا حريريًا ، أخرجته من بين ملابسها لتبدو أنيقة .. وحين وجدت عايدة شمعة قديمة في أحد دواليب المطبخ ، أشعلتها، وتركت قطرات منها تسيل على صحن زجاجي صغير ، وأسرعت بإطفائها وتثبيتها على القطرات الساخنة ؛ لتضعها مع صحنها فوق شال الحرير الأحمر؛ لتضفي عليه وعلى الطاولة السوداء بهاءً كبيرًا .

كل شيء استجاب لها إلا الحوائط .. حاولت عايدة كثيرًا معها .. حاولت بقوة شبابها .. حاولت بكل أمل رغبتها في إسعاد صلاح ونيل رضاه ، إلا أن الحوائط أبت .. كان عمر اتساخها طويلًا ، وكأنه نقش على حجارتها .. فبقيت وحدها الحوائط متسخة لا أمل فيها ..

وتنهدت عايدة وهي تمضي إلى الحمام لتأخذ حمامًا ساخنًا ، تُرى هل يكون صلاح رفاعي مثل حائط البيت؟! هل تفشل عايدة في إحياء الحب والألفة بقلبه؟!

ووقفت لتخلع ملابسها التي حملت كل ما تقفته من أوساخ عن بيت صلاح ، ورفعت قدميها البيضاوين الجميلتين لتقف تحت ماء الشاور الساخن واغتسلت .. اغتسلت اليمامة البيضاء لتخرج أكثر جمالًا وبريقًا .. خرجت ترتدي بيجاما حريرية جديدة ، اشترتها هدى للعروس منذ أيام ، وانحنت تضع ملابس التنظيف داخل كيس أسود كبير ، جمعت فيه كل ملابس صلاح، وكل ما يحتاج إلى تنظيف ..

عايدة لم تجد غسالة في المنزل ، لكنها ستسأل صلاح عن مكان الغسالات العمومية لتخرج في الغد ، وتعود بكل شيء كما كان .

وابتسمت في مرارة هل يعود كل شيء كما كان يومًا؟!

أبدًا .. لن تعود أبدًا عايدة كما كانت .. لا هي عرفت كيف تعود عايدة صابر ، التي كانت يوم دخلت منزل عبدالمنعم الشيرازي ، ولا هي تعرف كيف تعود أبدًا عايدة ابنة هدى وأخت هاشم .. لكنها ستحاول أن تكون عايدة .. عايدة زوجة صلاح رفاعي .. ستحاول ..

ورفعت وجهها تنظر إلى شعرها الأشقر القصير .. إنه جميل ناعم لا كسرة واحدة فيه ، ووجهها الأبيض الصغير الذي يشع خوفًا وأملًا ، وذهبت عايدة في هدوء لتلقي بجسدها الأبيض على الفراش ، وأخذت تتحسس بأصابعها الرشيقة الطويلة ملاءة السرير الوردية، التي وضعتها هدى في الحقيبة مع بقية أجزاء طقم السرير حيث قالت لها .. إن أجمل مستلزمات الأسرة ستجدها في هارودز ، ولكنها تضع لها هذا الطاقم فقط ليذكرها بلون غرفتها الوردية ..

وعادت تبتسم في مرارة .. «هارودز» .. إنها تظن أن «صلاح» لم يقف يومًا ببابه بل ، ورغم أعوامه العشرين في لندن، عايدة لا تظن أن «صلاح» يعلم ما هو هارودز ، أو من هو محمد الفايد الذي يملكه .

والتقطت عينا عايدة «الهاندباج» التي منحها لها هاشم يوم سفرها .. ونهضت تحملها من أحد أركان الغرفة لتعود بها، وتضعها أمامها على السرير وفتحتها للمرة الأولى .

وفي هدوء سقطت دموعها ، وهي ترى بداخل الحقيبة حقيبة أخرى صغيرة .. إنها حقيبة «لاب توب» .. وفتحتها عايدة ، وهي مازالت بداخل الأخرى الأكبر منها لتشهق شهقة صغيرة .. إنه «فيو - سوني» أحدث لاب توب وردي .. رأت عايدة صورته يومًا في أحد الإعلانات ، وصاحت عندها بأنها عشقت لونه الوردي .. لم تظن يومًا أنها ستجرؤ على طلبه من منعم أو هدى .. بل هي لم يكن عندها أبدًا لاب توب في غرفتها .. كان هناك كمبيوتر عادي ، ولكن ها هو هاشم يشتريه لها ، وتحت حزامه الصغير كان هناك مظروف أبيض فتحته عايدة ، لتجد رسالة كتبها هاشم باللغة الإنجليزية ..

حبيبتي عايدة:

إنها هدية زواجك التي أهديك إياها ، وأتمنى عليك أن تكون أول رسالة تكتبيها وترسليها منه هي رسالة ترسليها إليّ ، وأدعو الله أن تخبريني فيها أنك سعيدة وأنك بخير .

حبيبتي ..

لا شيء سيقتل خوفي وشوقي إليك ، سوى أن تكوني سعيدة ..

أرجوكِ كوني سعيدة ..

«هاشم»

وضمت عايدة الورقة إلى صدرها ، وبكت بكاءً حادًّا عنيفًا .. آه لو يعلم هاشم أنها علمت ما يريد قبل أن تقرأ .. آه لو يعلم هاشم أنها حقًّا تحاول

رغم الخوف رغم الضعف رغم الوحدة ، ورغم تلاحق اللطمات على رأسها الجميل تحاول .. وها هي الآن تعلم أن ما في رأسها سيبقى هو ما في رأس هاشم .. لقد نمت رأسيهما معًا ، فكيف لا يسكنهما نفس التفكير ونفس الأحلام .

وكفكفت عايدة دمعها ، وأخرجت حقيبة اللاب توب لتشهق شهقة صغيرة أخرى .. كان تحتها ديوان الشعر الذي أحضره لها «أشهد عكس الريح» .. وكتب أخرى صغيرة ، ووجدت عايدة في قاع الحقيبة زهرة ليللي بيضاء أخذتها في لهفة إلى صدرها .. كانت الزهرة ذابلة ، لكنها بدت في عينيها وكأنها حديقة ليللي غنّاء .. كان هناك أيضًا علبة صغيرة من الشيكولاتة التي تحبها عايدة .

وعادت دموعها تسقط من جديد ، وكأن هاشم وضع لها كل ما تحبه .. وحده يعلم كم تهوى الشيكولاتة .. وحده هاشم فقط يعلم كم تجن عايدة بزهرات الليللي البيضاء .. وحده هاشم يعلم من هي عايدة ، ولكن ها هي الآن وحدها حيث لا أحد يعلم عنها شيئًا ، ولا تعلم هي عن أحد شيئًا .. لكن عايدة ستبقى صامدة .. لن يرى أحد دموعها أو ضعفها .. سترسم السعادة على وجهها ، وستكتب إلى هاشم كل يوم ، وسيكتب لها كل يوم هو ودينا .

وأعادت عايدة اللاب توب إلى حقيبته الصغيرة ، ووضعت الكتب إلى جوار فراشها على إحدى تلك الطاولات ، التي تستخدم ، مثل ذاك الكومود الأنيق في غرفتها الوردية بشارع نهرو ، ورفعت وجهها لترسم على وجهها ابتسامة .. من أجل هاشم .. من أجل هدى ودينا ومنعم ستحاول .. لن تُهزم بسهولة .. تعلمت معهم الحب والكبرياء ، وبهم ستحاول أن تحيا .

ومالت عايدة بجسدها على الوسائد الوردية .. إن كل قطعة في جسدها متعبة تتألم ، بعد أكثر من سبع ساعات من العمل والعناء .

ترى متى يعود صلاح .. لم يخبرها .. بل إنها حتى لا تعلم له رقم هاتف .. لم يعاملها صلاح بذلك الجفاء؟!

أليست عروسًا؟! لِمَ لم يحاول حتى أن يأخذها بين ذراعيه؟! أن يقبّلها؟! الصبر والحكمة والحب .. إنها طرق طويلة مريرة ، ولكنها حتمًا ستصل بهم إلى أرض أكثر جمالًا ورحمة .

وأغمضت عايدة عينيها ، لكن قبل أن تغفو ، سمعت صوت صلاح يناديها وانتفضت عايدة تقف من فراشها ؛ لتخرج وتجده يقف في منتصف الصالة ينظر حوله في دهشة كبيرة ، وابتسمت لابد أنه سعيد .

وجاءها صوته بعد لحظات يقول:

الجيران اشتكوا من المية اللي انتِ دلقتيها على السلم ..

واختلط كل شيء في رأس عايدة .. وكأنه ضرب رأسها بفأس من حديد فقالت:

أنا دلقت مية قليلة عشان أمسح قدام باب البيت .

ولم يرد صلاح عليها بكلمة ، لكنه استدار ليدخل المطبخ .. كان مذهولًا لا يصدق ، لكنه كان أيضًا ثائرًا غاضبًا ..

إنها تخبره من جديد أنها أفضل منه .. إنها هي من حوّلت وعاء الفضلات الذي كان يحيا فيه إلى مكان يشع نظافة وترتيبًا .. إن عايدة تخبره أنه من المستحيل أن تحيا معه ، كما كان يحيا قبلها ؛ بل تريده هو أن يحيا معها كيف اعتادت هي أن تحيا ولكن كيف يلومها .. ماذا يقول لها؟ هل يخبرها أنه

يكره النظافة ، ويعشق تلك الرائحة النتنة ، التي كانت تفوح من أركان بيته؟ سيبدو أحمق غبيًا ..

والتفت إليها في لحظة ، بعد أن وجد شيئًا أكثر إيلامًا ، فقال:

شفتِ بقى أنا كان عندي حق اتجوز .. هي دي لزمة الستات في الحياة .. ينضفوا ويراعو البيوت .. عملتِ أكل كمان؟! طب يللا حضّريه عشان أنا جعان ..

ومر صلاح من جوارها ليتركها غارقة في الألم .. أهذا هو كل ما يقوله .. كانت ترى في الأفلام القديمة الرجل يحتضن عروسه إن أعدت له العشاء .. كان ترى وتقرأ في الروايات أن الرجل يطير فرحًا بامرأة ، تحاول أن تجعل من حياة زوجها شيئًا أكثر جمالًا ..

ومضت عايدة في سكون تشعل النار على قطعتي اللحم ، وهي تشعر أنها ترى قلبها عاريًا ، يتلوى على نار كبيرة من الخوف والإحباط .

لم يسألها صلاح كيف استطاعت القيام بكل هذا؟ لم يسألها كيف اشترت كل هذه الأشياء التي رآها في الثلاجة ، والتي كانت خاوية في الصباح؟ كان واضحا وجليًا أنه علم أن معها نقودًا .. كل ما فعله ، وهو يتناول بعض قطع الفراولة بعد العشاء أنه صاح ، وهو يرى قوارير المياه المعدنية .. صاح قائلًا:

إحنا بنشرب مية من الحنفية .. الفلوس اللي معاكي لو تعابينك أنا أخدهم.

وبعد كل شيء .. بعد أن عادت عايدة إلى جواره ، وجدته مازال في بيجامته الحمراء المتسخة يغفو على السرير الوردي النظيف ، ورغم هذا

أغمضت عايدة عينيها ، ومدت أصابعها الرشيقة البيضاء ؛ لتربت على كتفيه تسأله:

إحنا عندنا انترنت؟! أنا ..

والتفت صلاح ينظر إليها في قسوة ليقول:

إيه؟! إنترنت .. اسمعي .. لما نخلص إجراءات الإقامة والجنسية ، ابقي دوري على شغل ، وهاتي إنترنت ولا أنت باين عليك معاكي فلوس كتير ..

انزلي اسألي واعملي اشتراك .. زي ما عرفت تجيبي كل الحاجات دي .. أنا كفاية قوي الفلوس اللي دفعتها على الفيزا والجواز بتاعك هناك ..

وقبل أن يستدير لينام ، أمسك بوجهها بين كفيه ، كأنه يهم بأخذها وأرخت عايدة عينيها في استسلام .. الكتب والأشعار التي كانت تقرأها ، أخبرتها أن لقاء الأجساد قد يذيب الحواجز .. قد يوحد القلوب ، وهي حقًا تتمنى لو يحبها صلاح ويتركها تحبه ، ولكن عاد صلاح يطلق وجهها من كفيه ليقول في وقاحة كبرى:

نامي .. نامي أحسن ..

واستدار يحملق في الظلام ، بعد أن أطفأت عايدة الأباجورة وهو يفكر .. لن يأخذها أبدًا إلا بعد أن تتأكد عايدة أنها لا تثيره .. بعد أن تتأكد عايدة أنها ليست جميلة في عينيه .. سيعتليها صلاح عندها ، وهو يشعر أنه الأفضل والأقوى!

****

شعر بها هاشم ، وهي تحكم عليه الغطاء في فراشه ، ليفتح عينيه ويمسك بكفها ، ويعتدل في فراشه قائلًا:

مامي .. أنا قلقان على عايدة .

وجلست هدى إلى جواره وهي تتنهد .. عايدة على لسان هاشم كل صباح وكل مساء ، وعادت تعيد على مسامعه ما تقوله هي أيضًا كل مساء وكل صباح:

يا هاشم يا حبيبي هو عشان عايدة مش عارفة تدخل نت ليتها يبقى فيه مشكلة ـ هو عشان عايدة ما بتكلمناش كل دقيقة يبقى فيه أزمة .. يا حبيبي دي عروسة ـ عارف يعني إيه عروسة؟ يعني مشغولة بتوضب حياتها الجديدة .. أكيد بتخرج كل يوم وبتتفرج على لندن ، وعلى ضواحيها .. بتتعرف على أصحاب جوزها وبتروح عزومات .. وغير كدا دي عروسة .. عايدة عاقلة يا هاشم مش حاتسيب دا كله ، وتقوله اعملي اشتراك DSL عشان عايزة ابعت إيميلات لمصر . عايدة عاقلة .. اعقل أنت بقى ..

وتنهد هاشم في ألم ـ ثلاثة أسابيع مرت على سفر عايدة .. ثلاثة أسابيع لم تحادثهم فيها ، سوى مرة واحدة من تليفونها المصري . ورغم أن «منعم» أكد لها أنه سيدفع فواتير هاتفها الشهرية ، إلا أنها دومًا تغلق هاتفها .. جميعهم يعلمون أنها لا تريد أن يدفع منعم شيئًا ، خاصة وهي تعلم أنه سيدفع مبالغ

أكبر خلال وجودها خارج مصر .. أحيانًا يكون العقل مأساة .. عقل عايدة وتعقلها يذبحان هاشم ..

وأغمض هاشم عينيه بعد خروج هدى من غرفته ، لكن رأسه بقيت مشتعلة .. هل حقًا عايدة تتنزه في لندن؟ هل هي فعلًا لا تجد وقتًا لمحادثتهم ، أو لإرسال إيميل واحد له أو إلى دينا؟! ربما كانت أمه على حق .

دينا عروس مثل عايدة وهي فعلًا مشغولة .. إن «هاشم» لم يرها منذ زواجها ومنذ عودتها من بيروت أكثر من مرتين .. وهي تسكن الباب المقابل له .. لابد أن عايدة أكثر انشغالًا منها .. عايدة في لندن .. عايدة الآن تتجول بين الهايد پارك وقصر باكنجهام ومتحف مدام توسو وألف ألف مكان آخر .

عايدة أيضًا أجمل من دينا أو هكذا يراها هو .. لابد أن «صلاح» يلتهمها كل ليلة!

وضرب هاشم فراشه بقبضته .. آه .. عايدة بين ذراعي صلاح ، وهو وحده هنا بين ذراعي القلق والشوق .. لينسها .. نعم .. يجب أن ينساها .. لقد وعده منعم وهدى أن تكون هدية تخرجه في نهاية العام .. رحلة إلى باريس لمدة عشرة أيام ..

هاشم سينجح ويذهب إلى باريس ، وسيمر على عايدة في لندن .. يجب أن يراها بعينيه .

يجب أن يرى عايدة وهي بين ذراعي صلاح .. يريد أن يرى قلبه عايدة لينكسر ويكف عن جلده كل ليلة بألف سؤال وألف قصيدة شوق إليها .. هل استطاع صلاح حقًا أن ينسيها هاشم؟!

هل استطاع صلاح ذلك الجاف المتعجرف أن يملأ وقت عايدة بأكمله ، حتى أنها لا تجد دقائق تكتب فيها إليه ، أو حتى تفتح هاتفها الصغير ليسمع صوتها؟!

نعم .. استطاع صلاح أن يفعل ذلك ، وإلا ما نسيتهم عايدة إلى هذا الحد .

عايدة نسيت حتى أن تحادث دينا ولو مرة واحدة طوال الأسابيع الثلاثة..

وعاد هاشم يضرب وسادته بقبضته البيضاء القوية ، ومد أصابعه إلى الأباجورة ليشعل الضوء ، وينهض عن فراشه ليقف خلف نافذته ، يرقب حدائق الميرلاند .. ورفع عينيه ينظر إلى السماء .. إنه لا ينام .. هاشم عبدالمنعم تتمزق أضلعه شوقًا وخوفًا .. وعايدة الآن تغفو بين ذراعي صلاح رفاعي ليأخذها كما شاء .

وشعر هاشم بدمعة تتجول بين جفنيه .. ليس الشوق وحده الذي يؤلمه ، ولكن هذا هو ما أسموه الغيرة!!

****

حبيبتي عايدة:

لا أعلم متى ستقرأين رسالتي هذه .. فأنت منذ سفرك لم تكتبي لي ولا مرة واحدة .. ورغم هذا لا أستطيع أن أمنع نفسي من الكتابة إليك ..

عايدة:

مر أكثر من شهر على زواجي من حسن ..

مر شهر أيضًا على سفرك ..

لا شيء يساوي سعادتي وحبي لحسن إلا شوقي وخوفي عليكِ ..

عايدة ..

نحن جميعًا نحبك .. طنط هدى وأنكل منعم وهاشم وأمي وحتى حسن وأنا لا نجتمع يومًا ، إلا ويكون سؤالنا الأول هو هل تحدثت عايدة؟! هل أرسلت إيميل؟! هل يعلم أحد عنها شيئًا ..

ودومًا تأتي الإجابة بالنفي ..

عايدة ..

أنا أيضًا أركض .. أركض بين البيت والعمل وماما وحسن ، ولكن دومًا أفكر فيك ..

عايدة ..

أرجوكِ عندما تفتحين هذا الإيميل ، حادثيني ولو كلمة واحدة .. اكتبي لي ولو سطرًا .

عايدة ..

أرجوك .. لا تتركينا في هذا القلق كثيرًا!!

«دينا»

****

خمسة أيام منذ قرأت عايدة إيميل دينا .. خمسة أيام وهي تفكر ماذا تكتب لها .. خمسة أيام منذ جلست على مقعد المقهى المتهالك ، الذي يقع بجوار كوبري تشيلسي ، تنظر إلى نهر التايميز ، وهي تفكر ماذا تقول لها؟!

حتى هاشم وجدت منه إيميل يناشدها فيه أن تجيبه .. يتوسل إليها أن تفتح هاتفها ، ولو دقائق ليحادثها ..

ماذا تفعل .. ماذا تقول وماذا تكتب؟!

هل تخبرهم أنها حزينة .. هل تخبرهم أنها تائهة ضائعة ، لا تعلم ماذا تفعل؟!

إنها اليوم أكثر حزنًا وأكثر ضياعًا من كل أيام الشهر الذي مر .. في ليلة الأمس ، حاول صلاح أن يأخذها ، بل لقد أخذ صدرها بين كفه لكنه فجأة أخبرها أنه لا يريدها .. صاح في وجهها قائلًا .. إنه يكره نظرة عينيها .. قال لها صلاح .. إن في عينيها شيئًا لا يحبه .. شيئًا يجعله يندم على زواجه منها .. شيئًا يجعله يندم على اصطحابها معه .. ويندم في كل مرة كان يأخذها معه ، حتى حصلت بالأمس على Resident-visa ، والتي تجعل لها حق مواطني إنجلترا في العمل والحركة كيف شاءت حتى حصولها على الجنسية بعد عام آخر تقريبًا .

أي شيء في عينيها يكرهه صلاح .. إن عينيها ما عاد فيهما شيء سوى الحزن والخوف وبقايا الدموع ، التي تحاول دومًا أن تخفيها حتى لا يراها أحد .

لا .. عايدة لن تكتب كلمة لدينا .. عايدة لن تكتب حرفًا لهاشم .. لن تخبرهم الحقيقة .. لن تؤلمهم .. ستبكي دينا إن عرفت أن عايدة قضت الشهر الأول لزواجها بين المسح والكنس وإعداد الطعام ، الذي تشتريه بالنقود التي منحها إياها منعم ، والتي قاربت على النفاد .

ستبكي دينا إن علمت أن عايدة مازالت عذراء ؛ لأن «صلاح» يكره عينيها ويكره النظرة التي تطل منها .

عايدة لن تخبر هاشم أنها ما ذهبت إلى الهايد بارك الذي كانا يحلمان معًا بزيارته يومًا .. سيحزن هاشم إن علم أنها حتى اليوم لم تر أكسفورد ستريت ، ولم تجلس في ميدان البيكادلي لتداعب حماماته الكثيرة .. سيحزن هاشم كثيرًا إن علم أن عايدة لم تخرج من ناين إلمز أبدًا ، ولم تجرؤ حتى على عبور كوبري تشيلسي ، الذي أخبروها بجمال كل ما يقع خلفه ..

سيبكي هاشم إن علم أن صاحب المقهى الباكستاني العجوز عرض عليها العمل عنده بمبلغ مائة جنيه استرليني أسبوعيًا ؛ لأنها لا خبرة لها في أي عمل كان!

سيحزن أكثر إن علم أنها تفكر حقًّا بقبول العرض .. ماذا ستفعل إن انتهت نقودها التي منحها إياها منعم؟! هل تذهب إلى البنك ، وتبدأ في إنفاق الآلاف الثلاثة التي اخبرتها عنها هدى .. لا .. لن تفعل .. هذه النقود لن تلمسها .. قد تحتاجها عايدة يومًا للهرب من صلاح والعودة إلى مصر .. العودة إلى شارع نهرو!

نعم .. منذ استيقظت عايدة هذا الصباح ، وهي تفكر في العودة إلى مصر .. بدأت تشعر هذا الصباح أنها تنهار .. لقد أخافها كثيرًا ما فعله صلاح بالأمس – قد يطردها .. نعم .. صلاح قد يطردها .. إن انتهت نقودها لم يبقيها .. إن كان يكره عينيها لم يبقيها .. ولكن هل تعود؟! هل تستطيع حقًّا

أن تعود .. أليسوا هم من طلبوا رحيلها .. كيف تعود إذن؟!

ومسحت عايدة بكفها الأبيض الرقيق على شعرها الذهبي القصير .. إنها تائهة .. ستذهب إلى الباكستاني العجوز، وتخبره أنها ستعمل لديه .. ولكن ما عرضه من نقود لن يكفي ..

إنها تائهة ضائعة وتعبت قدماها من السير في هذا الحي القذر ، الذي تلتهمها فيه الأعين كلما مشت فيه ..

ووقفت عايدة تنظر إلى كوبري تشيلسي .. لماذا لا تعبره .. لماذا لا تعبره وتنظر إلى الجهة الأخرى منه .. أخبروها أن منطقة تشيلسي منطقة ساحرة جميلة – ولكن ما الجمال وما السحر ، إن كنت لا ترى إلا الحزن ولا تشعر بغير الألم .

وأحنت عايدة رأسها في سكون واستدارت لتعود إلى البيت .. ستمر على العجوز وتخبره أنها مازالت تفكر .. ستشتري بعض العملات المعدنية، وتقف على أي كابينة هاتف لتحادث هدى في طريق عودتها .. ستحادثها الآن لأنها تعلم أن «هاشم» و«منعم» ليسوا معها .. ستخبر هدى أنها بخير ، وستطلب منها أن تخبر دينا و«هاشم» أنها بخير ، وأنها قريبًا ستدخل الإنترنت إلى بيتها وترسل لهم رسائل .

قد تكذب عايدة على هدى ، ولكنها أبدًا لن تكذب على دينا أو هاشم ، ولن تقوى أيضا على إخبارهم بالحقيقة ..

الحقيقة قد تحزنهم وتبكيهم ، والكذب سيبكيها هي وحدها على حبها لهم .

عايدة لن تبكيهم ، ولن تكذب عليهم يومًا لأنها مازالت تحبهم كثيرًا ..

عايدة ستكتفي بالبكاء وحدها دومًا!!

****

انحنى حسن يضع قبلة صغيرة على رأس نجوى، ليقول في صوت هادئ:

أنا خارج يا طنط نجوى .. حاعدي على دينا آخدها، ونروح نتغدا برا ونطلع نقعد مع بابا شوية .. تيجي معانا ..

وابتسمت نجوى في هدوء لتقول:

لا يا حسن .. أنا حتغدى مع هدى ومنعم بالليل، لما هاشم يرجع من الجامعة إن شاء الله .. باقولك إيه .. ما تتأخروش .

ولوح لها حسن، وهو يمضي إلى خارج البيت بسرعة، قبل أن تملي عليه تعليمات أخرى .

الحياة مع نجوى ليست بالسوء الذي كان يتخيله، بل ربما بدأ حسن يعتاد حقًّا الحياة معها .. حتى تعليقاتها اللاذعة بدأت تصبح منطقية، ولها دومًا مبرراتها .

نجوى لا يغضبها إلا الفوضى وعدم النظام .. تمامًا مثل عبدالكريم والده .. الفرق بينهما أن عبدالكريم لا يبدي استياءه في كلمات قاسية .. عبدالكريم فياض يصدر قراراته ويتابع تنفيذها، وإن تمت مخالفتها أصدر عقوباته أو غضبه ولومه، بعد أن أصبح حسن شابًا .

أبدًا لا تخرج من شفتيه كلمة غاضبة .. وحدها نجوى إن تأخرت دينا أو تأخر حسن في العودة بها ليلًا، أو ترك بعضًا من أشيائه ملقاة على أريكة المعيشة، خرجت من شفتيها كلمة تأنيب أو عبارة لوم قاسية ..

لكنه بدأ يعتادها .. نجوى طيبة حانية لا شيء في حياتها، سوى دينا والتخطيط لمستقبلها ومستقبل أحفادها ..

وابتسم حسن، وهو يضع مفتاح سيارته بداخلها ليدير محركها متجهًا إلى دينا .

اليوم إجازته الأسبوعية من البورصة، لكنه يوم عمل عند دينا .. سيأخذها للغداء خارجًا، ثم يذهبان لزيارة والده، وينطلق بها ربما إلى السينما أو في سهرة أو زيارة لأحد أصدقائهما .

دينا لن تعترض .. نجوى قالت إنه يجب أن يعود بها لتبدل ملابسها، وتأخذ حمامها إن كانا سيسهران في الخارج .

هذه هي نجوى، ولكن دينا دومًا تفعل ما يريده حسن وما يقوله، دون حتى أن تُغضب نجوى أو تناقشها .. حسن وحده يخطئ عندما يحاول إقناعها بخطأ ما تقول، ولكنه سيتعلم أن يسايرها كما تفعل دينا مادامًا يفعلان دومًا ما يرضيهما ويسعدهما في النهاية .

وأوقف حسن سيارته بجوار مدخل الفندق، وحادث دينا ليخبرها بقدومه لتظهر بعد لحظات، وهي ترتدي ثوبًا من الحرير الأزرق وعليه زهرات بيضاء صغيرة، وركضت نحو السيارة لتقول وهي تفتح بابها:

أنا حاسيب عربيتي بايتة هنا .. بكرة الصبح توصلني بابوعلي ..

ومال حسن إلى حيث جلست دينا؛ ليضع قبلة صغيرة على وجنتها الضاحكة، وهو يقول:

أوصلك يا أم علي .. أوصلك بس ما تقوليش لطنط نجوى إن إحنا سيبنا العربية عشان ...

وقاطعته دينا قائلة دون غضب:

ارحم طنط نجوى بقى .. قولي حتعزمني فين؟!

وانطلق حسن يقود سيارته ، وهو يقول:

في أحسن حتة .. الفلوس كتير والعمولات إيه ما أقولكيش .. أنتِ شاوري وأبو علي يدفع .

ومالت دينا برأسها على مقعد السيارة ، وأغمضت عينيها في سعادة ، ومدت أصابع يدها تبحث عن كف حسن لتأخذه بين أصابعها ، وهي تهمس:

بحبك ياحسن .. بحبك يابو علي!!

عندما جلس الاثنان خلف أحد نوافذ مطعم «كوريتيجيانو» في المرغني، تنهد حسن ليقول:

دينا .. كان نفسي نروح نتغدى في مطعم جراند حياة أو الفورسيزونز ..

وقاطعته دينا ، وهي تنظر في قائمة الطعام بين يديها ، لتقول:

حسن .. لازم نوفر شوية .. أنت بتصرف بجنون .. ما تعرفش بُكره فيه إيه؟!

وقاطعها صائحًا:

الفلوس كتير يا أم علي ..

وألقت دينا بالقائمة على الطاولة ؛ لتمسك بيده بين أصابعها ، وقالت في حنان:

اللي جي أكتر .. حسن .. حيبقى عندنا ولاد .. ماما عيَّانة .. مصاريف علاجها كتير .. محتاجين شغالة مقيمة .. صحب نسيبها لوحدها الدكتور

بيقول خطر .. حسن .. حقيقي أنا معاك سعيدة ممكن ساندوتش صغير يشبعني .. حضنك وحبك هو اللي بيسعدني ، مش المطاعم واللوكاندات الغالية بس ..

وضغط حسن على أصابعها في حب كبير ، وقال في قلق:

بس إيه؟ إيه يا دينا!

وبابتسامة صغيرة قالت:

ارحم نجوى .. ارحم نجوى شوية .. شيلها من دماغك يا حسن ..

وقاطعها حسن من جديد قائلًا:

إخص عليك يا دينا .. أنا بحبها والله بحبها .

ونهضت دينا عن مقعدها المقابل له ؛ لتجلس على المقعد المجاور له ليرفع حسن ذراعه ؛ ويلفه حول كتفيها ليسمعها تقول:

عارفة .. بس فيه فرق بين الحب والرحمة .. ارحمها في تفسيرك لكلامها .. ارحمها في تبريرك لقسوتها أحيانًا .. دي مريضة .. وكمان دي أمي .. يللا يا أبو علي قول نتغدى إيه؟!!

●●●●

نامت عايدة ككل يوم في التاسعة تقريبًا .. نامت بعد أن أعدت لصلاح صحنًا من المعكرونة وتركته له في المطبخ .. لم يعد باستطاعتها أن تشتري المزيد من اللحوم ، وما بقي معها ، على ما يمنحه إياها صلاح بالكاد يكفي ما تفعله وتعده كل مساء .

نامت عايدة قبل أن يحضر صلاح ؛ لأنها باتت تخشى أن تراه، وأن يرى عينيها التي يكرهها ويكره نظرتها .. لا تريد أن تثيره .. لا تريد أن تغضبه .. هي تعلم أنه ليس لها الآن على الأرض أحد سواه .

في الصباح قد تخبره ، وهي تعد له الإفطار عن موضوع عملها لدى الباكستاني العجوز .

وشعرت به عايدة ، وهو يلقي بجسده إلى جوارها .. لكنها لم تتحرك وحاولت العودة إلى النوم، بعد أن أطفأ النور وشد بقسوة الغطاء من على جسدها ليحكمه حول جسده وغابت عايدة في النوم ؛ لتستيقظ مرة أخرى على صوت صياح يقتحم أذنيها النائمتين في الحيرة والحزن .. وفتحت عينيها وهي تتحسس بكفها مكان صلاح لتجده خاويا، وانتفضت في ذعر ..

الصوت ليس بعيدًا .. الصوت قادم من صالة البيت .. كان صلاح يصيح في إنجليزيته الركيكة بكلمات كلها سباب قذر ، ولكن كان هناك صوت آخر يعلو على صوته .. إنه صوت امرأة تصيح بسباب أكثر دناءة مما يقوله صلاح..

نهضت عايدة تنظر من خلف الباب في خوف ، واصطدم وجهها بوجه صغير ، يظهر من زاوية الباب التي فتحتها عايدة .

إنه وجه طفل يقف في صمت .. شعره أشقر ناعم ، ويسقط على جبهته الصغيرة .. عيناه زرقاوان صغيرتان وشفتاه ورديتان جميلتان ..

كان الصغير يرتدي بنطلونًا كاروه بنيًا وقميصًا بيج .. ملابسه نظيفة وحذاؤه الصغير لامع جديد .. لكنه أحنى رأسه في صمت ، وصوت الصياح يعلو من حوله أكثر .

وسمعتها عايدة تصيح ، وهي تطالب صلاح بالاحتفاظ به ؛ لأنها ستترك لندن هي وزوجها لتقيم في بلده البعيد .

سمعتها تقول في جنون إنها لم تعد تريد الصغير ، وإنها ما عادت تستطيع الإنفاق عليه أكثر من هذا .

كان صلاح لا يقول شيئًا سوى أنه ينعتها بأقذر الصفات ، ويصرخ آمرًا لها باصطحابه خارج البيت .

والتصقت عايدة بباب الغرفة في خوف كبير .. لم تكن ترى «صلاح» أو المرأة التي تصيح معه .. وحده الصغير هو ما تراه عيناها ، وعادت تنظر إلى وجهه من جديد .. وجهه أبيض مستدير وأنفه أفطس جميل ، لكنه كان صامتًا لا يرفع عينيه، بعد أن نكسهما إلى الأرض .

وفجأة رأت عايدة «صلاح» يمسك بذراعه ليجذبه في قسوة ، وهو يقسم أنه سيرمي به إلى خارج البيت ، إن هي تركته ورحلت .

ولم تشعر عايدة بنفسها أبدًا ، وهي تفتح الباب لتركض من خلفه إلى حيث كان صلاح يركض بالصغير في يد ، وبحقيبة أخرى صغيرة في اليد الأخرى ، وصاحت عايدة في صوت مجروح قائلة:

صلاح .. أنت حتعمل إيه؟!

ورأتها المرأة قبل أن تخرج من باب البيت ، والتقت عيناها لتراها عايدة .. ولم تتمكن عايدة من رؤية ملامحها بوضوح .. كانت عايدة تنتفض ذعرًا وخوفًا ، إلا أنها سمعتها تقول في سخرية كبيرة أنها علمت الآن سر نظافة البيت ولمعانه ..

وركضت المرأة على سلالم البيت ، وصلاح يندفع خلفها بالصغير في يده، إلا أن عايدة عادت تصيح من جديد:

صلاح .. صلاح .. أرجوك رد عليّ .. حتوديه فين؟! حتوديه فين بالليل كدا؟!

وألقت بنفسها على ذراعيه لتخلص الصغير من يده ، وتعود به إلى داخل البيت ، وعاد صلاح إليها ليصفق الباب خلفه في جنون ، وهو يصيح:

أنت عايزة إيه يا مجنونة أنت كمان؟!

وقالت عايدة ، وهي مازالت تمسك بالصغير بين يديها:

عايزة أفهم .. مين دا وفيه إيه؟!

وألقى صلاح بالحقيبة الصغيرة من بين أصابعه ؛ لينظر إلى وجه الصغير، الذي لم يبلغ التاسعة بعد من عمره ليقول:

دي كانت مراتي ودا بتقول عليه ابني .. والنهاردة جاية بتقول إنها مش عايزاه عشان اتجوزت وحتسافر مع جوزها .. أنا كمان مش عايزه لأني مش مصدق إنه ابني ، وحتى لو ابني يوم ما اتطلقنا ، هي قالتلي إنها هي اللي حتتكفل بيه .

وفتحت عايدة عينيها في جنون أكبر وهي لا تصدق .. وعادت تنظر إلى الصغير في ذهول .. إنه ساكن .. لم يفتح شفتيه بكلمة واحدة .. إنه مستسلم .. ترك نفسه ليتقاذفوه جميعًا .. وخطت به عايدة في هدوء لتجلسه على الأريكة السوداء، وجلست إلى جواره وهي تنتفض ..

لم تعد عايدة ترى شيئًا .. لم تعد ترى «صلاح» أو حتى ترى الصغير .. كل ما كانت تراه عيناها هي صورتها ، يوم أخذها عمها طلعت إلى هدى .. كانت ترى صورتها يوم خلعت عنها هدى ملابسها ، ووقفت تغسل لها شعرها وجسدها .

كل ما كانت عايدة تراه هو جسدها الأبيض النحيل الصغير ، وهو ينتفض تحت الماء الساخن ، وقلبها الذي كان يعلو دبيبه في أذنيها من الخوف والدهشة .

كانت أصغر منه لكنها لا تنسى .. كانت في سكونه وربما في ملامحه .. لكن أمها هي ماتت رغمًا عنها .. أما هذا المسكين فأمه لا تريده .. أمه هي التي أحضرته لتلقي به إلى ذراعي «صلاح» ، وها هو يحاول أن يلقي به خلفها إلى الشارع .

لن تتركه عايدة أبدًا .. لن تتركه .. ستفعل ما فعلته هدى يومها .. ستضمه .. ستحنو عليه .. لن تترك «صلاح» يلقي بعايدة ، التي تراها أمام عينيها الآن إلى الشارع أبدًا ..

ورفعت عايدة عينيها ، التي اختبأت خلف دموع كثيفة لم يرها صلاح يومًا أبدًا ، لتقول في صوت خفيض كسير:

أنا حارتيه يا صلاح .. أنا حاعمله كل حاجة .. أرجوك خليه .

ولم يصدق صلاح عينيه ، وهو يراها تنتفض ودموعها تسقط زخات خلف زخات .. وأثارته دموعها وشعر بالزهو .. شعر بالنصر .. شعر بأنه أخيرًا رأى عينيها خالية من تلك الكبرياء العنيدة التي يكرهها .. أخيرًا رآها تبكي في جنون، وهي ترجوه وتتوسل إليه .. لكنه كان يريدها أن تبكي أكثر ليتشفى هو من دمعها أكثر ، فقال:

أنت مجنونة .. هو أنا أصرف عليه ولا عليكي؟!

يقعد فين دا وينام فين؟!

وأمسكت عايدة بكف الصغير الساكن إلى جوارها ، في قوة ، وعادت ترجوه قائلة:

أنا حاشتغل .. شودري صاحب الكافيتريا اللي قرب النهر عرض عليّ شغل .. حاشتغل يا صلاح وأصرف عليه .. إن شالله ياكل أكلي .. ينام جنبك في السرير ، وأنا أنام هنا على الكنبة .. أنام على الأرض يا صلاح بس بلاش تمشيه يروح فين .. دا ابنك .. ابنك يا صلاح .. أرجوك .. أرجوك يا صلاح .

كانت عايدة تبكي في جنون .. كانت حقًّا لا ترى سوى صورتها ذاك اليوم .. كانت لا تسمع إلا انتفاضة جسدها من البرد ، بعد أن تركتها هدى في فراشها لتذهب وتحضر لها بعضًا من ملابس دينا .. لن تتركه .. لن تتركه أبدًا .. وعادت تردد دون وعي:

أرجوك .. أرجوك يا صلاح .

كان صلاح هو الآخر لا يرى سوى دمعها .. كان في تلك اللحظات لا يسمع سوى توسلها إليه وشعر أنه يريدها .. شعر أن هذه هي اللحظة التي إن أخذها فيها ، سيقضي على ما بقي من كبريائها الذي يكرهه .. شعر صلاح أنه إن أخذ عايدة في هذه اللحظات، سيكسر بداخلها كل ما يظنه غرورًا وتعاليًا ..

ورفع صلاح حاجبه في زهو كبير ليقول ، وهو يخطو نحو غرفته:

خليه يتلقح ينام هنا ، وقومي تعالي معايا .. أنا عايزك دلوقتي ..

وربتت عايدة بكفها على رأس الصغير الأشقر في حنان ، وقبل أن تفتح فمها معه بكلمة واحدة ، صاح صلاح يناديها لتذهب إليه حيث أمرها بإغلاق باب الغرفة .. وعندما جلست إلى جواره على الفراش ، كما أمرها ، عاد صلاح بجسدها إلى الخلف لتسقط عايدة وهي لا تفهم شيئًا، لكن «صلاح» أخذ يدمدم في لهفة كبيرة بكلمات محمومة ، انتفضت لها عايدة في ذهول .. أخذت ترقبه وهو يقتحم جسدها في جنون عارم .. وقاومته عايدة .. قاومته كثيرًا لكنها قاومته في خوف كبير .. كانت تخشى أن يصرخ مما قد يخيف الصغير الجالس خلف هذا الباب .. كانت تخشى أن يغضب ويطردهما معًا .

كانت خائفة كما لم تخف إلا يوم دخولها بيت هدى أباظة ، واستسلمت عايدة استسلمت وهي ترقب وجه صلاح .. كانت كل قطعة في وجهه سعيدة ترقص .. كان يفترسها بنهم وقسوة وفي لحظات .. في لحظات قليلة صغيرة ، أصبحت عايدة امرأة بين ذراعي صلاح .. لكنها أيضًا أدركت أن صلاح سكب بداخلها كرهًا واحتقارًا لا حدود لهما .

وانتهى صلاح منها وبقيت ساكتة لا يتحرك فيها شيء سوى دمعات صغيرة تهرب من عينيها في صمت كبير ، ورأته يتمتم بكلمات أخرى لم تحاول حتى أن تفهمها .. وبعد لحظات أخرى تحاملت فيها على ذاك الألم ، الذي كان يشق جسدها .. نهضت عايدة لتضع جسدها داخل قميصها الذي خلعه عنها صلاح ، وألقاه على أرض الغرفة وخرجت ..

خرجت عايدة بجسدها الممزق وروحها الثائرة لتجد آدم ، كما تركته في المكان ذاته ، ينظر حوله في ذهول كبير ..

وأحنت عايدة رأسها في ألم ، وجلست إلى جواره لتقول:

أنا عايدة .. أنت اسمك إيه؟!

وفي صوت خفيض أجاب:

آدم .. آدم صلاح .. هو صلاح صاحبك؟!

وفي ذل كبير وبابتسامة مريرة ، رفعت عايدة ذراعها لتضمه حول كتفه الصغير ، وقالت:

صلاح جوزي .

ثم عادت بعد لحظات من الصمت تقول:

غير هدومك .. أنا حآخد حمام وآجي نتكلم مع بعض .. عايز تاكل حاجة؟!

وهز الصغير رأسه بالنفي ، لتنهض عايدة بعيدًا عنه .. لن تلمسه قبل أن تطهر جسدها من آثار جسد ذاك المريض ، الذي مزق جسدها دون رحمة ..

عندما عادت عايدة من حمامها ، وجدته كما هو في ملابسه التي حضر بها .. وجدته نائمًا مغمض العينين ، وكأن لحظات الخوف والصياح التي عاشها أنهكته ، فاستسلم للنوم وهو جالس في مكانه .

وانحنت عايدة ترفع ساقيه الصغيرتين النحيلتين على الأريكة ، وخلعت عنه حذاءه وجوربه في حنان ، وعادت إليه بعد لحظات لتسجي عليه إحدى الملاءات النظيفة وجلست ترقبه لحظات طويلة ، ودموعها تغسل وجنتيها في سخاء كبير .

ونهضت عايدة لتدخل غرفتها وتخرج ، وهي تحمل اللاب توب في يدها لتفتحه وجلست تكتب لأول مرة .. كتبت وهي تعلم أنها رسالة لن تصل إلا في الغد ، عندما تذهب إلى المقهى القريب .. لكنها قررت أن تكتبها الآن .. ستكتب رسالة وترسلها إلى هاشم ودينا معًا .

****

هاشم .. دينا ..

الآن فقط علمت أن حضوري إلى لندن كان له سبب كبير .. الآن فقط أدركت أن زواجي من صلاح كان له سبب كبير .. بل علمت أن موت أمي وأبي ربما كان له نفس السبب .

أنا جئت هنا لأنقذ طفلًا كما أنقذتني ماما هدى يومًا من قسوة شلبية وضعف عمي طلعت .. أنا جئت هنا لأنقذ طفلًا من قسوة أمه وغباء صلاح أبيه .

وسقطت دموع كثيفة جديدة من عين عايدة ، وهي تكتب اسم صلاح إلا أنها عادت بعدها بأصابعها الرشيقة الطويلة تكتب:

ما يكفيني أنه يشبهني .. ما يكفيني أني لا أشبه ماما هدى .. لست في قوتها .. لست في ثرائها ، ولا أستطيع حتى أن أكون في حنانها ، ولكن سأحاول أن أكون ..

اليوم أستطيع أن أقول إني سعيدة ..

فلتهدأوا جميعًا ولتطمئنوا ..

من عرف الهدف وحدد الغاية ، يهنأ قلبه ويهدأ أيا كان ضعفه وعذابه ..

أنا وجدت غايتي وعرفت طريقي .

«عايدة»

****

صاح شودري في صوته المبحوح ينادي عايدة ، وهو يخبرها أن هناك من يريد محادثتها على هاتف المقهى الذي تعمل فيه .. وركضت عايدة والدهشة تأكلها ، لا أحد على الأرض يعلم رقم هاتف المقهى سوى صلاح .. وما تراه يريد منها .. والتقطت سماعة الهاتف لتشهق بعدها ، وفي ذعر كبير أغلقت الخط ، والتفتت تنظر إلى شودري صاحب المقهى العجوز، وهي ترجوه أن يسمح لها بالانصراف .

مدير المدرسة التي التحق بها آدم يريدها الآن لأمر عاجل .. وابتسم شودري في وجهها ابتسامة صغيرة .. إنه يحب عايدة ، ولا يصدق أن شابة في جمالها وأناقتها تعمل لديه .. لا يصدق أبدًا أنها تقيم هنا في هذا الحى.. ولا يصدق أبدًا أنها زوجة لذاك المصري المغرور ، الذي لا يحبه أحد في هذا الحى.

وانطلقت عايدة تسرع بخطواتها في جنون نحو المدرسة .. تمنت لو كان معها نقود تستقل بها الباص أو تأخذ تاكسي .. لكنْ لكل بنس في جيبها استخدام .. ورغم أن المدرسة ليست بعيدة ، إلا أنها شعرت أن قلبها يكاد يقف من خوفها ولهفتها .

ما تراه حدث هناك؟!

إن آدم لا يحكي لها شيئًا .. لكنها كانت تراه دومًا يعود من المدرسة وآثار دموع في عينيه .. إنها تحاول كثيرًا التقرب منه والدخول إلى قلبه ، لكن آدم

أبدًا لا يسمح لها بالكثير .. آدم ينهي واجباته المدرسية ، ويلهو بجهاز «الجيم بوي» الذي أحضره معه ولا يتحدث .. كم عدد المرات التي أخبرته فيها عايدة أنها من الممكن أن تصحبه إلى أحد المتنزهات الموجودة في الحي ، ليتعرف على بعض الصبية هناك .. لكنه كان يشكرها ويرفض ..

آه لو تعلم كيف تصبح صديقته .. آه لو يعلم هو كم تحتاج صحبته وحنانه ولكن لن تتعجل الأمور .. لن ترغمه على شيء .. سيشعر يومًا أنها حقًّا تحبه وتشفق عليه .. المهم أن يكون بخير .

ودخلت عايدة مبنى المدرسة .. حتى مدرسة ناين إلمز متسخة ومبناها يدعو إلى الخوف والاشمئزاز .. وسارت إلى مكتب المدير الذي فتح عينيه في دهشة كبرى ، حين رأى عايدة .. دهشة اعتادتها واعتادت رؤيتها في كل الأعين في هذا الحي اللعين .

وزادت دهشة الرجل حين رآها تسأله بلغتها الطليقة عن آدم .. بدت حقًّا خائفة حتى أنه عاد يسألها إن كانت أمه .. آدم يشبهها ولا يشبه «صلاح» الذي أحضره هنا ذات صباح، وقالت عايدة في هدوء إنها زوجة أبيه ، ونكس الرجل رأسه ليقول:

مسز صلاح .. احنا عندنا مشكلة كبيرة مع آدم .. آدم زي مانت عارفة جه من مدرسة اكستر ديفن ، ودي منطقة راقية وهادية .. يعني حتى الولاد اللي فيها نوعية تانية تمامًا غير اللي عندنا .. نوعية زي نوعية آدم .. لكن للأسف هنا .. الولاد عنف ومخدرات .. الحقيقة آدم تعرض لكذا اعتداء في الأسبوع الأخير .. أنا اتكلمت معاه ، وعملت «تقرير رسمي» رفعته للجهات المختصة ، والنهاردة حصلت على موافقة رسمية بنقله لمدرسة تشيلسي يعني بعد الكوبري على طول .. أنا كنت حابعت جواب للبيت النهاردة بكدا .. لولا .. لولا ..

وأطرق الرجل للصمت قليلًا ، ثم قال في تأثر كبير:

النهاردة برضه واحد من الأولاد اعتدى على آدم بالضرب .

شهقت عايدة في ذعر ، وبلا وعي منها سقطت دمعات من عينيها لتصيح في لهفة وتسأله إن كان بخير ..

وعاد الرجل ينظر إلى عينيها الخضراوين الواسعتين في ألم ليقول:

اطمني مسز صلاح .. مافيش حاجة جامدة .. احنا كنا خايفين على عينه وأنا أخدته بنفسي المستشفى ورجع .. هو قاعد دلوقتي في مكتب مسز ريتشارد .. أنا حندهله دلوقت ..

وبعد لحظات من التردد عاد يقول:

مسز صلاح .. من بكرة وديه مدرسة تشيلسي .. الملف اللي أنا جبته من مدرسته القديمة أصبح هناك دلوقت .. ما تعرفيش قد إيه أنا كنت حزين ومتعاطف معاه .. لكن قد أيه برضه أنا مطمن عليه دلوقتي لما شفت حضرتك .. آدم ولد هايل .. كل المدرسين بيقولوا عليه حيبقى عبقري .

ونهضت عايدة تسأله أين تجد آدم .. لكن الرجل طلب منها أن تجلس ، بعد أن حادث أحدهم عبر الهاتف ، وطلب إحضار آدم الذي دخل المكتب بعد لحظات ..

كانت هناك ضمادة صغيرة فوق جبهته ، وعلى أعلى عينه اليسرى .. كانت هناك أيضا آثار لكدمة زرقاء على وجهه .. كان واضحًا أنها لكمة عنيفة تلقاها آدم في وجهه .

ونهضت عايدة تأخذه بين ذراعيها في حنان كبير ، وقالت من بين دموعها:

ليه يا آدم .. ليه ما قلتليش على اللي بيحصل؟ ليه يا آدم .. ليه؟!

كان الصغير خائفًا .. كان ينتفض .. لم يكن يعلم ما الذي يمكنه أن يقوله والذي يجب أن يخبئه .. كان يخشى أن تغضب عايدة إن أخبرها أن المدير كان يفكر بإرساله إلى مدرسة أخرى بعيدة .. كان يخشى أن تخبر «صلاح» ، فيثور ويصرخ كما فعل ويفعل دومًا كلما رآه .. إنه لا يعلم حقًّا ما الذي يمكن قوله ، وما الذي يجب إخفاؤه ، ورفع عينيه الزرقاء الصغيرة ليقول في حيرة كبرى:

أنا آسف ..

وابتسم مدير المدرسة ، وهو يصافح عايدة ، وانحنى يقبل آدم قائلًا:

أنت محظوظ لأن كلنا بنهتم بيك .. بس أنت كمان تستحق الاهتمام لأنك مميز .. آدم .. من فضلك عايز أسمع عنك أخبار كويسة .. أنا متأكد أن مدرسة تشيلسي حتفتخر بيك .

****

عندما مدت عايدة أصابعها البيضاء الرقيقة لتلتقط أصابع آدم الصغيرة بينهم ، شعرت بتردده في أن يترك لها كفه فأغمضت عينيها في ألم .. لماذا لا يشعر بحبها له؟ لماذا لا يحاول أن يستمتع به؟ لماذا يرفض الحديث عن كل شيء؟ .. لا تعلم ولكن ما تعلمه أنها حقًّا تحبه ، وحقًّا تفهم خوفه وتردده ولا تغضب أبدًا ..

وسارت عايدة إلى جواره ، وهي تنظر حولها من جديد .. لم يعد يثيرها كثيرًا أن ترى فأرًا يطل برأسه .. أصبحت تكتفي بانتفاضة صغيرة تسري في جسدها .. لم تعد حتى رائحة الأوساخ ، التي تطل من أركان شوارع الحي تزكم أنفها .. اعتادت كل شيء .. اعتادت حتى رائحة صلاح ورائحة جسده الذي لا يغسله إلا مرات قليلة .

وعادت تتنهد .. قد تكون حقًّا اعتادت كل هذا ، ولكن هذا الصغير هو الزهرة النقية الوحيدة في عالمها .. ربما لهذا تحبه أكثر .. ربما لهذا تسعى دومًا لأن تمسك بكفه الصغير ، وتتمنى حقًّا أن تأتي اللحظة التي يسمح لها فيها بأن تضمه إلى صدرها .. وانحنت عايدة تقول له في حنان:

آدم .. لو أنت مش تعبان .. إيه رأيك نروح المدرسة الجديدة .. نشوفها ونعرف مكانها .. أنا من يوم ما جيت لندن ، وأنا نفسي أعدي كوبري تشيلسي .. إيه رأيك نعديه سوا دلوقت ..

وفي هدوء واستسلام اعتادتهما منه عايدة ، قال:

أوكي ..

ومرت عايدة في طريقها بالمقهى الذي تعمل فيه .. وطلبت ، في تردد كبير ، بعض الجنيهات من شودري كسلفة ، تخصم مما يمنحها إياه في نهاية الأسبوع .. هي تعلم أن شودري يشفق عليها ويحترمها ولكنها لم تكن أبدًا تفكر في أن تطلب منه ما طلبته اليوم ، لكنها قررت أن تشتري للصغير شيئًا من تشيلسي حين يصلان إليها .

وعبر الاثنان الجسر ، وما أن وصلا نهايته ، حتى صاح آدم قائلًا:

مستحيل .. دا مكان جميل جدًّا .. شبه اكستر ديفن ..

وفتحت عايدة عينيها لا تصدق .. هل يفصل جسر صغير بين قذارة كالتي كانا فيها ، وبين جنة كالتي يخطوان على أرضها .. كل شيء حولها جميل .. كل شيء نظيف وأنيق .. حتى السماء تبدو هنا أكثر صفاء وزرقة .. حتى المقاعد المتناثرة أمام النهر نفسه تبدو أنيقة جميلة .. لا أوساخ .. لا كتابات دنيئة بألوان صارخة على الحوائط أو على المقاعد .

وجلست عايدة على أحد المقاعد المتناثرة في حديقة صغيرة أمام النهر ، وهي تقول في ألم:

أنا كمان كنت عايشة في مكان جميل يا آدم .. كان قدام شباكي جناين وبحيرة صغيرة فيها بط .. أنا كمان افتكرت بيتي .. حلو إنك تفتكر الحاجات الحلوة اللي في حياتك .. مش كدا؟!

وجلس آدم إلى جوارها ، ثم قال بعد لحظات:

بس أنا الحاجات الحلوة اللي في حياتي مش حاترجع تاني أبدًا ..

ورقصت دمعة في عين عايدة .. من قال إن ذكرياتها هي الأخرى ستعود يومًا .. هي وآدم لا طريق آخر أمامهما .. وعادت تحاول أن تبتسم ، وهي تقول:

حتى لو الحاجات الحلوة خلصت .. ممكن نحاول نعمل حاجات حلوة

جديدة ـ النهاردة جينا مكان حلو ومدرستك حتكون فيه ، وكمان ممكن نبقى أصحاب ، ودي أحلى حاجة يا آدم ـ إيه رأيك؟!

ورفع الصغير وجهه الحائر لينظر إلى عايدة .. إنها جميلة أنيقة .. أكثر جمالًا من أمه التي يحبها ، وأكثر منها هدوءًا وحنانًا، ولكنه مازال لا يفهم .

ونكس رأسه في صمت دون أن يجيبها بكلمة ..

ونهضت عايدة تستوقف أحد المارة ؛ لتسأله عن مدرسة تشيلسي ، وعندما أخبرها أنها تبعد حوالي 2 بلوك عن الجسر ، سقطت في حيرتها لتجلس إلى جوار آدم من جديد ، وهي تقول:

المدرسة بعيدة يا آدم .. مش حاتقدر تمشي كل دا لوحدك ، وأنا كمان ماقدرش أسيبك ، وماقدرش آجي معاك .

وبعد دقائق ، وبعد أن مر إلى جوارها طفل على دراجة ، قالت عايدة:

آدم .. بتعرف تسوق عجل؟!

وابتسم آدم ليقول:

كان عندي عجلة .. كنت باركبها وأنا رايح المدرسة ..

وقالت عايدة:

خلاص .. أنا حاشتريلك عجلة .. الصبح أنا حاوصلك لغاية أول الجسر وأنت تكمل في تشيلسي .. هنا أمان .. وحاكلم شودري ساعة الغدا اللي باخدها حا اخدها في وقت خروجك .. حاستناك عند الكوبري وأروَّحك البيت .. يللا قوم نشوف المدرسة فين؟!

وسار آدم إلى جوارها .. كان ينظر حوله في سعادة ـ كان الحي وجماله يسكبان على روحه طمأنينة .

وفي لحظة مد آدم كفه ليضعه بين أصابع عايدة ، التي رقصت روحها فرحًا ، وهي تضغط عليه بقوة ، كأنها تخبره أنها لن تتركه أبدًا ..

كان الطريق طويلًا بعض الشيء إلى المدرسة، ووقف آدم ينظر بطرف عينيه إلى محل يبيع الأيس كريم ، وعادت به عايدة إلى الخلف ؛ لتشتري له كوبًا صغيرًا من الأيس كريم .. كانت تتمنى حقًّا أن تتذوقه ، لكنها خشيت إن فعلت أن تنتهي قروشها .. ستذهب إلى البنك .. ستذهب وتأخذ بعضًا من النقود التي أخبرتها عنها هدى ـ ستشتري له دراجة ، وربما ستدعوه إلى الغداء .. ساندوتش برجر الذي يحبه الأطفال ، وربما بيتزا صغيرة وقطعة حلوى ..

هي لن تأكل أو ربما أكلت معه قطعة صغيرة من البيتزا ـ وتنهدت وهي تتذكر صناديق البيتزا ، التي كانت تدخل بيت عبدالمنعم الشيرازي ـ هي وهاشم وحتى دينا كانوا يعشقون البيتزا .

ونظرت عايدة إلى وجه آدم في دهشة .. إنها لا تتذكر البيتزا لأنها اشتاقت إليها ، بل تذكرتها لأنها تتمنى لو كان بإمكانها أن تطعمها له .

وبعد أكثر من عشرين دقيقة ، وصل الاثنان مبنى المدرسة ، وصاح آدم فرحا .. المبنى كان جميلًا نظيفًا يشبه مدرسة الحي القديم .

ودخلت عايدة معه ورحب بهما مدير المدرسة ، الذي أخبرها أنه لا يصدق أنهما يسكنان حي الـ "ناين إلمز" .. وأخذ آدم من يده الصغيرة ، وهو يعده أنه أبدًا لن يواجه في هذا المكان شيئًا مما واجهه هناك .. أخذه ليريه فصله الدراسي ، ويتعرف إلى زملائه ، بعد أن أخبرته عايدة أنها يجب أن تعود به إلى البيت ، وأنه سيحضر في الغد مع بداية اليوم الدراسي .

عايدة لم تنس أن تسأل عن مكان بنك في تشيلسي ، وأيضًا عن مكان تشتري منه دراجة وأيضًا سألت عن أسعارها وأنواعها ، وأخبرت آدم أنه وحده سيختار لونها وشكلها!!

●●●●

كل شيء استقر واستقرت ملامحه في حياة عايدة .. إنها تتحرك بجنون لكنه جنون هادئ ثابت .

في الصباح تستيقظ مع آدم وتصطحبه حتى نهاية جسر تشيلسي ، ثم تعود لعملها في مقهى شودري الذي بدأ يأتمنها على كل شيء فيه .. وفي الرابعة تذهب مرة أخرى إلى حي تشيلسي ؛ لتنتظر آدم على المقعد ذاته ، أمام النهر بجوار الجسر لتعود معه وقرب البيت تتركه ؛ لتعود إلى عملها مرة أخرى ..

آدم مازال يرفض اللعب في حي ناين إلمز ، وعايدة لا تلومه وأبدًا لا تشجعه .. هي أيضًا لا تتحدث إلى أحد في الحي ، بل تكتفي بإلقاء تحية هادئة على من بدأت تألف وجوههم .

هدأت روحها وسكنت .. كل يوم تكتب إلى هاشم ودينا .. عايدة اشترت بطاقة لجهاز محمولها فقط ؛ لتشعر بالطمأنينة على آدم إن احتاجها في أمر مهم ..

هدى تحادثها على محمولها كل عدة أيام هي ومنعم .. هاشم لا يفعل .. هاشم حادثها مرة ثم كتب إليها إنه لن يفعل .. أخبرها أنه يرى دمعًا في صوتها .. أخبرها أنه يسمع دمعًا في صوتها كلما حادثها ؛ لذا قرر أن يكتفي بالإيميلات اليومية .

عايدة هدأت .. حتى ثوراتها مع صلاح بدأت تهدأ .. عندما تتضح الصور تستقر الرؤوس .. عايدة تعلم جيدًا الآن أن «صلاح» رفاعي ما هو

إلا فلاح جاهل مغرور ، يريد أن يسحق كبرياءها تحت حذائه ؛ لأنه يعلم أن هناك مسافة كبيرة تفصلها عنه .. عايدة يكفيها أن كليهما معًا علم الحقيقة ، ولكن كليهما أيضًا أصبح مؤمنًا بحتمية بقائه في حياة الآخر .

عايدة لم يبق لها سوى هذا البيت ، وآدم أصبح عالمها ورسالتها .. وصلاح أيضًا يعلم أن عايدة تجعل حياته أسهل ، فهي لا تطلب منه شيئًا ، ولا تمانع في أي شيء يفعله .. هي ترعى البيت وترعى آدم ، وتضع كل ما تكسبه على القروش القليلة ، التي يمنحها إياها لتنفقها عليه وعلى آدم .. هو أيضًا لا ينسى أبدًا تقريعها ولومها كل آن وآخر ..

صلاح يشعر أن صفقته كانت ناجحة وأكثر نجاحًا مما تصور .. لا شيء يؤلمه ، سوى أنه مازال يرى في عينيها أطياف كرامة لا تغيب .. حتى عندما يأخذها .. حتى عندما تقاومه عايدة ، يشعر أنها تنظر إليه في ثبات بارد ، كأنها تخبره أنه ما أخذ إلا ما سمحت وحدها به .

كل شيء هادئ ثابت ، رغم أن كل شيء حزين قاتم .. حتى الوجوه التي تراها عايدة كل يوم في المتنزه ، الذي تنتظر فيه وصول آدم تقريبًا هي نفسها .. في الرابعة والربع ، سيظهر ذاك الرجل الأنيق الذي تشعر عايدة أنه يبحث عنها بعينيه كل يوم .. وحين يظهر سينظر حوله جيدًا حتى يراها ، ويتوجه إلى الجلوس على المقعد الملاصق للمقعد الذي تجلس عليه ، بعد أن يلقي عليها التحية .

لقد اعتادت وجوده ، بل إنها في بعض الأحيان تنظر إلى ساعة يدها إن تأخر دقائق ..

وابتسمت عايدة ابتسامة صغيرة ، وهي تنظر في ساعة يدها .. لقد تأخر اليوم خمس دقائق كاملة .. إنه حدث عظيم .. منذ بدأت الحضور إلى هنا ،

ومنذ أكثر من شهرين ، لم يتأخر يومًا خمس دقائق، وعادت تنظر حولها في قلق .. هل أصابه شيء؟!

ورمت عايدة بعينيها إلى النهر في دهشة ..

هل ينتابها القلق على غريب لا تعرف حتى اسمه؟!

هل تريد أن تطمئن على رجل ، لم تسمع حتى صوته في كلمات أكثر من التحية الصغيرة ، التي يلقيها على أذنيها ، كلما جاء ليجلس على المقعد الملاصق لمقعدها ..

إنها حتى لا تعرف ملامحه جيدًا .. عندما يجلس يصبح ظهره لها .. لكنها اعتادت رائحة عطره الجميل .. اعتادت حقًّا أن تشعر به يجلس خلفها .. والتفتت دون وعي تنظر إلى المقعد الملتصق بظهر مقعدها .. كان عليه امرأتان تتحدثان، وشعرت عايدة بالغيظ .. أين يجلس إن جاء؟!

وعادت تنظر إلى النهر وإلى ساعة يدها ، وهي تسأل لماذا تحنو على الغرباء؟ لماذا تقلق على كل من تعرفهم ومن لا تعرفهم .. إنها حتى أحيانًا تشفق على صلاح ، وتشعر بالقلق إن غاب هو الآخر ..

صلاح!! ونفضت رأسها في هدوء .. إلا صلاح .. لن تفكر فيه .. لن تفكر في أي شيء مما يفعله .. لو فعلت ستكرهه .. وهي تريد أن تستبقي شعورها نحوه بالإشفاق .. إنه مسكين .. من لا يعرف الحب هو كائن مسكين!

عادت عايدة ترفع عينيها تنظر بحثًا عنه ، ورأته يتقدم بخطواته ورآها، وشعرت أنه شعر هو الآخر أنها تبحث عنه، واقترب منها ، وعلى وجهه ابتسامة صغيرة ليلقي عليها التحية ، ثم قال في أدب كبير:

اتعودت أقعد على الكرسي اللي وراكي .. لكن الظاهر إن كل الناس تحب تقعد جنبك يا آنسة .. أتأخرت دقايق وتأخيري تمنه إني اتحرم من القعدة وراكي ..

وشعرت عايدة بحرج كبير ، رغم ابتسامتها ، ولم تعلم أبدًا ماذا تفعل أو تقول ، إلا أنها نهضت وانحنت تلتقط حقيبتها، ثم قالت:

اتفضل مكاني .. أنا ماشية ..

ومد كفه يصافحها قائلًا:

توني والتر ..

ونظرت عايدة إلى عينيه الخضراوين الصغيرتين وشعره الأشقر ، الذي غزته شعيرات بيضاء كثيرة .. إنه في نهاية الخمسين ، أو ربما كان في أوائل الستين .. إلا أن الرجل كان وسيمًا أنيقًا ، ومدت عايدة أصابعها الرشيقة الطويلة ؛ لتقول في ابتسامة صغيرة ، وهي تصافحه:

عايدة ..

لم تنتظر عايدة لحظة واحدة .. غادرت المتنزه بأكمله ، رغم أنها كانت تبقى فيه أكثر من عشرين دقيقة كل يوم ، حتى ظهور آدم وجلوسه إلى جوارها أكثر من نصف ساعة أخرى ، يتوجهان بعدها إلى نادين إلمز ..

شعرت بالخوف .. شعرت بالحيرة .. إنها غريبة وحيدة .. إنها لا تعلم شيئًا عن هذا المكان أو هذا البلد بأكمله .. عايدة لا تحادث الغرباء ..

لكنها عادت تتذكر ابتسامته الواسعة ونظرة عينيه الواثقة الثابتة .. الرجل لا يعني شيئًا .. الجميع هنا يتبادلون التحية والأحاديث السريعة ..

لكن ربما لأنه حقًّا وسيم وأنيق .. ربما لأنه حقًّا كان ينظر إليها في ود وإعجاب حقيقي ..

عايدة نسيت كيف يكون الود وكيف يكون الإعجاب!!

وشعرت بكفه يهز كفها ، وانتفضت عايدة في ذعر ، وهي تنظر إلى اليد التي تهز كفها ، فوجدته آدم وهو يصيح قائلًا:

عايدة .. مالك؟!

وانحنت عايدة تقبل رأسه في حنان ، وهي تقول:

آدم .. لازم أرجع .. عندي النهاردة شغل .. مش حينفع .

وسار آدم إلى جوارها ، وهو يمسك بالدراجة في يده ، وأخذ يخبرها عن يومه وعن كل ما حدث في المدرسة ، وكيف أن معلم الفصل طلب منه أن يقرأ الموضوع الذي كتبه ، وكيف امتدحه أمام كل زملائه ، وأخبرهم أن هذا هو أفضل موضوع قرأه منذ أعوام .

وابتسمت عايدة وهي تقول:

عارف يا آدم؟! أنا كنت باكتب قصص من وأنا قدك ، وفي الجامعة اتقدمت لمسابقة وكسبت جايزة .. طول عمري بافكر اكتب رواية ..

وصاح آدم قائلًا:

أنا كمان يا عايدة .. عايزاني اقرا الموضوع بتاعي .

وضمته عايدة إلى جسدها ، وهما يسيران ، وهي تقول:

ياريت .. بجد ياريت يا آدم .. هو الموضوع كان عن إيه؟!

وابتسم آدم ابتسامة صغيرة قائلًا:

عن أكتر شخصية بتحبها وليه ..

وقالت عايدة ، وهي تحاول أن تكون في مرح الصغير:

كتبت عن مين يا آدم؟!

ورفع آدم عينيه الزرقاوين الجميلتين ليقول:

كتبت عنك يا عايدة .

وتوقفت عايدة عن السير .. لم تصدق أذنيها .. لم تكن تعلم أبدًا أن عينه بدأت تراها وتشعر بها .. لم تصدق أبدًا أنه كتب عنها ، وقالت في حنان:

وليه أنا يا آدم؟!

ورأت عايدة أطياف دمعة في عينيه ، وسمعته يقول:

لأني بحبك .

وضحكت عايدة رغم الدمعة التي ظهرت في عينيها .

ثم عاد آدم يكمل قائلًا:

... لأنك عرفتِ تخليني أحبك يا عايدة .

وللمرة الأولى وقفت عايدة تنظر في عينيه ، ثم ضمته إلى صدرها في حنان بالغ ، وهي تقول:

عندك حق .. مافيش سبب أكبر من الحب يخلي الإنسان أفضل إنسان في عيون اللي بيحبه .

آدم .. أنا كمان بحبك جدًا .

****

عايدة ..

كلما رأتني أمي أتجول أمامها ، سألتني في جنون كيف أصبحت حاملًا .. في كل مرة تبكي ، وفي كل مرة أذكّرها أنني تزوجت ، وأن هذا الرجل الذي يحيا معنا هو حسن زوجي ..

حسن يعتقد أنها دومًا تنساه ، وتنسى كل ما يتعلق به ؛ لأنها لا تحبه ، ولكن وحدي أشعر أن حالتها تزداد سوءًا على سوء كل يوم ..

لا أدري ماذا حدث لنا .. طنط هدى وهاشم وأنكل منعم وماما وحسن جميعنا في قلوبنا غصة وفي عروقنا حزن .. فراقك ياعايدة ومرض أمي وعزلة هاشم وعصبية حسن وضغط الحمل والعمل يقتلوني كل يوم ..

عايدة:

أيام والد .. سأنجب ذكرًا .. سأسميه مختار كاسم بابا رحمة الله .. هو أيضًا كان يحبك كثيرًا ..

أنت أصبحت أمًا لآدم ، وأنا سأصبح أمًا لمختار ، وأحلم بيوم يلتقي فيه الصبيان ويصبحان مثلنا أصدقاء .. أحلم ياعايدة بلقائك ..

لو كنت هنا .. لو كنت معي ما أصبح أحدنا بهذا الحزن يومًا ..

قبلاتي لآدم ولكِ وقبلات حسن وماما لك وله ..

عايدة ..

ليتك معي يا صديقتي ..

«دينا»

****

كانت نجوى تطرق على باب عبدالمنعم شيرازي طرقات كثيرة متوالية في جنون ، وهي تنتفض في خوف كبير .. وعندما أطلت هدى من خلف هبة خادمة المنزل لتستطلع الأمر ، اندفعت نجوى ، وهي تدفع هبة بكفها بعيدًا عن طريقها؛ لتلقي بجسدها المرتعش بين ذراعي هدى قائلة:

منعم فين يا هدى .. هاشم هنا؟!

وضمتها هدى بين ذراعيها في حنان ، وهي تسأل:

فيه إيه يا نجوى .. فيه إيه؟!

وعادت هدى تنظر خلفها إلى باب بيتها ، وهي تقول:

مش عارفة .. مش عارفة يا هدى .. صحيت من شوية ، لقيت أصوات غريبة في البيت .. باين فيه حرامي يا هدى .. الحمد لله أن دينا نزلت الشغل.

وأطل هاشم من خلف هدى ، وهو في طريقه إلى الخروج ، وقال بعد أن سمع كلمات نجوى:

مافيش حاجة يا طنط نجوى .. دا أكيد حسن ولا يمكن مختار بيعيط ..

وقبل أن ينبس أحدهم بكلمة ، فتح حسن باب البيت ، وهو يندفع في جنون كأنه يبحث عن شيء ما ، ووقف يلتقط أنفاسه حين رأى نجوى تقف مع هدى وهاشم قائلًا:

ياخبر ياطنط خضتيني .. حضرتك رحتي فين؟!

وفي دهشة كبيرة ، نظرت نجوى إلى وجه حسن ، ثم عادت تنظر إلى هدى وهاشم من جديد ، كأنها تطلب تفسيرًا ، وأرخى هاشم عينيه ليقول في حزن:

حسن يا طنط نجوى .. جوز دينا وأبو مختار ..

ورفعت نجوى عينيها في ذعر لتقول:

مختار .. مختار جوزي؟!

وتقدم حسن نحوها في حنان ليضمها بين ذراعيه ، ونظر إلى هدى وهاشم كأنه يعتذر ، ثم قال:

لأ .. مختار حفيدك يا طنط .. نايم جوا .. تعالي .

ودخلت نجوى إلى البيت وتبعتها هدى ، بعد أن ودعها هاشم ؛ ليمضي إلى طريق جامعته ، واستأذن منهما حسن ليكمل ارتداء ملابسه هو الآخر ليلحق بعمله ، وجلست هدى بقميص نومها القطني إلى جوار نجوى ، تربت على كتفيها في حنان لتسمعها تقول ، من بين دمعات صغيرة سقطت على وجنتيها:

حتى حفيدي نسيته .. حتى جوز بنتي مش عارفاه .. طب وبعدين يا هدى .. حييجي يوم ما أعرفكيش وما اعرفش دينا .. حييجي يوم ما أعرفش أنا مين؟!

ضمتها هدى إلى صدرها في حنان بالغ ، وهي لا تعلم ماذا تقول لها .. وأقبلت صباح خادمة دينا المقيمة ، وهي تحمل كوبين من الشاي أمرها حسن بإعدادهما ؛ لتقول لها هدى في لوم كبير:

كنت فين يا صباح لما نجوى هانم خرجت من باب الشقة؟!

وأجابت صباح في صوت خفيض:

مختار كان بيعيط .. وأنا كنت بأغير له يا هانم ..

وأطل حسن من غرفته ليضع قبلة على رأس هدى ونجوى ، قائلًا في خجل:

غلطتي أنا يا طنط هدى .. دينا قفلت الباب بالمفتاح ، بس أنا فتحته عشان كان الجرنال لسه ما جاش ونسيت أقفله ..

وأرخت هدى عينيها في حزن ، وهي تنظر إلى وجه نجوى الباكي .. أصبحت نجوى كالأطفال .. أصبحوا يغلقون باب البيت ويوصدونه بالمفتاح ؛ خوفًا من أن تنسى وتخرج ، دون أن تخبرهم أو تخرج وحدها ، وتنسى كيف تعود .

مدت هدى أصابعها تلتقط أحد أكواب الشاي .. أعطته لنجوى ، وقالت:

هاتي مختار يا صباح مادام صاحي .. هاتيه أصبح عليه أنا ونجوى ..

وحملت هدى «مختار» الصغير بشهور عمره القليلة بين ذراعيها ، وهما يتبادلان القصص والذكريات .. نجوى تصر أن «مختار» الصغير يشبه «مختار» حقًّا وهدى تداعبها ، وهي تقول إنه يشبه «حسن» لتغضب نجوى وتهدأ ، ثم تثور من جديد ..

ونظرت هدى إلى وجه مختار الصغير في حنان .. ستمضي الأيام .. ستمضي الأعوام ، ولكن هل ستكون هدى بكامل وعيها ، عندما يصبح لهاشم ابن مثل مختار .. ليس الموت ما يخيفها .. هدى أحيانًا تخشى أن يصيبها الزهايمر كالذي أصاب نجوى ، فتصبح بلا ماض أو ذكريات ..

ضمت هدى «مختار» إلى صدرها ، وأغمضت عينيها ، وهي تدعو الله أن يحفظ لها كل من تحبهم ، ويحفظ دومًا قدرتها على أن تعرفهم وتذكرهم ، وتغلق حولهم ذراعي حبها وحنانها طوال العمر!!

****

جمع هاشم كل كتبه الدراسية في صندوق صغير من الكرتون .. انتهت امتحاناته جميعها، ومن الغد سيبدأ في الذهاب إلى مكتب الدكتور عبدالمنعم صادق ـ من الغد سيبدأ في الانتظام بمكتب أبيه .. بعد ظهور النتيجة ، سيصبح الأستاذ «هاشم صادق» .. هو يعلم أنه سينجح ـ هو يعلم أنه سيحصل أيضًا على تقدير مُرض .. ربما لن يكون «امتياز» ، ولكنه أيضًا لن يكون «مقبول» ـ سيتمكن من استكمال الدراسات العليا .. لن يخذل هدى أو «منعم» أو عايدة ..

عند ظهور النتيجة ، سيسافر في رحلة إلى باريس ، وسيعرج على لندن لزيارة عايدة .. نعم سيزور اليمامة التي اشتاق إليها .

مازال يحبها وسيبقى ..

هدى كانت تظن أنه سينسى قصة عشقه بعد زواجها وسفرها ـ لكنه لم ينس ولم يحاول ـ ولِمَ يحاول؟! نحن قد نحاول أن نجد حلًا لمشكلة .. نحن قد نحاول أن نجد نهاية لألم .. ولكن عايدة في قلبه لا هي مشكلة ولا كانت يومًا ألمًا ..

إنها حلم .. إنها حب ينير دروب أيامه .. كل ما فعلته هدى أنها حولت ذاك الحب الكبير إلى حب أكبر .. لكنه حب بلا مستقبل .. بلا أمل ..

هاشم لا يحتاج الأمل .. هاشم يرى المستقبل بوضوح .. سيصبح أستاذًا في القانون .. سيدرس في الجامعة .. سيمارس مهنة المحاماة مع والده .. سيتعامل مع كل الشركات الكبيرة ، والتي يدير عبدالمنعم شئونها القانونية.

هاشم سينجح .. هاشم سيلمع اسمه إلى جوار اسم عبدالمنعم صادق ..

هاشم يرى المستقبل وسيبقى يحبها ، ويكتفي منها بهذه الإيميلات الرائعة التي يتبادلانها معًا كل يوم .. هذا يكفيه .. وهذا كل شيء .

نهض هاشم ينظر من خلف زجاج نافذته إلى حدائق الميرلاند ، وأطرق برأسه قليلًا كأنه يسأل نفسه .. هل هذا حقًّا كل شيء؟!

هدى لن تهدأ .. هدى تريده أن يتزوج .. تريده أن ينجب .. منذ ولادة دينا وهدى لا تترك يومًا يمر عليهم ، دون أن تقول إنها تتمنى أن تحمل ابنه هو الآخر بين ذراعيها .. هدى في كل يوم تسأله عن الفتيات .. كل يوم ترشح له اسمًا ، وفي كل يوم تطلب منه أن يلبي دعوتها لزيارة عائلة فلان أو فلان ليرى بناتهم ، ويختار إحداهن للزواج .

وانطلقت آهة كبيرة من صدره ، استدار هاشم بعدها ليخرج من غرفته ويتوجه إلى غرفة عايدة وأشعل ضوءها ، ثم وقف يرقب فراشها في حنان .. اشتاق إليها .. كما لم يعرف قلب الشوق يومًا .. مازال يشتم رائحتها في هذه الغرفة .. مازال وجهها الأبيض الرقيق يطل من على الوسادة ليلوح له في حنان ..

وجلس على حافة فراشها يرقب الوسادة .. كان هاشم يحلم أن يجمع رأسيهما وسادة واحدة يومًا ما ، ولكن أصبح لعايدة وسادة أخرى تضع رأسها عليها .. وسادة اسمها صدر صلاح .

ترى هل هي سعيدة بوسادتها .. لا يعلم .. عايدة لا تتحدث أبدًا عن صلاح .. هي فقط تتحدث عن آدم .. عن الدكتور توني ، الذي تعرفت إليه في متنزه تشيلسي .. تتحدث عن عملها .. عن شوقها إليه وإلى هدى ومنعم ودينا وطنط نجوى وحسن .. لكنها أبدًا لا تتحدث عن صلاح .

هو أيضًا لا يحب الحديث عنه .. هاشم مازال لا يعترف به .. هاشم مازال لا يصدق أن هناك رجلًا تغفو على صدره عايدة كل ليلة .. هاشم لا يصدق أبدًا أن شفتي عايدة الوردية المكتنزة تضمها شفتا ذاك الأسمر الغليظ القلب والشفاه .

وانطلقت آهة أخرى كبيرة من صدر هاشم .. يجب أن يصدق .. لا لشيء ولكن لأنها الحقيقة .. يجب أيضًا أن يبدأ في التفكير بالزواج .. نعم .. يجب أن يتزوج هو الآخر .. الزواج شركة يقيمها طرفان يقتسمان بعدها السكن والأطفال والفراش .. شريكان يقتسمان كل شيء .. كل الأشياء التي لم يستطع هاشم أن يقتسمها مع عايدة .. يجب أن يقتسمها مع امرأة أخرى .

شيء واحد لن يقتسمه مع سواها .. شيء واحد لن تراه المرأة التي سيتزوجها ولن تشعر به .. شيء واحد لم يعد حتى هو نفسه يملكه ليقدمه إلى سواها .. دونه يمكن أن يتزوج هاشم ، ودونه أيضًا يمكن أن يحيا وينجب ويسعد هدى و«منعم» .

دون هذا الشيء أكمل هاشم ما يجاوز العام على رحيل عايدة دون خسائر .. دون هذا الشيء أنهى اختباراته ، ودونه سينجح وسيكمل حتى الدكتوراه .. شيء صغير ستحتفظ به عايدة وحدها ، دون حتى أن تعلم أنها سيدته الوحيدة .

نعم .. سيبقى هذا الشيء من حق عايدة وحدها .. عايدة صابر ستبقى سيدة قلبه حتى اللحظة الأخيرة من عمره!!

****

هل كل نساء الشرق مثل عايدة؟! .. هل لهن جميعًا هذه الرقة وهذا الحنان؟! .. هل تسكن رؤوسهن جميعًا عقول متفتحة لها ثقافة عايدة؟! .. هل حقًّا هن جميعًا بهذه الكبرياء؟!

لا يعلم ولا يصدق .. كان له خبرات مع نساء ، جئن من الشرق في أعوام شبابه البعيد .. لا يذكر توني من ملامحهن الكثير .. ولكن أبدًا ما كانت إحداهن مثل عايدة ..

وعاد توني يبتسم ، وهو يرقب نهر التايمز ، الذي يسير أمام المقعد الذي يجلس عليه في هدوء .

جاء اليوم مبكرًا .. ولكنه دومًا يأتي .. منذ بدأت بينهما تلك الصداقة على هذا المقعد وهو دومًا يأتي .. أحدهما ينتظر الآخر .. هذه الشابة الرقيقة رائعة الجمال أخذت قلبه بحنانها وطهارتها .. حتى آدم أصبح قطعة من قلبه .. أصبح توني يحبه حقًّا ، مثلما يحب بيتر حفيده الوحيد ..

مد توني أصابعه النحيلة يتحسس قطعة الشيكولاتة الكبيرة ، التي خبأها في طيات ملابسه .. إنه يشتريها لآدم من وقت لآخر .. عايدة أخبرته إنها لا تحب الشيكولاتة ، وأخبرته أنها لا تتناول سوى الساندوتش الصغير ، الذي تخرجه من جيبها لتأكله كل يوم ، قبل عودتها إلى المقهى الذي تعمل فيه .

كم مرة دعاها إلى تناول الغداء معه .. لكنها دومًا ترفض في رقة .. مرة أحضر لها ولآدم صندوقًا كبيرًا من البيتزا ليأكلوه جميعًا .. ترقرقت عيناها

بالدمع يومها ، وهي تشكره لأنها أرادت زمنًا أن تشتري لآدم البيتزا ولم تستطع .

عايدة تعلن أنها لا تستطيع ، ولكنها أيضًا أعلنت في وضوح حاسم أنها أبدًا لن تقبل المزيد .. ابتسمت عايدة يومها من خلف أطياف الدمعة، التي رقصت في عينيها ، وهي تخبره أنها يوم تحصل على عمل له أجر كبير، ستدعوه هو وآدم إلى العشاء في المكان الذي يختاره هو .. ولكن اليوم لن يتركها ، إلا بعد أن تقبل دعوته لها هي وآدم لحضور حفل عيد ميلاد حفيده بيتر في الغد .

ورآها تقبل نحوه كعادتها كل يوم .. كانت ترتدي بولونيك في لون زيتونة يونانية شهية .. كانت ترتدي بنطلونًا من الجينز الأزرق الفاتح ، وفي يدها حقيبتها البيضاء .. إنها جميلة .. شعرها الأشقر الداكن الناعم الذي يرتفع فوق رأسها، ثم يقف على حدود عنقها الأبيض الطويل رائع .. عايدة دومًا جميلة ورائعة .

وأفسح لها توني لتجلس إلى جواره ، بعد أن ألقت عليه التحية ، ثم قالت:

عامل إيه النهاردة يا توني؟!

وابتسم ، وهو يضع ذراعه حول كتفها في حنان:

هايل .. عندي خبر حلو ، عايز أقولك عليه بس لما آدم يوصل .

ومدت عايدة يدها إلى حقيبتها ، لتخرج منها الكتاب الذي أخذته منه منذ أيام ، وهي تقول:

شكرًا .. أنا خلصته امبارح يا توني .. مش قادرة أقولك قد إيه جميل .

ومد توني كفه النحيل ليقول:

عايدة .. ممكن تحتفظي به لو عايزة .. أنا عندي روايات سيدني شيلدون كلها .. يعني ممكن..

لكنها قاطعته قائلة:

من فضلك .. عشان أقدر أقولك تاني ..

وقبل أن يجيب توني بكلمة ، صاحت عايدة قائلة:

عارف .. أنا بكرة حاجيبلك ديوان شعر لنزار قباني أو كامل الشناوي ، وأقرا واترجملك عشان تعرف قد إيه إحنا عندنا شعراء هايلين .

وأقبل في تلك اللحظات آدم ليهبط عن دراجته ، ويقبل توني وعايدة ، ثم جلس إلى جوارهما ؛ حيث منحه توني الشيكولاتة ليفتحها في لهفة كبرى .. ورغم نظرة عايدة العاتبة ، إلا أنها لم تستطع أن تقول شيئًا سوى أن تشكره.

وفجأة وبدون مقدمات ، قال آدم كأنه لا يطيق الانتظار:

عايدة .. هو أنا ليه مسلم؟!

ورغم أن السؤال فاجأ عايدة كثيرًا ، إلا أنها قالت في هدوء:

لأن باباك مسلم .

وعاد آدم يقول في صوت خفيض:

أنت مسلمة يا عايدة مش كدا؟

وأومأت عايدة رأسها بالإيجاب ، وقال الصغير:

أنا مش عايز أكون مسلم ، ومش عايزك أنتي كمان تكوني مسلمة .. مش كدا يا توني؟!

ونظر توني إليها في دهشة .. كلمات آدم فاجأته كثيرًا ، وهو يعلم أن الحديث في الأديان حديث شائك .. إلا أنه قال في صوت هادئ:

ليه يا آدم؟! ليه مش عايز ديانة أبوك وديانة عايدة؟!

وقضم آدم قطعة من الشيكولاتة ، ثم قال بعد تردد قصير:

كل أصحابي بيقولوا المسلمين وحشين .. أمي كمان كانت بتقول إن صلاح وحش لأنه مسلم .. أنا مش عايز أكون مسلم .. عايز أكون زيك وزي أمي وكل أصحابي .. مش عايز أكون أبدًا زي صلاح يا عايدة ..

وعاد توني ينظر إلى وجه عايدة الذي تلون .. إنها المرة الأولى التي يتحدث فيها الصغير معلنًا كراهيته لأبيه ولديانة أبيه .. المرة الأولى التي يعلن فيها أن زوج عايدة وديانته شيء يكرهه آدم ، رغم أنه يتحدث عن والده وعن ديانته هو أيضًا .

ورمت عايدة بعينيها إلى النهر لحظات ، ثم قالت:

طول عمرنا في مصر وفي العالم العربي كله بنقول إن العربيات الرولز أحسن وأقوى عربية .. أنا كنت أسمع إن اللي يركب رولز مش ممكن يحس بمطب أو يجراله حاجة بسهولة .. لكن رغم كدا يا آدم في ناس كتير ماتت بحوادث ، وهي راكبة عربيات إنجليزي .. ياترى يصح نقول إن الرولز هي السبب ، أو نقول لو كان راكب عربية أمريكاني مش حيموت؟! أبدًا العيب مش في العربية .. العيب في اللي سايقها .

صلاح والمسلمين اللي بيكدبوا ويسرقوا ويقتلوا كمان هما اللي أنت مش لازم تكون زيهم .. لكن الإسلام زيه زي المسيحية .. كلها أديان ربنا .. كلها يا آدم رسائل حب وسلام للأرض والبشر .. الإسلام دين مافيهوش غلطة وبيطلب مننا نبعد عن الغلط .. وبرضه لما بنغلط ، بيقول توبوا وربنا

حيسامحكم لو كانت ذنوبكم أكبر من النهر دا .. كون صلاح ما فهمش دا ما يقاش عيب في الدين .. لا دا عيب في الشخص نفسه .

وعاد آدم يقول:

لأ .. صلاح بيكدب على طول وبيشتم ، ومستر عدنان ظلمني النهاردة وعاقبني لأني مارضتش أفتن على صاحبي ، ولما قلتله إن الفتنة غلط قالي إن الغلط الأكبر إني أخبي الحقيقة على المدرس .. عاقبني .. عارفة ليه؟ مستر عدنان دا أصله مسلم .. الإسلام هو اللي خلاه يظلم ويكدب زي صلاح..

ومدت عايدة ذراعها لتحتضن آدم في حنان قائلة:

أنا عمري كدبت .. عمري يا آدم .. صحابي اللي حكتلك عنهم عمرهم كمان ما عملوا حاجة وحشة .. ماما هدى اللي ربتني بعد أمي ما ماتت مسلمة ، وعملت كدا عشان الإسلام بيطلب منا نساعد بعض .

صدقني يا آدم الإسلام هو اللي اتظلم بالمسلمين ..

وأطرق آدم برأسه لحظة ، ثم قال:

يعني أنت يا عايدة قعدتيني معاكي عشان الإسلام .

وابتسمت عايدة ابتسامة صغيرة ثم قالت:

لأ .. أنا قعدتك وكنت مستعدة أخرج وراك ، لو صلاح مارضيش عشان بحبك .. بس الإسلام هو اللي علمني الحب .. هو اللي عرفني قيمته .. آدم من بكرة حاول تصلي معايا .. عارف؟! كل يوم حاعلمك آية من القرآن وحاشرحها لك وشوف أنت كلام ربنا بيقول إيه .. دا كل كلمة فيه كلمة حب .

وبعد لحظات عاد آدم يقول:

يعني ربنا في الإسلام مش بيقول للناس يقتلوا ويكدبوا؟!

وعادت عايدة تقول بعد لحظة:

لأ .. تصدق بقى يا آدم إن ربنا في الإسلام حلل الكدب .

وعقد توني حاجبيه ، وهو يسمع كلمات عايدة ، التي عادت تكمل في صوتها الرقيق قائلة:

ربنا حلل الكدب وطلبه من المسلمين في حالة واحدة .. لو حد حيأذي مسلم أو يقتله عشان هو مسلم .. ربنا بيقوله اكدب قول إني مش مسلم قول إني كافر ومش بحب ربنا .. عارف ليه؟ عشان يعيش .. عشان ما يتأذيش وعارف ليه برضه؟! عشان ربنا بيحبه .. بيحبه أكتر ما يحب إنه يقول إنه مسلم .. ربنا دا حكاية حب كبيرة ، والإسلام هو سطورها وحروفها .. من بُكره أنت حتصلي معايا ، ومن بُكره كل يوم حاقرا معاك سورة أو آية في المصحف وأشرحها لك .

وابتسم توني في فرحة صادقة .. إنه سعيد بعايدة .. سعيد بنقائها .. سعيد بحبها لديانتها وثقتها فيها ، وقال في حنان:

دانا كمان يا عايدة عايز أسمع مع آدم .. كل يوم تقريلنا شوية من القرآن وتشرحي .. على فكرة يا آدم ، أنا عندي كتاب بيتكلم عن الإسلام وعن القرآن حاديهولك تقراه .. أنا نفسي معجب بالإسلام جدًا .. زمان ما كنتش معجب بالمسلمين ، لكن من يوم ما شفت عايدة وشفتك بقيت بحبهم .

وعادت عايدة تمسح على شعر آدم الناعم لتقول:

لو صلاح غلط هو وناس كتير مش فاهمة الإسلام صح .. واجبك انت إنك تفهم وتخلي الناس تحبه .

من بُكره يا آدم اتفقنا؟!

وقبل أن يجيب آدم ، صاح توني قائلًا:

بُكره لأ يا عايدة إلا بُكره .. بُكره انتي وآدم معزومين عندي في البيت .

ورفعت عايدة عينيها الخضراوين ، وقبل أن تعترض صاح توني:

أوعي تقولي كلمة .. بُكره عيد ميلاد بيتر حفيدي يا آدم اللي كلمتكم عنه .. كريستين مراتي كمان عايزة تشوفك .. زي دلوقتي حتلاقي هنا السواق بتاعي مستنيكم .. لأني حاكون في البيت .. اسمه بيل .

ورغم الحيرة التي كست وجه عايدة ، إلا أن سعادة آدم لم تدع لها كلمات سوى القبول ..

لم تكن تتصور يومًا أنها ستدخل بيت توني ولكن لم لا .. إنها حقًّا تحبه وتثق فيه .. مضت شهور طويلة على صداقتهم ، فلم التردد إذن .

وعاد آدم يتحدث مع توني ، يسأله عن بيتر وعن الحفل ، وإن كان هناك أطفال آخرون سواه ، وهل بإمكانه أن يلعب معهم .. كانت عايدة تسمع كلماتهم ولكن لم تكن تشارك بالحديث .. كان رأسها مشغولًا بأسئلة أخرى لا يعلمها توني أو آدم ..

عايدة كانت تفكر من أين تأتي بنقود تشتري بها هدية لبيتر .. وأيضًا كانت تفكر في قضية أكبر .. عايدة كانت تسأل هل تخبر «صلاح» أم تكتم عنه الخبر .. إنها لم تخبر «صلاح» يومًا عن توني ولا حتى آدم أخبره .. هناك اتفاق صامت قام بين عايدة وآدم .. اتفاق يقول إنه لا مكان لصلاح أبدًا في قصصهم .. في أحاديثهم واتفاقاتهم .. آدم لا يتحدث مع صلاح إلا نادرًا ، وصلاح لا يحادثه إلا إذا كان يصرخ في وجهه ، إن وجده بداخل الحمام يومًا ، أو رآه يشاهد التليفزيون في عطلة نهاية الأسبوع .. وحدها عايدة التي تطلب منه أن يريه واجباته وتقاريره الدراسية ليوقعها صلاح بنفسه .. كانت

تتمنى لو يشعر صلاح بتفوق آدم الدراسي ، علّه يفخر به ويحنو عليه ، إلا أن أمانيها ذهبت أدراج الرياح .. صلاح ألقى منذ شهور تقرير المدرسة الرائع في وجهه، وأقسم أنه سيمزقه في المرة القادمة .. صلاح لا يهمه كثيرًا أو قليلًا أن يرى أو يكتب أي شيء له علاقة بآدم .. قال له يومها إنه يكفيه عايدة لتكتب ولتقرأ معه ما شاءت ، وليبتعدوا جميعًا عن طريقه .

صلاح يزداد دناءة معهم كل يوم .. وكأنه يجن أكثر ، كلما رأى عايدة تلتصق بآدم وتحبه أكثر ..

كأنها ليست زوجته ، وكأنه ليس أبدًا ابنه الوحيد!

وأفاقت عايدة على صوت آدم ، وهو يقول:

عايدة .. أنت مش سامعة توني بيقول إيه؟!

ابتسمت عايدة كأنها تعتذر لتسمع توني يقول:

لازم أرجع المستشفى حالًا .. في حالة طارئة ..

عايدة أنا مش عارف أشكرك قد إيه .. أنا حقيقي استمتعت جدًا بكلامك عن الإسلام!

وقبل أن يمضي ، عاد يقول:

بُكره الساعة اتنين الضهر بيل حييجي ياخدكم من هنا ..

ما تتأخروش!!

ومضى توني وعادت عايدة تفكر!

●●●●

نظرت عايدة في هدوء إلى وجه صلاح ، الذي كان يرتشف كوب الشاي، وهو يرمقها بعينيه .. كان واضحًا أنه يشعر أن لديها شيئًا ما تريد قوله .. حتى آدم كان يرقبه من على الأريكة ، التي يجلس عليها ، وكأن شيئًا ما يدور في رأسه ، وبعد لحظات من الصمت قال:

إيه .. حتعملوا إيه النهاردة؟!

وابتسمت عايدة ابتسامة صغيرة ، نظرت بعدها إلى وجه آدم قائلة:

آدم معزوم على عيد ميلاد وأنا حاوديه .

وحلق صلاح في وجه آدم ، الذي أرخى وجهه ليعبث في جهازه الصغير، الذي لا يفارق أصابعه ، مادام صلاح في البيت ؛ ليسأله صلاح في تهكم:

بقالك صحاب وبيعزموك .. دا فين دا؟!

ورفع آدم وجهه ينظر إلى عايدة كأنه يستغيث بها ـ هو لا يعلم ما الشيء الذي يمكن أن يقوله، دون أن يثير غضب صلاح ، وعادت عايدة تقول:

في تشيلسي .. أنت عارف معظم الولاد اللي معاه ساكنين هناك ..

وألقى صلاح بكوب الشاي من يده على المنضدة السوداء ليقف قائلًا:

كل ويك إيند تخرجوا وكمان أعياد ميلاد .. والله فلوسك كترت يا عايدة .. هو شودري رفع ماهيتك!

ولم ترد عايدة ، إلا أن «صلاح» أخرج لها بعض الجنيهات ليلقيها على المائدة قائلًا:

مصروف الأسبوع ـ حاولي تأكلينا كويس .. أنا نازل .

قبل أن يمضي التفت لينظر إلى وجه آدم مرة أخرى ، ثم سأله:

هي أمك ما ظهرتش؟!

ورفع آدم وجهه لينظر إلى صلاح ، في ألم ، لتقول عايدة في رنة لوم:

حتظهر إزاي بس يا صلاح .. هو فيه إيه؟

ومضى صلاح إلى باب البيت ، وهو يتمتم بكلماته اليومية الغاضبة ، والتي كثيرًا ما تشكر عايدة ربها ؛ لأنه دومًا يقولها بالعربية ..

ونهضت عايدة عن مقعدها ، بعد أن صفق صلاح الباب خلفه لتمضي وتجلس إلى جوار آدم ..

كان آدم مازال حزينًا بعد كلمات صلاح .. كان دومًا يشعر أن «صلاح» يهين أمه ، ويتحدث عنها بطريقة دنيئة . ورغم أنه لا يفهم كلماته العربية ، لكنه كان يشعر بذلك ويشعر به أكثر عندما يرى عايدة تتألم .. وشعر بذراعي عايدة يلتفان حول كتفيه الصغيرين ، ولم يستطع أن يقاوم .. سقطت دموعه ليلقي برأسه على صدرها قائلًا:

ماما وحشتني جدًا يا عايدة .. تفتكري حاشوفها تاني؟!

وانحنت عايدة تقبل رأسه الصغير قائلة:

أكيد يا آدم .. ما فيش أم تستحمل بُعد ابنها .. أكيد حترجع ..

ورفع الصغير عينيه ليقول:

عايدة .. أنا أمي ماسافرتش وسابتني .. ماما بتحبني .. أنت ما تعرفيش الحكاية .

وفي هدوء ، أرخت عايدة ذراعيها من حوله لتنظر في عينيه ، وقالت في ذهول:

إيه؟! مامتك لسه هنا في إنجلترا .. إيه الحكاية يا آدم ..

كأن آدم أفاق على أسئلة عايدة .. كأنه أفاق وتذكر ما قاله ، والذي ما كان من المفروض أن يقول .. فأرخى عينيه من جديد ليقول:

مش حاقدر أقول حاجة .. أنا وعدتها .. مامي حترجع يا عايدة .. حترجع وتاخدني من هنا ..

وضمته عايدة في لهفة .. يؤلمها أن تعود .. يؤلمها كثيرًا أن يرحل آدم .. يؤلمها .. ولكن عايدة اعتادت أن تكون أكثر الأشياء التي تؤلمها هي أكثر الأشياء التي يتمناها ويسعى إليها كل من تحب ، وفي هدوء قالت:

آدم .. لو في أي وقت عايز تقوللي أو حتى عايزني آخدك عندها أو أكلمها .. تأكد أني مش حتأخر .. أنا عايزاك تبقى سعيد ، وعارفة إن مافيش حاجة تسعد قد حضن الأم ..

وأغمض آدم عينيه من جديد .. إنه لا يعلم .. إنه ممزق يتمنى لو يخبر عايدة ، ولكنه أبدًا لن يخذل ماري أمه .. لن يحنث بقسمه لها .

ماري ستعود .. وعاد آدم يفتح عينيه ؛ لينظر إلى عيني عايدة الجميلة في خوف واضح .. ليته لم يحبها كل هذا الحب .. إن عودة ماري تعني فراق عايدة .. هو لا يريد أن يفارق عايدة ، ولكنه أيضًا لا يريد أن يُحرم من ماري.

ورأت عايدة في عينيه الخوف ، كأنها فهمت ما يدور في رأسه الصغير .. كأنها شعرت أن ذاك الألم يشق صدريهما معًا .

فقالت بابتسامة صغيرة مكسورة:

تعالَ ننسى كل حاجة دلوقتي .. قوم نشوف حنلبس إيه ، مش عايزين نتأخر على توني .. يللا يا آدم .

بعد أن أنهت عايدة أعمال المنزل جميعها ، أخبرت آدم أن الموعد حان ليستعدا .

ونهض آدم ليتبع عايدة ، وهي تدخل غرفة البيت الوحيدة حيث وقفت تعبث في ملابسه .. إنها جميعًا نظيفة لكنها بسيطة .. كم تتمنى لو تشتري له ثيابًا أغلى مما يملك ، ولكن ما عساها تصنع .. إنها أقل حيلة منه .. واختارت له عايدة بنطلونًا من الجينز الأزرق وتي شيرت بيضاء .. مازالوا في أوائل يوليو ومازال الجو دافئًا ، رغم نسائم المساء الباردة ، ووقفت عايدة لحظة تفكر في كلمات آدم عن والدته .. هل تنوي ماري العودة حقًّا لأخذه .. واستدارت تنظر إلى آدم في لوعة ، تتمنى لو تعلم منه الحقيقة .. لن تحتمل فراقه أبدًا ، لكنها عادت ترخي عينيها في صمت .. هي تعلم أنها إن ألحت قد يخبرها ، ولكن يجب أن تساعده على الاحتفاظ بوعده الذي قطعه لأمه .. لا داعي أبدًا ، لأن تتعجل عايدة الألم .. فليأتها الألم في موعده .

وأخرجت لنفسها ثوبًا أسود ، عليه دوائر صغيرة بيضاء وفي نهايته شريط من الكروشيه الأبيض الرقيق ، وطلبت من آدم أن يرتدي ملابسه ، ثم عادت تخلع ملابسها لترتدي الثوب ، الذي وقف على كتفيها بقصة صدره المربعة .. الثوب لا أكمام له ، ويقف على جسدها بشريط عريض من الكروشيه الأبيض كذلك الذي يلتف حول ذيله ، والذي يقف على حدود ركبتيها البيضاء الجميلة .. ومشطت عايدة شعرها الناعم ، ثم وضعت مسحة من لون وردي على خديها ، ومرت بقلم شفاهها الوردي على شفاهها المكتنزة .. إنها جميلة .. وذراعاها البيضاوان العاريتان أيضًا جميلتان .. لم لا يرى صلاح جمالها أو يقربه .. لا يمكن أبدًا أن تكون مرآتها كاذبة .. إنها حقًّا جميلة ..

عيناها العميقتان ، واللتان تطل من داخلهما دومًا دهشة كدهشة نظرات الأطفال .. حاجباها معتدلا الكثافة .. جبهتها الهلالية وغمازة خدها الأيسر العميقة .. هل يرى صلاح كل هذا قبحًا ، يبيح له قسوة معاملته لها .. لا .. إن لقسوة صلاح أسبابًا أخرى .. وشعرت بكفه تهز كفها كعادته ، وعادت تنظر إلى وجه آدم الرقيق الجميل ، وتنهدت عايدة كأنها تلوم نفسها .. إن كان صلاح لم ير أو يشعر بجمال هذا الصغير ، الذي هو قطعة منه ، فكيف كان يمكنه أن يشعر بعايدة أو جمالها .. وانحنت تخرج سبادريل أبيض ، وضعت عايدة قدميها فيه ، وأخرجت لآدم حذاءه الجلدي الأسود ، الذي جاء به مع أمه .. وحين اختفى آدم بعيدًا ليرتديه ، عادت عايدة تنظر إلى المرآة ، وهي تمشط شعرها ، الذي يعلو فوق رأسها ، ثم يقف على نهايات عنقها .

إنها بحاجة إلى زيارة كوافير، ولكن مازالت لاتعلم كيف توفر ثمنه .. بالأمس استدانت جنيهات من شودري ليخصمها من حساب الأسبوع القادم ، واشترت بها لعبة صغيرة لبيتر .. وعادت عايدة ترتدي قرطًا من حبة لؤلؤ صغيرة ، على كل أذن ، ورشت زخات من قوارير عطرها القديمة .

وسحبت من صدرها نفسًا عميقًا ، وهي تنظر إلى آدم الذي عاد يقف أمامها وهي تبتسم .. إنه أجمل منها وهي أيضًا أجمل منه، ولكن كلاهما في صدره خوف وحزن لا يعلمهما أحد ..

وأخرجت حقيبتها ، التي خبأت فيها هدية بيتر ، وأمسكت بكف آدم بين أصابعها البيضاء الرقيقة ، وأغلقت مفتاح الضوء ، وسارت معه إلى جسر تشيلسي استعدادًا لموعد توني وحفيده بيتر .

****

شهقة صغيرة خرجت من شفتي عايدة ، عندما رأت بيل يفتح لها باب البنتلي السوداء .. كانت تعلم أن توني ثريًا .. عمله كجراح كبير في أحد أكبر مستشفيات تشيلسي يجعل منه ثريًا .. ملابسه الأنيقة والتي تحمل دومًا علامات وحروفًا صغيرة لبيوت أزياء كبيرة أيضًا كانت تعلن ثراءه ، ولكنها لم تكن تتخيل أنه يمتلك البنتلي ، وأن يكون لديه أيضًا سائق مثل بيل ، الذي كان يبدو في قمة الأناقة والرسمية .

وأشار بيل بيده الموضوعة في قفازات بيضاء نظيفة إلى آدم بالدخول إلى جوار عايدة من الباب الخلفي ، إلا أن آدم قفز من الباب ذاته الذي دخلت منه عايدة ، ليغلق خلفهما بيل الباب في ابتسامة صغيرة .

كانت عايدة ترقب بعينيها الشوارع التي أخذت السيارة تطويها .. كل شيء أنيق جميل .. حدائق كثيرة أمام كل البيوت التي مشت أمامها السيارة..

أشجار كثيفة عالية وأزهار ملونة جميلة .. كل شيء في تشيلسي يقول إنهم حقًا في إنجلترا .. إنهم حقًا في أوروبا .. مضى أكثر من عام على عايدة في لندن ، ولم تخرج فيه من حي نايت إلز المرير، إلا إلى حي تشيلسي في المتنزه الذي تنتظر فيه آدم كل يوم .. إنها حقًا تتمنى لو تذهب إلى كل الأماكن ، التي قرأت وسمعت عنها ، ولكنها دومًا تفكر في النقود التي ستحتاجها للمواصلات إلى أي مكان .. إن قروشها قليلة وأعباءها كثيرة، وصلاح أصبح يقذف لها كل أسبوع بثمانين جنيهًا فقط ، تضعهم عايدة على المائدة

التي يمنحها إياها شودري ، وبالكاد تكفي طعامهم وشرابهم وثمن تنظيف ملابسهم الأسبوعي .

أفاقها صوت آدم ، وهو يهز كفها كعادته قائلًا:

عايدة .. وصلنا .. شوفي توني عايش فين؟!

وأسرع بيل يفتح لها باب السيارة ، لتهبط منها عايدة ، وهي تنظر حولها في ذهول .. البيت كبير ويكاد يكون قصرًا .. وحوله حديقة كبيرة حتى السيارات القليلة ، التي تقف أمام بابه لا تقل جمالًا عن سيارة توني .

إنها لا تصدق أن توني بهذا الثراء أبدًا .. ورفعت عينيها تنظر إلى بيل ، وشكرته في عبارات رقيقة كثيرة .

ابتسم لها بعدها بيل في صفاء ، وهو يقودها إلى داخل الحديقة ، التي كانت تضج بصياح أطفال ولهوهم .. وفي الطريق، كانت عايدة تنظر من جديد إلى ملابس آدم البسيطة ، وإلى الهدية الصغيرة التي كانت تضمها بين أصابعها ، وشعرت بخجل شديد يجتاح رأسها حتى أنها فكرت أن تعود ، ولكن كيف تشرح لآدم ما يدور برأسها .. وأفاقها آدم بصياحه:

توني .. هاي .

وأقبل توني يضم آدم في حنان ، وهو يصيح:

بيتر .. بيتر تعال .. آدم وصل .

وأطل بيتر .. تعلم عايدة أنه في حوالي الثانية عشرة من عمره .. لكنه بدا في عيني عايدة في سن آدم .. جسده النحيل ونظاراته المستديرة الصغيرة وشعره الأشقر الناعم .. فيه الكثير من جمال آدم وبراءته .

وقف بيتر يصافح آدم ، واقتربت عايدة منه في حنان ، وهي تراه ينظر إليها من خلف نظارته الصغيرة في ذهول كبير ، لا تعلم سره إلا أنها مدت يدها

إليه بتلك السيارة الصغيرة الرخيصة ، التي استدانت ثمنها من شودري، وقالت في صوتها الرقيق:

كل سنة وأنت طيب يا بيتر .. أنا وآدم جبنا حاجة صغيرة .

وقبل أن يجيب وقبل أن يفتحها .. انحنت عايدة عليه تضمه إلى صدرها، وشعرت به يضمها ويشكرها في أدب كبير ..

وصاح آدم مشيرًا إلى بعض الألعاب الموضوعة في فناء المنزل ، وأخذه بيتر بعيدًا عن عايدة ، التي أمسك توني بيدها ، وسار بها إلى داخل البيت الكبير ، وهو يقول:

شكرًا يا عايدة إنك جبت آدم وجيتي .. تعالي .. تعالي أعرَّفك بكريستين.

هذه المرة كانت شهقة عايدة أكبر .. كانت شهقة لم تستطع أن تكتمها في صدرها ، عندما وقفت في بهو البيت ، تنظر وتنتظر استدعاء توني لزوجته .. البيت رائع .. كل ما فيه من الخشب الإنجليزي القديم ، حتى أرضياته من خشب الأرو وكل أقمشته من اللون الأبيض .. واجهة الريسيبشن كلها من الزجاج المطل على حديقة البيت الخلفية ، والتي يتوسطها حمام سباحة كبير جدًا ، يظلله الكثير من شجر رائع ، تتدلى منه زهرات صغيرة بيضاء كأزهار المشمش التي تعشقها عايدة .

وقالت في خجل ، وهي تراه إلى جوارها من جديد:

بيتك حلو قوي يا توني ..

وقبل أن يجيب ، ارتطمت عينا عايدة بطاولة مستديرة عليها بعض من إطارات فضية رأت بداخلها صورًا وقفت عيناها على إحداها في ذهول .. إنه وجه لشابة تشبه عايدة إلى حد كبير .. وقبل أن تسأل عايدة أو حتى تفتح

شفتيها بكلمة ، سمعت صوتًا يصيح قائلًا:

عايدة .. مش كدا؟!

والتفتت عايدة تنظر لتجد سيدة أنيقة ، ترتدي بنطلونًا حريريًا من اللون الكريم ، وعليه قميص من لون أحمر داكن .. إنها جميلة وشعرها أنيق مصفف بعناية كبيرة .. إلا أن المرأة وقفت ترقب عايدة ، وظلال دمعة ترقص في عينيها .. وقال توني في هدوء:

كريستين مراتي!

واقتربت كريستين بكفها من عايدة تصافحها ، ثم قالت وهي تنظر إلى حيث كانت عايدة تنظر ، ثم قالت:

توني قاللي انك تشبهي سيلفيا كتير ، بس ماكنتش أتخيل إنه للدرجة دي .. وصافحتها عايدة ، وهي تحاول أن تفهم ، إلا أن توني عاد يحمل الصورة ذاتها ، التي كانت عايدة ترقبها بين يديه ، ثم قال:

أنا ما حكتش لعايدة .. دي صورة سيلفيا بنتي الوحيدة .. تخيلي أنت من الشرق .. من آخر الدنيا وتشبهيها قد إيه .

وابتسمت عايدة في خجل ، وهي تمسك بالصورة بين يديها .. الشابة جميلة وجهها يشبه حقًا وجه عايدة ، ربما كانت عيناها لهما لون آخر ، وربما كان أنفها ليس دقيقًا كأنف عايدة ، ولكن شيئًا ما في الوجهين يقول إن هناك تشابهًا ما .. ربما كانت النظرة العميقة .. ربما كان الشعر الداكن القصير ، ولكن لا أحد يخطئ الشبه .. وعادت عايدة تقول في رقتها:

أنا سعيدة جدًا بمعرفتك كريستين ، وسعيدة كمان إني شبه سيلفيا .. هي فين؟!

ورفعت كريستين عينيها إلى توني في لوم ليقول بسرعة:

سيلفيا ... سيلفيا ماتت يا عايدة ، وهي بتولد بيتر .

وفي ألم كبير ، قالت عايدة ، وهي ترى كريستين تغمض عينيها في ألم:

أنا آسفة .. آسفة جدًا .. أنا السبب في إني فكرتكم ..

وانحنت تعيد الصورة إلى مكانها ، وشعرت بذراع كريستين تلتف حول كتفيها في حنان لتقول:

ما تتأسفيش .. لا عمرنا نسينا ولا عمر الألم فارقنا .. بالعكس .. توني من ساعة ما عرفك ، وهو بيتكلم عنك بفرحة وحماس .. أنا ما كنتش أعرف أبدًا إنه عنده حق .. تعالي .. تعالي ..

وتجولت عايدة في المنزل ، وتحدثت إلى الكثيرين من ضيوفه ، ورأت على البعد آدم ، وهو يلعب بمرح كبير مع بيتر وأصدقائه ، وشعرت بالدفء .. شعرت للمرة الأولى منذ عام أنها في بيت .. بيت كبيت عبدالمنعم شيرازي .. بيت يضم قصصًا وذكريات .. بيت له جدران دافئة .

وأطرقت عايدة برأسها تفكر ، عندما غابت عنها كريستين لتضع اللمسات الأخيرة على بوفيه الطعام الكبير .. أطرقت عايدة برأسها تفكر .. من قال إن الغرب لا قلب له .. من قال إنهم بلا مشاعر أو حب .. من قال إن بيوتهم لا حنان فيها ولا ذكريات .. إن كريستين ذكرتها بهدى وتوني يذكرها بمنعم .. حتى زوارهم يتبادلون الأحاديث والمشاعر في دفء كبير .. الغرب ليس قطعة جليد .. لو كانوا حقًا لما أصبحوا بهذا النجاح .

الحب والدفء وحدهما يصنعان النجاح .. الجليد بدأ يغزو بيوتنا نحن ، ولهذا أيضًا بدأ يغزوها الفشل والانحلال .

هل رأت حبًا كهذا في بيت عمها طلعت .. هل رأت دفئًا كهذا في بيت صلاح رفاعي .. هل تدور بينهم أحاديث وقفشات ونكات كهذه التي سمعتها هنا؟

أبدًا .. الجليد بدأ يغزو رؤوس العرب وبيوتهم ، ولهذا هجرها الحب وفارقها النجاح!

****

انحنى هاشم يغلق حقيبته في تعجل كبير ، وقبل أن يعتدل واقفًا ، سمع أمه هدى تجهش في البكاء ، واستدار ينظر إليها في لهفة كبيرة ، ثم قال في عتاب:

ليه كدا؟!

أسرع نحوها يضمها إلى صدره في حنان ، ثم عاد يقول:

دول عشرة أيام .. طب مش قلتلك تعالي معايا .

وضغطت هدى على ظهره بذراعيها بكل قوتها ، وهي تهمس من بين دموعها:

سامحني يا حبيبي .. سامحني .. سافر واتبسط ، وطمني على عايدة يا هاشم .. أنت برضه مش عايزنا نقولها إنك رايح .

وبهدوء عاد هاشم بهدى ليجلسها على فراشه ، ثم قال في حنان:

ياروح هاشم وقلبه .. إهدي انتِ الأول بس .. عايز أعملها مفاجأة .. أنا مش فاهم انتِ ليه مارضيتيش تيجي معايا بس ..

ونظرت هدى إليه ، وقالت ، وهي تحاول أن يخرج صوتها أكثر هدوءًا:

من أول ما دخلت الجامعة وأنت عايز تسافر أوروبا لوحدك ، وإحنا وعدناك تكون الرحلة دي هدية تخرجك .. إن شاء الله في الشتا نروح كلنا نقضي رأس السنة في باريس ، ونعزم عايدة وجوزها كمان زي ما اتفقنا بس برضه زي ما اتفقنا .. تكون أنت كمان استقريت في شغلك مع باباك

وسجلت ماجستير وخطبت .. خطبت يا هاشم .. مش أنت وافقت برضه على شهيرة بنت كمال بيه؟!

وابتسم هاشم في هدوء ، بعد أن أومأ رأسه بالإيجاب ليسمعها تقول:

حطيت السي دي بتاع حفلة التخرج بتاعتك في الشنطة يا هاشم .. آه والسي دي بتاعة مختار ابن دينا .

وقبل أن يجيب ، قالت هدى ،وهي تمنحه مظروفًا صغيرًا:

قل لعايدة ألف جنيه أسترليني مني والألف الثانية من منعم .

أوعى تكون نسيت الحاجات اللي دينا اشترتهم ليها ولآدم؟!

هاشم عشان خاطري خد بالك من روحك .. اسمع ..

ووضع هاشم كفه على شفتيها ليقول:

اسمعي انتِ .. كل حاجة خدتها وكل حاجة تمام .. انتِ بس ما تقلقيش وما تخافيش .. وعد؟!

وعادت تلقي رأسها على صدره .. كيف تعده؟!

كيف يمكن أن يحيا إنسان وقلبه بعيد عن صدره .. كيف يمكن أن تستكين أم وروحها تحلق وحدها بعيدًا في أرض بلد بعيدة ، ولكن «هاشم» لم يعد طفلًا؟!

منذ لحظة إعلان نتيجة الجامعة، ومنذ تلك الحظة التي دخل عليها فيها مُعلنًا نجاحه وحصوله على تقديرَ «جيد جدًا»، وهي تحلم به يمسك بذراع شهيرة .. لقد وعدها بأن يذهبوا لخطبتها بعد عودته من رحلته .. وعدها هاشم وهي تعلم أن «هاشم» لا يخلف وعدًا أبدًا .. وتنهدت هدى ، وهي تقبّل صدره بشفتيها الملقاة عليه .. هدأ كل شيء .. شفي هاشم من ذاك الوهم الكبير .. وإلا ما كان نجح بتفوق .. شفي هاشم وإلا ما قبل الزواج

.. نعم شفي هاشم ، وقريبًا سترى أبناءه ، وقالت في حنان:

هاشم .. إنت قبلت الجواز عشاني ولا عشان خلاص .. يعني الموضوع القديم .. موضوع ..

وأبعدها هاشم عن جسده في رفق ، ووضع كفه الأبيض تحت ذقنها ليقول في هدوء ، رغم المرارة التي كست وجهه :

أنا نجحت لأني لازم انجح .. ونزلت مكتب بابا ، وحارجع أكمل شغل فيه لأن دا مستقبلي .. وحاتجوز لأن دي الحياة .

وفي تردد وكأنها تطرق بابًا تكره أن تطرقه ، لكنها تتمنى أن تفعل ، ولو لمرة واحدة أخيرة ، قالت هدى:

موضوع عايدة القديم .

قاطعها هاشم قائلًا:

القديم يا مامي .. القديم .. خلينا في الجديد أحسن ..

وقالت هدي:

عندك حق .. الجديد أحسن .. الجديد هو الأستاذ هاشم شيرازي .. الجديد هو شهيرة .. الجديد هو الصح .. هو الحياة .

ونهض هاشم ليحمل حقيبته قائلًا:

يللا .. عشان ما نتأخرش .. أنا حاروح أسلِّم على دينا وحسن وأبوس «مختار» ..

وضمته هدى في حنان لتغمض عينيها ، وهي تحلم بأن يعود هاشم ويتزوج شهيرة ؛ لتحمل هي أيضًا حفيدها منه بين ذراعيها ، قبل أن ترحل أو تفقد وعيها .

****

نظرت عايدة إلى وجه صلاح النائم في حزن كبير .. يجب أن توقظه ، قبل أن تخرج بآدم إلى المدرسة .. يجب أن تخبره أنه لا يوجد طعام في البيت ، وأنه لن يجد شيئًا عند عودته .. لم يعد باستطاعتها أن تستدين من شودري ..

هل تذهب إلى البنك لتأخذ من النقود الباقية؟! لا تعلم - بل هي تعلم لكنها لا تريد .. يجب أن تنسى تلك النقود .. تلك النقود للطوارئ .. للأمور الكبيرة .. أليس هو رجل البيت .. يجب أن تخبره .. فليمنحها أي مبلغ صغير أو فليحضر شيئًا يأكله هذا المساء .. شيئًا صغيرًا له ولآدم .. عايدة يمكنها أن تكتفي بقطعة الجبن الملقاة على رف الثلاجة .. بل قد تأكل اليوم الوجبة الصغيرة التي يمنحها شودري لمن يعملون معه في المقهى .

وانحنت تجلس إلى جوار صلاح ، لتمد كفها تربت على ظهره ، وعندما بدأ يفتح عينيه ، قالت في صوت خفيض متردد:

صباح الخير يا صلاح .. أنا نازلة أوصل آدم المدرسة .. صلاح .. الفلوس خلصت ، وأنا حاقبض بعد بُكره ..

وفتح صلاح عينيه ليقول لها:

يعني إيه؟!

وفي خجل كبير ، قالت:

مافيش أكل النهاردة يا صلاح .. أنا مش عارفة أعمل إيه النهاردة وبُكره .. لو ممكن .

وفي جفائه الذي اعتادته ، وفي وقاحة كبرى ، أزاح صلاح الغطاء عن جسده لينهض ، وهو يصرخ قائلًا:

لأ مش ممكن .. الست اللي ما تعرفش تدبر أمورها تجوع أحسن .

ونهضت عايدة عن الفراش ، لتقول قبل أن تتجه إلى خارج الغرفة:

أنا مش عايزة حاجة .. أنا عشانك وعشان آدم .

وقبل أن تصل إلى باب الغرفة ، أمسك صلاح بذراعها في قسوة ليقول:

أنا مش حاتسمم في البيت اليومين دول .. خلاص ارتحت يا عايدة ..

وأطلقت عايدة ذراعها من كفه بصعوبة ، ودون أن تنبس شفاهها بكلمة اتجهت إلى آدم ، الذي كان واقفًا في انتظارها ، وهو يحمل حقيبته المدرسية لتأخذه وتخرج معه ليسيرا معًا حتى بداية الجسر ..

كانت عايدة تائهة حزينة .. أكثر من عام ، وهي تحاول مع صلاح .. عام وهي مازالت لا تعترف لنفسها بكرهه .. عام وهي تخبر نفسها كل يوم أنها يجب أن تشكره .. صلاح جمع رفاتها من تحت أقدام عمها طلعت ، ولكن ألم يجد صلاح في هذا العام شيئًا واحدًا يجعله لا يقسو عليها .. شيئًا واحدًا يجعله أكثر رحمة بها .. وابتلعت دمعة شعرت بها تصارع للهرب من عينيها، وشعرت بكفه تهز كفها وسمعته ، يقول:

نفسي أتعلم عربي يا عايدة .. عشان أعرف «صلاح» بيزعقلك كل يوم ليه..

وابتسمت عايدة ابتسامة صغيرة ، وهي تقول بصوتها الدامع:

انت بتتعلم يا آدم .. أنت بقيت بتقرا الفاتحة والإخلاص .

لكنه عاد يقول:

فيه إيه يا عايدة .. كان بيزعق ليه؟!

ونظرت عايدة إلى ساعة يدها ، ثم قالت:

مافيش يا آدم .. ما تشغلش بالك إنت .. يللا عشان ما تتأخرش .. اركب العجلة وعدّي الكوبري ، ولا أقولك أنا كمان حاعدي معاك .. حاروح مشوار في تشيلسي .

مازال أمامها بعض الوقت .. لا مفر .. يجب أن تذهب إلى البنك .. ستحضر عشرين جنيهًا استرلينيًا فقط .. لن تستدين ، ولن تدع آدم أبدًا يشعر بما يحدث .

في نهاية الجسر وقفت عايدة لحظات تنظر إلى آدم وإلى السماء .. إنها تشعر بشيء غريب لم تشعر به من قبل .. عايدة تشعر بعاصفة كبيرة توشك أن تهب .. تشعر بصوت يحاول أن يصرخ بداخلها .. صوت له فحيح لم تعهده بين جنبات ضلوعها من قبل .. عايدة تشعر أنها تريد أن تبكي .. أن تصرخ بل هي تشعر أن أنفاسها تضيق ، وقلبها يختنق في صدرها .

انحنت تقبل آدم لتخبره أنها لن تكمل معه في تشيلسي ؛ لأنها تذكرت شيئًا مهمًا ، يجب أن تعود من أجله إلى تاين إلمز .

واعتلى آدم دراجته ليلوح لها بكفه الأبيض الصغير ، على وعد اللقاء في المتنزه مع توني بعد المدرسة .

لوحت له عايدة وهي تتعجل رحيله .. تريده أن يذهب .. تريده أن يغيب عنها .. لا تريد آدم أبدًا أن يشعر بما يدور في داخلها .. وبخطى مترنحة خائفة سارت عايدة إلى المتنزه لتجلس على المقعد ذاته المواجه للنهر ، وأرخت رأسها كأنها تحاول أن تتسلل بعينيها إلى جوفها .. كأنها حقًا تحاول أن تصغي إلى الفحيح الذي يدور في ضلوعها .. الصوت يصيح في جنون يسألها:

لماذا تذهب إلى البنك .. الصوت يسألها : لماذا تهتم بآدم وترعاه ، وهي تعلم أنه سيتركها ، وأن أمه ستعود يومًا لاصطحابه؟!

الصوت يسألها لماذا تعمل بكل هذا الصبر ، وهذا التفاني في مقهى شوردري العجوز؟!

الصوت يصرخ .. لماذا تحتمل هذا الفلاح الجاهل ، الذي يعاملها كخادمة طوال النهار ، وكعاهرة متى شاء في المساء ..

الصوت يصيح ويخبرها أنها حمقاء غبية .. الصوت يبكي ، وهو يسألها كيف ترضى أن تكون زوجة ، وهي تشعر أنها مازالت عذراء ..

نعم امرأة لم تمس شفاهها .. امرأة لم تحتضنها ذراعان .. امرأة لم تشعر بجسد رجل ، هي عذراء يغتصبها أحمق في الظلام .

لماذا تحتمل؟! لماذا تصبر؟!

ووضعت عايدة كفيها على أذنيها في جنون .. لا تريد أن تسمع .. لا تريد أبدًا أن تصغي .. لا تريد أن ترى طهارتها تتحول إلى شر .

عايدة تصبر لأن الصبر فضيلة .. عايدة تحتمل لأنها نقية .. عايدة تنفق قروشها التي تعمل بها على آدم لأنها تحبه .

لا ، هي تفعل لأنه يحبها .. نعم .. يحبها .. عايدة تعمل عند الباكستاني العجوز ، وفي مقهاه المتهالك بكل هذا الإخلاص لأنه وثق بها .. لأنه معها وحدها يصبح أكثر هدوءًا واحترامًا .. عايدة تحتمل «صلاح» لأنه جاهل كبير .. جاهل لا يعلم ما تعنيه كلمة الحب .

عايدة لن تصبح مثله .. عايدة نشأت على الحب ، ومن أجله ستبقى كما كانت ، وكما تحب أن تكون .. هل تحزن على النقود .. هل هي تبكي على الأوراق؟! الأوراق لا تؤازر .. الأوراق لا تساند .. الأوراق لا تمسح الدمع أو تجففه .

حب آدم يفعل .. ثقة شودري تفعل .. صداقة توني لها تفعل .. واحترام سكان الحي لها أيضًا يفعل .

وعادت تنظر إلى النهر من خلف دموعها الكثيفة .. لن يهزمها الصوت .. الأمل قادم .. ستحاول الحصول على عمل بأجر أكبر .. عندما يحدث هذا قد يهدأ الجميع .. حتى صلاح قد يهدأ ويسعد .. قد يحبها .. قد يضمها .. قد تشعر يومًا أنها حقًّا أصبحت زوجة وامرأة .

ونظرت عايدة إلى ساعتها .. مضى الوقت .. ستعود إلى عملها ، وعند عودتها لاصطحاب آدم ستذهب إلى البنك .. ستحضر أكثر من عشرين جنيهًا .. ستدعو آدم إلى تناول شيء يحبه ، وستعود أيضًا بشيء صغير إلى صلاح .. لن تدع الصوت يهزمها .. بالصبر والحب ستهزم هي كل الشرور .

****

رفع شودري عينيه السمراوين الضيقتين لينظر إلى عايدة ، وهي تلقي عليه التحية في هدوء .. إنه يحب هذه الشابة الأنيقة الطيبة .. لكنه حزين عليها .. يشعر أنها حقًّا تستحق شيئًا أفضل كثيرًا مما هي فيه .. وابتسم شودري ابتسامة صغيرة مريرة .. هو أيضًا كان يستحق شيئًا أفضل مما هو عليه .. يوم جاء إلى إنجلترا منذ أربعين عامًا ، كان يظن أنه سيحقق شيئًا أفضل مما هو عليه، ولكن ها هو ينتهي في مقهى صغير متهالك في حي قديم موبوء ، يحيا شيخوخته وحيدًا لا زوجة ولا أبناء .

وعاد شودري يرقب عايدة بعينيه في حنان .. هل ينتهي بهذه الشابة العمر هنا مثله؟!

هل هذا هو حقًّا مصير كل الأنقياء .. ولماذا هذا هو دومًا مصيرهم؟!

في الثالثة ، كانت عايدة تقف أمام مرآة حمام المقهى تنظر إلى وجهها .. مازالت آثار صراع الصباح بادية على ملامحها .. وأغمضت عينيها كأنها تدعو الله ألا يحدث ما حدث هذا الصباح مرة أخرى .. صعب .. صعب جدًّا أن تشعر بالغضب من نفسها .. صعب جدًّا أن تشعر بالرثاء على نقائك .. صعب جدًّا أن تشعر بالرفض يولد في أعماقك .. من قال إن الكراهية أسهل من الحب والتسامح .. الكراهية أمر صعب لا تريد عايدة أبدًا أن تسلك طريقه ..

وعادت عايدة تنظر إلى المرآة ، وهي تشد قميصها الأحمر على جسدها .. ونظرت إلى بنطلون الجينز الأزرق الذي ترتديه .. رغم بساطة ما ترتديه إلا أنها أنيقة .

ووضعت أصابعها في خصلات شعرها الذهبية الناعمة تمشطها .. يجب أن تبدو عادية ، وهي تستعد إلى الذهاب لآدم .. هذا الصغير يجب أن يشعر بالأمان دومًا .. أليس هذا هو هدفها ورسالتها .

وسمعت شودري يصيح من خلف الباب ، وهو يطرقه يدعوها إليه ..

خرجت عايدة ، وهي تضع على وجهها الابتسامة الحانية ، التي لا تتعمد حنانها أو رقتها لتجده يرمقها بعينيه قائلًا:

فيه حد بيسأل عليك برا يا عايدة!

وخرجت عايدة تنظر حولها فلم تجد أحدًا ، وقبل أن تستدير لتسأل شودري سمعت صوتًا يناديها باسمها ، وأدارت رأسها حيث مصدر الصوت لتراه يقف وخلفه باب المقهى .. واتسعت عيناها في ذهول ، وهي تراه يبتسم ..

كم مرة أغلقت عينيها وفتحتها لتتأكد مما تراه .. لا تعلم .. لا تعلم أبدًا سوى أنها ركضت في جنون .. ركضت في ذهول .. ركضت حتى شعرت أنها حقًا كادت تقع به على باب المقهى الزجاجي ، عندما ألقت بنفسها بين ذراعيه ، وهي تبكي قائلة:

هاشم؟! هاشم؟! أيوه هاشم!!

وضمها هاشم بين ذراعيه .. لم يستطع أبدًا أن يستبقي الدمعات التي هربت من عينيه ، والتي كان شودري يراها بوضوح ؛ حيث كان واقفًا يرقب الشاب الأنيق الذي سأله عنها منذ لحظات .

كانت عايدة تنتفض على ذراعي هاشم ، كأنها حقًا يمامة عادت إلى أرضها .. وكان هاشم يستبقيها على كتفيه ، حتى لا ترى دمعه ، الذي كسا وجهه الأبيض الجميل .

بعد لحظات قصيرة استعاد فيها بعضًا من سيطرته على نفسه ، قال لها ، وهي مازالت على كتفيه:

جيت في ميعاد الغدا بتاعك عشان نروح نجيب آدم سوا .. مش صح برضه؟!

وهزت رأسها على صدره وسمعته يقول:

يللا .. التاكسي برا مستني .

ورفعت عايدة رأسها لتقول:

لأ .. لأ يا هاشم مشّيه وتعالى نمشي زي أنا ما بأعمل كل يوم .. روح مشيه ..

وخرج هاشم لتذهب عايدة إلى شودري ، وقبل أن تقول كلمة ، قال لها:

لو مش عايزة ترجعي يا عايدة النهاردة ، مافيش مشاكل .. خدي بقية اليوم أجازة .

وبلا وعي ضمته عايدة إلى صدرها تشكره ، وهي تشرح له أنه أخوها الذي لم تره منذ عام ..

وابتسم شودري في حنان ..

كل الشرقيات يقلن عمن يعشقن إخوتهن!

****

هدأ الصوت .. هدأت كل الأصوات .. لا شيء في رأس عايدة أو قلبها سوى هاشم الذي يخطو إلى جوارها ، وهي تحكي وتسأل وتخبره عن آدم .. عن توني .. عن مشوار كل يوم .. عن جسر تشيلسي .. عن دينا وهدى ومنعم وتخرجه وإعفائه من التجنيد ..

آلاف الأسئلة التي ربما لا تنتظر الإجابة عنها ، لتلاحقه بألف سؤال آخر .. عن مختار .. عن دينا .. عن عدد الأيام التي سيبقى فيها في لندن .. عن الأماكن التي تحلم برؤيتها معه .. عن كل لحظة وكل دقيقة مضت ، وهي عنهم بعيدة .

هاشم يحاول أن يلاحقها بإجابات .. يحاول حتى أن يكمل إجابة واحدة، لكن عايدة كانت كعصفور سجين خرج لتوه من سجن طويل ، فأخذ يزقزق ألحانًا كثيرة متداخلة ، كأنه فقط يغني ليشعر أنه عاد حرًّا طليقًا .

كانت يدها في يده .. كانت تشعر أنها حقًّا تطير ، وكأنها ما كانت شاحبة قائمة منذ لحظات، وفي لحظة كانا قد عبرا جسر تشيلسي ، وجذبت عايدة يده إلى المتنزه ، وأمام المقعد ذاته وقفت ، وهي تصيح:

دا الكرسي اللي باقعد عليه كل يوم يا هاشم استنى آدم وتوني .. بص شوف .. شوف النهر قد إيه جميل .. شوف لندن قد إيه جميلة .

وسكتت عايدة لحظة كأنها رأت وجهها هذا الصباح ، وهي تهزه بين كفيها علّها تفيق من فحيح ذاك الصوت الكريه، ولكن الآن كل شيء جميل

.. كل شيء له رائحة نقية .. ورفعت عينيها تنظر إلى عيني هاشم الخضراوين وضمته إلى صدرها ، وهي تقول:

مش ممكن يا هاشم .. غيرت كل حاجة .. كل حاجة يا هاشم .. اقعد .. كمل .. احكي .. احكي تاني يا هاشم .

ولم تشعر عايدة بتوني عندما دخل المتنزه .. لم تشعر به أبدًا عندما وقف يرقبها ، وهي تتحدث وتضحك وتلوح بكفها الناعم الرقيق .. كانت سعيدة وكأن «هاشم» أخرج من جيبه سعادة كبرى سكبها على ملامحها .. وقف توني يرقبها ، كأنه يرى طفلة صغيرة ما رآها قبل اليوم .

وشعر به هاشم يرقبها ، وقال وعايدة لا تسمعه ، حيث عاد يمسك بكفها قائلًا:

عايدة .. عايدة .. مين اللي واقف دا؟ هو دا توني؟!

ونظرت عايدة لترى توني يقترب في حذر ، لتقف وهي تصيح:

توني .. تعالَ .. «هاشم» يا توني .. هاشم أخويا وابني وكل حاجة .. توني يا هاشم توني .

واقترب توني ليصافح «هاشم» في ود كبير قائلًا:

أنا واثق إنك تعرفني زي ما أعرفك .. لكن اللحظة دي خلتني أعرفك أكتر .. إنت معجزة .. عمري ما شفت عيون عايدة بترقص كدا .. حمدا لله على السلامة .

وفي اللحظة ذاتها ظهر آدم لتصيح عايدة من جديد ، وكأنها في كل مرة تريد أن تُسمع روحها أن «هاشم» حقًّا . هنا صاحت لتقول:

هاشم يا آدم .. هاشم ..

مرت الساعة التي يقضيها توني مع عايدة وآدم كل يوم في لحظات .. قصص يرويها هاشم عن عايدة ، وقصص يرويها توني عن سيلفيا وعن كريستين وبيتر ، وقصص يسمعها آدم ليلتصق بعايدة أكثر وليسعد بهاشم، وهو يرى عايدة تتحول إلى طفلة سعيدة ، تعلو ضحكاتها الرقيقة في متنزه تشيلسي .

ونهض توني ليعود إلى عمله ، بعد أن قدم دعوة عشاء لهاشم في مساء الجمعة مع عايدة وآدم .. ثم تركهم ليذهب إلى عمله من جديد .

وبقيت عايدة مع هاشم وآدم ، بعد أن أخبرتها بأنها لن تعود إلى العمل ليخرجوا معًا إلى شارع أكسفورد حيث Y- hotel مكان إقامة هاشم واتفقوا على قضاء اليوم معًا .

رعشة صغيرة سرت في جسد عايدة ، عندما أخبرها هاشم برغبته في العودة إلى منزلها ولقاء صلاح في المساء .. إلا أنها لم تحاول أن تفكر في أسبابها، أو حتى في الهرب منها .

كان كل ما يعنيها هو السعادة التي اجتاحت وجه آدم أيضًا ، وهم يتجولون للمرة الأولى في شارع أكسفورد .. اشترى هاشم أشياء كثيرة صغيرة لآدم ، الذي تردد كثيرًا في قبولها ، إلا أن عايدة أخبرته أن يقبلها .

في الثامنة دخل الثلاثة فندق هاشم الذي غاب عنهم دقائق ليعود ، وفي يده أكياس كثيرة ليستقلوا أحد تاكسيات لندن الشهيرة ، ليأخذوا طريقهم إلى بيت عايدة .

عندما دخل هاشم البيت ، أرخى رأسه في هدوء ، وهو ينظر حوله بعد أن اختفت عايدة وآدم في الغرفة قليلًا .. البيت ليس أفضل حالًا من الحي الذي تسكنه عايدة .. عايدة تحيا حياة صعبة .. هاشم شعر بها وهي في قمة

حرجها، عندما سألها هاشم عن بعض النقود من الفئات الصغيرة ليكمل بها أجرة التاكسي .. شعر هاشم أن حقيبتها خاوية من أي بنس واحد .. والآن يعلم أنها تحيا حياة صعبة قاسية .. وقال هاشم في بساطة:

أنا حاشرب مية يا عايدة على ما تغيروا هدومكم ..

ونهض إلى المطبخ كأنه يريد أن يتركها تتحرك بحرية أكثر .. واتسعت عينا هاشم ، عندما فتح الثلاجة المهترئة .. لا شيء بها سوى قطعتين من الجبن وقارورة ماء زجاجية .

وأغلق الثلاجة بسرعة .. لن يدعها ترى أنه رأى ما رآه .. وعاد هاشم بسرعة إلى مكانه ؛ لتظهر عايدة بعد لحظات ، وقد ارتدت ثوبًا أبيض يعرفه هاشم جيدًا وسمعها تسأله في لهفة:

شربت يا حبيبي؟!

وقال هاشم في هدوء:

لأ .. مش عطشان قوي يا عايدة ..

وعاد الثلاثة يتحدثون ، وهاشم يمنح كل منهم هداياه التي أرسلتها هدى ودينا، وصاح آدم من الفرح ، وهو يرى ملابس وحلوى وألعابًا جميلة أرسلتها دينا ، وقالت عايدة في حنان:

دينا وهاشم دول إخواتي .. عيلتي وعيلتك إنت كمان يا آدم ..

وانزوى آدم لينهي واجباته المدرسية ، وقبل أن يصل صلاح أخبر هاشم عايدة أنه سيلقاها صباحًا في تشيلسي .. لقد أخبرته عايدة أنها لن تذهب إلى المقهى أبدًا وهو هنا .. حتى إن غضب شودري أو طردها ، لا يهمها أبدًا .. لن تتركه لحظة، وفي الغد ستدعوه إلى العشاء .. ستطهو له كل ما يحبه .. لهذا أخبرته أن يلقاها صباحًا في تشيلسي بعد عودتها من البنك ، إلا أن

«هاشم» وقبل دخول صلاح بلحظات أخرج من جيبه مظروفا ، وضعه في يدها قائلًا:

عايدة .. دا من مامي ..

وفتحته عايدة لتطل من طياته الجنيهات، وفي اللحظة التي حاولت أن تضعه بين كفه مرة أخرى ، كان صلاح يفتح الباب ليلتقط المظروف بعينيه، والذي أسرعت عايدة بطيه بين أصابعها ، وهي تنهض من جوار هاشم لتقول في تلعثم:

مفاجأة مش كدا يا صلاح ..

وقطب صلاح حاجبيه ، وهو ينظر في وجه هاشم وكف عايدة ، الذي يظهر من بينه شيء لا يعرفه ، وتقدم يصافح « هاشم » دون أن يضمه قائلًا:

حمدا لله على السلامة .. وصلت إمتى؟!

وضمه هاشم وهو يقول:

النهاردة الصبح .. ازيك يابو صلاح؟!

ورمى صلاح بجسده على أحد المقاعد ، وأخذ يرقب وجه عايدة .. شيء ما في وجهها تغير .. شيء ما لم يره أبدًا في وجهها ، منذ اللحظة التي رآها فيها في منزل طلعت بعزبة الشال .. شيء جعل وجنتي عايدة وردية .. جعل عينيها تبرق في جمال .. شيء يجعلها ترقص كفراشة ، حتى وهي تبدو أمامه مرتبكة حائرة ، تحاول أن تخفي شيئًا في كفها ..

وشعر صلاح بغيظ كبير .. بريح سوداء تئز في أذنيه ، فالتفت ينظر إلى هاشم ليقول في قسوة:

إيه هي عايدة قالتلكم إني مجوعها فبتديها فلوس؟!

وشهق هاشم في ذعر من كلمات صلاح ، إلا أنه قال في هدوء:

إيه اللي بتقوله دا .. هي لما أم تبعت لبنتها فلوس يبقى فيه مشكلة .

وغابت عايدة كأنها تهرب من مواجهة ما يحدث ؛ ليكمل هاشم في مرح حاول رسمه بصعوبة كبيرة على كلماته قائلا، وهو ينحني ليمسك بكيس كبير أنيق قائلًا:

دي هدية صغيرة من ماما وبابا لابنهم وجوز بنتهم ..

وابتسم صلاح ، وهو يلتقط الكيس من هاشم ، ثم عاد ينظر إلى كل الأشياء المبعثرة حول آدم ، وشكره دون حرارة ، ثم نهض ليقول:

عايدة .. عندنا شاى؟! تشرب شاي يا هاشم .

وقبل أن يجيب ، ظهرت عايدة لتقول ، وهي تنظر إلى هاشم في حيرة وخجل:

أيوه .. باين .. حاشوف .

ونهض هاشم ليقول:

لا .. أنا عايز أروح ارتاح .. بُكره نتعشى ونشرب شاي إن شاء الله .

لم يقل صلاح كلمة ، ولم تستطع عايدة أيضًا أن تنبس بحرف .

قبّل هاشم آدم في حنان وضم عايدة ضمة سريعة ، غادر بعدها البيت دون حتى أن يوصله صلاح إلى الباب .. وعادت عايدة وحدها بعد أن أغلقت الباب ؛ لتجمع الأشياء التي أحضرها هاشم في هدوء ، حيث سمعت «صلاح» يسألها:

هو أنت عزمتيه على الغدا ولا العشا؟!

وأجابت عايدة في صوت خفيض قائلة:

العشا ..

ووقف صلاح ليتجه إلى غرفته ، وهو يمسك بهدية هاشم بين أصابعه قائلًا:

آه الفلوس حتظهر ولا كنت عارفة إنه حيديكي فلوس؟!

ورفعت عايدة عينيها تتبع بهما «صلاح» في غيظ وألم ، رآهما آدم في عينيها ؛ حيث شعر أنه يفهم كل ما دار ، رغم أنه كان باللغة العربية .

****

على نهاية جسر نشيلسي ، وقبل أن يركب آدم دراجته إلى المدرسة ، صاحت عايدة عندما رأت «هاشم» ينتظرها .. أخبرته أنها يجب أن تعود إلى شودري لتخبره بتغيبها الأيام الخمس ، التي سيبقاها هاشم في لندن .. أخبرته أنها يجب أن تشتري أشياء كثيرة ، وتذهب لإعداد طعام العشاء لهم جميعهم قبل أن تعود لاصطحاب آدم إلى البيت .. لكن «هاشم» رفض .. هاشم أخبرها أن تحادث شودري على الهاتف .. أخبرها أنه سيأخذها هي و«صلاح» وآدم إلى العشاء في مطعم في منطقة «توتوز» .

أخبرها أنه يريد أن يقضي كل لحظة معها .. أخبرها أنه سعيد ؛ لأنها لم تشاهد شيئًا من كل تلك الأماكن التي كانا يحلمان برؤيتها .. أخبرها أنه سعيد لأنهما سيريانها للمرة الأولى معًا .

وانطلق الاثنان إلى الهايد پارك .. انطلقا يتنزهان في حدائقه الرائعة ويقفان أمام بحيراته الجميلة .. كان هاشم سعيدًا بسعادتها .. حزينًا أيضًا بكل ما رآه وسمعه في بيتها .. ووضع هاشم ذراعه حول كتف عايدة ، ثم قال في حنان:

عايدة .. إنت مبسوطة مع صلاح؟!

وشعر هاشم برعشة في جسدها ، بعد أن سمعت سؤاله لتستدير بظهرها بحثًا عن أحد المقاعد ؛ حيث سارت لتجلس على أحدها ، ورفعت عينيها ترقبه ، وهو يأتي ليجلس إلى جوارها ، ثم قالت بعد لحظات:

آه طبعًا .. صلاح طيب يا هاشم .. يمكن كلامه أوقات بيبقى جاف ..

يمكن .. يعني .. لكن الحمد لله إحنا كويسين يا هاشم .

ووضع هاشم كفه على يدها ليقول في صوت خفيض:

ماما طلبت مني اسألك ليه ما خلفتوش لغاية دلوقت ..

ورفعت عايدة عينيها لترخيهما من جديد قائلة:

مش عارفة .. بس .

ليتها تعلم أن حديثه عن إنجابها يذبحه .. ليتها تعلم أن مجرد تخيله لها بين ذراعي صلاح يسحق ضلوعه .. لكن هاشم عاد يقول:

شوفي يا عايدة .. ماما وبابا .. كلنا حنروح باريس في راس السنة وماما حتعزمك أنت وصلاح .. لو فيه أي دكتور أو علاج أو حاجة ممكن تعجل أو تساعد في الموضوع دا .. ماما .

وقاطعته عايدة قائلة:

هاشم .. مافيش حاجة .. إحنا كويسين .

وبآهة خرجت من صدره ، عاد هاشم يقول:

عايدة .. مامي اللي طلبت مني أقولك كدا .. اسمعي هو صلاح حيروح معانا بكره عند توني؟!

ووضعت عايدة أصابعها الرقيقة في طيات شعرها ، وأطرقت برأسها لحظات طويلة ، لتأخذ نفسًا طويلًا من صدرها ، قالت بعده:

شوف يا هاشم .. أنا مش حاقول لصلاح إن إحنا رايحين عند توني لأنه ما يعرفش حاجة عنه ، وكمان مش حاقوله إني حاخرج معاك كل يوم .. أرجوك ما تسألش ليه .. بس صدقني كدا أحسن .

وصمتت لحظات وعادت تقول ، كأنها تحاكي ضميرها ، وتبرر له ما طلبته من هاشم:

دول كلهم خمسة أيام .. صلاح لو عرف يمكن يتضايق ، لأنه مش حيقدر يكون معانا طول الوقت ..

وضع هاشم كفه على كفها .. هو أيضًا لا يريد أن يرى «صلاح» .. هو أيضًا يريد أن يكون إلى جوارها وحده ..

وعاد هو الآخر يهز رأسه ، كأنه يشرح لضميره ويبرر له .. هو لا يفعل هذا لأنه يريد أن يختلي بها ، أو لأنه يكره رؤيتها مع زوجها .. أبدًا وإلا ما كان يسعد بصحبة آدم ، وإلا ما كانت دعوة توني أسعدته كثيرًا .

صحبة صلاح غير مريحة لأن «صلاح» نفسه لا يحب «هاشم».. صلاح نقل له هذا الشعور بوضوح..فلم يلوم نفسه على رفضها صحبة من لا يحبه ..

ونظر إلى بحيرة الهايد پارك ، وإلى بجعاتها الجميلة ، وابتسم ابتسامة مريرة كأنه يقول إنه كاذب .. هو يحب آدم لأن عايدة تحبه .. سيذهب إلى منزل توني لأن عايدة أيضًا تحبه .. هاشم لا يريد شيئًا من هذا البلد إلا بقاءه إلى جوارها .. لا يريد سوى رائحتها التي تملأ أنفاسه .. إنه يكذب .. نعم يكذب .. لكنها أيام قليلة .

وحاول أن يخرج من أفكاره فصاح قائلًا:

ياخبر .. تعالي نكلم دينا .. أنا وعدتها ..

وقالت عايدة:

دلوقتي؟! دينا في الشغل وتليفونها أكيد مقفول .

وابتسم هاشم وهو يقول:

دينا تليفونها مفتوح على طول يا عايدة ، عشان مختار بتكلم ماما وطنط نجوى مرة كل ساعة .

احنا اتغيرنا يا عايدة .. اتغيرنا .. كلنا اتغيرنا .

****

إنها المرة الثانية التي يجتمع فيها الجميع في بيت توني في الليلة ، التي تسبق ليلة سفر هاشم .. أصرت كريستين على دعوتهم قبل سفر هاشم ..

جميعهم سعداء كأنهم حقًا يجتمعون في بيت عبدالمنعم شيرازي .. لكن في هذه الليلة هناك خط كبير وعميق من الألم، يشق وجهي عايدة وهاشم .. عايدة عيناها غارقة في طبقة كالدمع ، تطفو كلما نظرت في وجه هاشم ، وتذكرت أنه سيرحل في فجر بعد الغد .

عايدة تتألم لأن صلاح يطاردها بكلماته اللاذعة عن هاشم ، وعن اشمئزازه من دعوة العشاء التي ذهب معها إليها .. دومًا يخبرها أن «هاشم» كان يتعمد اصطحابهم إلى ذاك المطعم الراقي ؛ لأنه كره تناول الطعام في بيتهم .

عايدة تتألم كلما تذكرت كيف دار الحوار بين صلاح وهاشم ، وكيف كان صلاح يرفع حاجبه في استعلاء ، كلما شعر أنه لا يعرف بماذا يجيب أو عن ماذا يتحدث .

حاول هاشم أن يفتح معه ألف حوار .. حاول أن يحادثه في وضع مصر والعالم العربي .. حاول أن يحادثه عن أوروبا والأزمة الاقتصادية الكبيرة .. حاول حتى أن يحادثه عن المنصورة .. حاول ، ولكن في كل مرة «صلاح» لا يعلم ماذا يقول سوى أن يتحدث عن شجاعته في مواجهة كل شيء ، وعن قدراته ونجاحاته التي لا ملامح لها أو وجود .

عايدة تألمت كثيرًا عندما أدركت أن «صلاح» ضئيل ، وتضاءل آلاف المرات لأنه يرفض حتى أن يعترف بجهله أو بساطته .. ليس عيبًا أن نجهل ، ولكن العيب الكبير حقًّا أن ندعي أننا أكثر علمًا ممن حولنا .

وعادت عايدة ترفع عينيها لترمق «هاشم» ، وهو يحاور توني عن أمور كثيرة في هدوء .. في ثقة .. في تناوب بينهما في الحديث .. مرة يصغي ومرة يتحدث .. مرة يضيف ومرة يتعلم .. الثقة الحقيقية وحدها هي التي ندرك فيها أننا لا نعلم كل شيء ، ولكن نحاول أن نتعلم كل يوم وكل لحظة .

وجاء بيتر إلى عايدة ، يطلب منها أن تحكي له القصة التي حكتها لآدم منذ أيام ، وضمته عايدة إلى صدرها في حنان، لتستأذن توني وكريستين في الخروج مع آدم وبيتر إلى الحديقة .. وسألها توني قائلًا:

قصة إيه يا عايدة!

ومع ابتسامة صغيرة قالت:

مش فاكرة .. بس أنا حاحكيلهم حكاية جديدة .

وقال هاشم في حنان:

عايدة طول عمرها تألف قصص .. أنا ودينا لغاية مارحنا الهاي سكول واحنا نحب نسمع حواديتها ..

فاكرة يا عايدة الرواية اللي كتبتيها في الجامعة وكسبت جايزة .

والتفت توني ينظر في عين كريستين ، في حزن كبير ، ثم قال بعد لحظات:

عايدة .. سيلفيا بنتي كانت برضه بتكتب .. بدأت «كتاب» قبل ولادة بيتر ، وكانت ناوية تخلصه وتطبعه في عيد ميلاده الأول .. لو فعلًا عايزة تكتبي ، أنا ممكن أساعدك .

ورفعت عايدة عينيها تنظر إليه في ذهول ؛ ليكمل توني قائلًا:

أساعدك يعني إيه .. يعني أعرض اللي حتكتبيه على دار نشر كبيرة صاحبها صديقي .. هو اللي يحكم صدقيني أتمنى من قلبي إنك تكتبي ، وأتمنى من قلبي إنه يلاقيها تصلح للنشر .. ما تعرفيش دا حيخليني قد إيه أحس إني عملت حاجة لسيلفيا .

وخيم صمت كبير ، عندما رأى الجميع دمعات تتراقص في عيون توني وزوجته .. حتى بيتر كان في عينيه دمعة ، وقالت عايدة:

أنا طول عمري بأحلم أكتب رواية ، لكن ..

وقال هاشم في حماس:

لكن إيه؟! لكن إيه يا عايدة .. أنت في بلد حر .. في بلد العمل الجيد بيفرض نفسه وبياخد فرصته ، وعرض توني دا هدية يا عايدة ..

واقترب آدم من عايدة ، وهو يصيح:

اكتبي ياعايدة .. اكتبي ..

وضمته عايدة إلى صدرها وأغمضت عينيها كأنها تحلم .. حلم عمرها كان أن تكتب .. ولكن هل تستطيع حقًّا .. كانت في مصر تعلم ألا أحد سيساعدها .. لا أحد سيتحمس لحلمها ؛ خاصة أنها كانت تريد الكتابة بالإنجليزية .. فعربيتها ليست بالقوة المطلوبة .. وهمست وعيناها مازالتا مغمضتين:

حاكتب .. حاكتب يا آدم ..

وقال بيتر:

انتو صحيح حتروحوا بُكره مدام توسو .. ممكن آجي معاك يا آدم؟!

وفتحت عايدة عينيها لتنظر إليهم في دهشة .. لقد أخذها الحلم بعيدًا ، لكن واقع وجودهم حولها مازال هو الآخر جميلًا ، وسمعت هاشم يقول:

توني من فضلك .. ممكن ناخد بيتر بُكره الصبح بدري نروح قصر باكنجهام ، نتفرج على الاستعراض ، وبعدين نروح متحف مدام توسو .

وفي هدوء قالت كريستين:

مافيش مانع .. بُكره أجازة .

وقاطعها توني قائلًا:

خدوا العربية والسواق .. أنا ماعنديش حاجة غير المستشفى .. اعملوا كل اللي انتوا عايزينه ، وبالليل نتعشى برا كلنا .

وقال هاشم فورًا:

لأ .. بالليل مش حاينفع أنا آسف .. لازم أحضر شنطي .. أنا حاسافر الفجر .

ونظرت عايدة إلى عيني هاشم في ألم كبير ولوعة ، شعرت معها كريستين بالحزن هي الأخرى .

****

كان يومًا رائعًا .. ذهبوا جميعًا لمشاهدة الاستعراضات الرائعة التي تتم أمام قصر باكنجهام ، ثم أخذهم بيل إلى متحف مدام توسو ليلتقط هاشم صورًا كثيرة لعايدة وآدم وبيتر مع كل الشخصيات الرائعة ، التي تقف على أرض المتحف وكأنها حقيقية .

آدم أخذ أكثر من صورة إلى جوار ديانا سبنسر .. أما بيتر فلقد عشق ڤيڤيان لي وثوبها الجميل ، الذي ارتدته في فيلم «ذهب مع الريح» .. كانوا جميعًا سعداء ، يقفزون حول عايدة وهاشم ، وكانت عايدة تضم الصبيين كل لحظة وأخرى، وتخبرهما أنها حقًّا تحبهما .. كانت عايدة مازالت ترى في عيني آدم وبيتر عينيها الدامعتين .. إنهما يتامى مثلها .. وعايدة أكثر من يعلم حاجة اليتامى إلى لمسة حب وضمَّة حنان ..

كان هاشم حولهم ينفق في سخاء ، ويسمع في اهتمام ، ويركض خلفهم كأنه يتيم مثلهم، ولكن الفارق الوحيد هو أنه يعلم أنه سيفارق صدر أمه في فجر الغد ..

كان هاشم يسترق النظر إلى عايدة ، ويتمنى لو يعلم كيف يبقى إلى جوارها أو كيف يأخذها معه .

إن قلبه حائر .. يكره أن يتركها ويعلم أنه يجب أن يتركها .. عايدة لا تشعر بحبه .. عايدة مازالت تشعر به كآدم أو بيتر، ولكن شيئًا ما في صدره يخبره أن

شيئًا في نظرات عايدة له تغير .. شيئًا في عناقها له يصارع فكرة بدأت تطرق رأسها .

ونفض هاشم رأسه في ذعر .. إنه يتوهم .. عشقه يصور له هذا الوهم .. هاشم لن يستسلم للوهم .. حتى إن كان الوهم حقيقة ، فالاستسلام له كارثة كبرى .

عايدة زوجة .. عايدة أم لطفل ليس له سواها .. لقد رأى كيف يعامل صلاح آدم .. بل لقد رأى بعينيه إلى أي حد لا يرى صلاح آدم ولا يشعر به .. حتى بيتر بدأ يركن إلى ذراعي عايدة كثيرًا .

وأطلق آهة كبيرة من صدره ، وهو يرقب عايدة تركض خلف بيتر ، وهي تضحك .. حتى هنا يا عايدة .. حتى هنا اليمامة جمعت حولها قلوبًا أصبحت هي قلبها .

وأخرج هاشم هاتفه الصغير من جيبه ليحادث هدى ، التي شعرت بشيء ما في صوته .. شيء كالألم .. شيء كالحزن، وعندما أخبرها هاشم أنه مع عايدة طلبت أن تحادثها ، وصاح هاشم يمنح عايدة الهاتف لتبتعد به قليلًا عن صياح آدم وبيتر ، وحادثت هدى دقائق ، عادت بعدها إلى هاشم لتمنحه الهاتف في صمت كبير .

كان هاشم يركض خلف الصبيين ، والتقط منها الهاتف ليضعه في جيبه بسرعة .. لكنه التقط عيني عايدة التي أطل منها شيء كالسؤال .. شيء كالخوف وعاد إليها يسألها في لهفة:

مالك يا عايدة .. هي ماما قالت حاجة .. بابي كويس؟! دينا كويسة هي وحسن؟!

ورمت عايدة بنفسها على أحد المقاعد لحظة ، وهي لا تصدق أنها ليست سعيدة بما أخبرتها به هدى .. لا تصدق أن صوتًا يهدر بداخلها يصيح رافضًا ما قالته هدى .. إنها خائفة .. لا .. عايدة تشعر بالذعر .. لماذا أغضبها ما قالته هدى .. لماذا تتمنى ألا يحدث .. وبلا وعي ، نهضت عايدة لتقترب من هاشم ونظرت في عينيه الحائرتين وسألته:

هاشم .. أنت صحيح حتتجوز؟!

****

في الخامسة عاد بيتر إلى بيته ، بعد أن بكى بين ذراعي هاشم ، وهو يودعه .. وعادت عايدة مع آدم إلى ناين إلمز .

كانت عايدة حائرة تائهة .. كل قطعة في جسدها ترتعد .. لقد أخبرها هاشم أنه سيمر عليها في السابعة ليأخذها إلى العشاء .. قال لها إنه يرجوها أن تقبل .. قال لها إنه العشاء الأخير .. بل قال في تردد إنه إن شاءت سيحادث صلاح ليدعوه معها .. عايدة لم تقل لا ، ولكنها أيضًا كانت خائفة لا تعلم ماذا تفعل .. قد يعود صلاح إلى البيت في المساء ، قبل أن تعود .. لكنها أبدًا لا تستطيع أن ترفض دعوة هاشم .

إنه .. إنه العشاء الأخير!!

وبعد أن أعدت طعام صلاح ، وبعد أن ارتدى آدم بيجامته ، شحذت عايدة نفسًا عميقًا من صدرها لتخرج هاتفها الصغير ، وتطلب رقم صلاح ثم قالت:

صلاح .. أنا في البيت لسه راجعة من الشغل .. هاشم كلمني من شوية وعزمني على العشا .. هو حيعدي ياخدني ويرجعني .

وصاح صلاح في جنون:

إحنا مش حنخلص من الحكاية دي ..

وعادت عايدة تهمس في ضعف ، كأنها تتوسل إليه:

أرجوك .. أنا ما شفتوش من ساعة ما خرجنا سوا يا صلاح .. دا مسافر

بُكره .. مش حتأخر .. أرجوك .. أنا حضرت العشا وآدم .. آدم حينام .

وعاد صلاح يزأر على الهاتف قائلًا:

هو إيه ما عندوش دم؟!

وسقطت دموع عايدة لتقول من جديد:

صلاح .. دا مسافر بُكره .. أرجوك ..

وأغلق صلاح الهاتف ، دون أن يجيبها بكلمة ، وبكت عايدة في جنون .. إنها تكذب .. إنها مع هاشم كل يوم .. إنها حتى لا تذهب إلى المقهى .. إنها حتى لم تخبره أن «هاشم» دعاه معها .. إنها لا تريد أن يذهب معها .. إنها لا تريد سوى أن تلقاه وحدها .. إنها حتى حاولت أن تقول إن «هاشم» ابنها وأخوها كما اعتادت .. لكنها لم تستطع .. ما الذي يحدث .. ما الذي يدور في عروقها .. لماذا تكذب؟! لماذا حزنت عندما أخبرتها هدى أن «هاشم» سيخطب عند عودته .

ورفعت عايدة عينيها تنظر حولها في جنون ، لترى آدم يقترب منها ، ويضع كفه الصغير على وجهها قائلًا:

ماتخافيش يا عايدة .. أنا مش حفتح لحد .. انزلي اخرجي مع هاشم .. لما صلاح يرجع أنا حاحضر له الأكل .. دا مسافر بُكره .

وضمته عايدة إلى صدرها في جنون ..

نعم ستذهب .. في الغد ، وبعد سفر هاشم ستنظر عايدة بداخلها .. في الغد ستبحث عن أسباب حزنها ورفضها .. أمامها شهور طويلة تتخلص فيها من هذه المشاعر المجنونة التي تدق رأسها .. أمامها شهور طويلة تعود فيها إلى الصواب والعقل .. لكن يجب أن تذهب إلى لقائه .. إنها الليلة الأخيرة .. إنه العشاء الأخير ..

****

في السابعة كان هاشم ينتظرها أسفل بيتها في أحد تاكسيات لندن الجميلة، وهبطت عايدة إليه لتدخل السيارة إلى جواره .. كانت ترتدي جوب سوداء تنتهي بعد ركبتها بحوالي عشرة سنتيمترات ، وبها فتحة طولها أكثر من خمسة عشر سنتيمترًا ، تظهر منها ساقها وجزء كبير من فخذها الأبيض الرائع .. كانت ترتدي قميصًا أحمر داكنًا من القطن الرائع .. حذاؤها الأسود بكعبه العالي كان جميلًا ، وهي ترتديه على جوربها الأسود الشفاف .. شعرها الذهبي ، الذي اصطحبها هاشم إلى الكوافير بالأمس لقصه كان رائعًا .. عاليًا فوق رأسها من الخلف قصيرًا على بداية عنقها الطويل ، وأطول قليلًا على جنبات وجهها الأبيض الرقيق .

حتى سائق التاكسي نظر إليها في إعجاب كبير ، وهي تخطو لتدخل إلى السيارة .. كأنه لا يصدق أن امرأة كهذه تخرج من بيت كهذا ، أو تسكن حيًا مثل ناين إلمز ..

ووقف التاكسي أمام فندق الهيلتون المطل على حدائق الهايدبارك ، وتقدم أحد العاملين بالفندق ليفتح لها باب التاكسي، وشكرته عايدة ليمسك هاشم بكفها بين يديه ويدخلان الفندق معًا .. كان واضحًا أن كل عين تقف على وجهيهما تبتسم ، كما تبتسم كل الشفاه في وجوه العشاق ..

وجلس هاشم أمامها على طاولة مطعم الفندق الشهير ، ونظرت عايدة إلى النافذة الزجاجية الكبيرة التي على يسارها ، لترى حدائق الهايدبارك لأول مرة في المساء .. لقد رأتها في الصباح معه للمرة الأولى أيضًا ..

كل شيء رائع رأته عايدة مع هاشم ..

ميدان البيكاديلي .. حدائق الهايدبارك .. شارع أكسفورد .. لندن جلاس .. والآن الهيلتون .. الآن هذا المطعم الرائع .. آه لو يعلم هذا الساقي الأنيق أنها تحمل أطباق المأكولات والعصائر إلى سكان وزوار ناين إلمز كل يوم .. لو يعلم ما وقف ينظر إليها في هذا الانبهار ، ولما انحنى بكل هذا الاحترام ، وهو يضع قائمة الطعام بين يديها .

ومدت عايدة كفها بقائمة الطعام إلى هاشم ، وهي تقول:

أنا مش حاختار حاجة يا هاشم .. أنا أصلًا مش جعانة .. أنا مبسوطة يا هاشم .. سعيدة جدًا وحزينة جدًا ..

وأمسك هاشم بكفها وهو يقول:

أنا كمان قد ما أنا سعيد قد ما أنا حزين ..

وعادت تنظر إليه ، وهو يتحدث إلى ساقي المطعم من جديد .. لماذا تسمع ذاك الصوت يعلو في صدرها من جديد .. الصوت يقول أن «هاشم» ماعاد ذاك الطفل .. هاشم يثير في قلبها نبضًا جديدًا .. هاشم يحرك في عروقها دماء تصبح .. ولكن هاشم مازال يراها عايدة .. عايدة التي تكبره بأعوام .. عايدة أخته التي حملته على ذراعيها .. عايدة التي كانت تحكي له القصص والحكايات حتى دخوله المرحلة الثانوية .

أليس هذا ما قاله لتوني .. ولكن لماذا تشعر بشيء في عينيه .. شيء يقول إنه هو الآخر يراها كما أصبحت هي تراه ..

ورمت عايدة بعينها إلى الزجاج من جديد .. لا .. لن تستسلم للوهم .. استسلامها للوهم فيه حسرة كبيرة!

****

في الحادية عشرة خرجا معًا من باب الفندق ، ووقفت عايدة تنظر إلى هاشم في حيرة كبرى ، وهو يفتح لها باب التاكسي .. هل يعود بها إلى البيت .. هل انتهت الليلة الأخيرة بانتهاء العشاء الأخير ..

ودخلت إلى جواره في صمت .. سكتت في لحظة كل القصص .. كل الذكريات .. كل الأحاديث .. سكت كل شيء في لحظة كبيرة ، اسمها لحظة الفراق ..

وسأله قائد السيارة عن وجهتها ، وفي صوت خفيض ، قال هاشم:

نابن إلمز ..

وأدارت عايدة عينيها إلى النافذة .. ستعود .. سيتركها ..

وبعد لحظة سمعت عايدة «هاشم» يصيح قائلًا:

يا خبر يا عايدة .. أنا نسيت أديكي الـ«سي . دي» بتاعة مختار ابن دينا .

ودون أن ينتظر منها كلمة ، عاد يطلب من السائق التوجه إلى شارع أكسفورد ، وعندما وصل إلى باب الفندق ، قال لها:

دقايق يا عايدة .. أطلع أجيبهم .

واختفى هاشم لتبقى عايدة وحدها .. وبلا وعي .. بلا تفكير ، فتحت عايدة حقيبتها السوداء الصغيرة لتمنح قائد السيارة أجرته ، وهبطت من

السيارة لتدخل الفندق .. مازال بإمكانها أن تبقى معه لحظات أخرى .. مازال بإمكانها أن تعد له حقيبته ، كما كانت دومًا تفعل .. عايدة ستصعد إلى غرفة هاشم لتثبت لنفسها أنها واهمة ، وأن «هاشم» مازال طفلها وأخاها .

أليس من حقها أن تبقى مع أخيها الصغير ، الذي جاء من خلف كل هذه الأميال لحظات أخرى؟!

أليس من حقه عليها بعد كل هذه السعادة التي منحها لها ولآدم أن تعد له حقيبة السفر؟! وخرجت من المصعد في الدور السابع ، حيث أخبرها هاشم يومًا ووقفت تنظر حولها ..

ورأته قادمًا مسرعًا بخطواته ، وهو يحمل بين كفيه كيسًا ورقيًا بني اللون أنيقًا ، ووقف هاشم كأنه تجمد حين رآها تنظر إليه من بعيد .

واقتربت عايدة بخطواتها نحوه في هدوء لتسمعه يقول:

مالك .. فيه حاجة؟!

ورفعت عايدة عينيها تنظر إليه قائلة:

مافيش .. إنت اتأخرت .. قلقت عليك .. ننزل؟

وبصوت باكٍ كأنها ترجوه ، عادت تكمل:

أنا مشيت التاكسي يا هاشم!!

قالتها كأنها تستغيث به .. قالتها كأنها كانت تتمنى لو كان أقوى منها .. لكن ماعساه غريق يصنع لغريق ، فقال هاشم:

طب تعالي يا عايدة .. تعالي نقعد شوية .

ودخلت عايدة غرفة هاشم .. واقتربت من نافذة الغرفة تنظر إلى شارع

أكسفورد الطويل .. إلى مصابيحه الجميلة .. إلى أشجاره الرائعة ، ثم استدارت لتقول ، من خلف دمعة صغيرة:

هاشم أنا مش عايزاك تسافر ..

واقترب هاشم ليقف خلفها ، وينظر هو الآخر إلى شارع أكسفورد ، في حزن كبير ، ثم قال:

كلها أربع خمس شهور ، ونتقابل كلنا يا عايدة ..

وفي مصابيح الشارع البعيدة ، رأت عايدة ظلالا كل ما حاولت نسيانه في الأربعة أيام الماضية .. رأت نفسها في مقهى شودري من جديد .. رأت نفسها وحدها تخطو في تثاقل على جسر تشيلسي .. رأت نفسها بين ذراعي صلاح وتحت جسده ..

رأت نفسها دونه .. دونه .. عايدة لا تريد أن تحيا من دونه أبدًا .

ومد هاشم ذراعيه ليلف بها جسد عايدة قائلًا في حنان:

خدي بالك من نفسك يا عايدة أرجوكي ..

ولم تستطع عايدة أن تتمالك نفسها .. أجهشت في بكاء حاد عنيف ، لتعود برأسها على صدره ، ثم استدارت لتواجهه بعينيها ، ورأت في عينيه أطياف دمع ، عاد معها ذاك الصوت يهتف بها .. إنه يحبها .. إنها تحبه .. هاشم ليس أخاها وما كان يومًا .. هاشم رجل وعايدة امرأة .. امرأة لأنها تقف إلى جوار رجل يشعرها أنها حقًا أنثى ..

ودفنت وجهها في صدره كأنها تحاول الهرب من أفكارها .. من جنونها .. وشعر هاشم أنه ينهار وضع أصابعه الرشيقة بين طيات شعرها ، وعاد برأسها إلى الخلف ليقول ، وهو يبكي:

ماتبكيش يا عايدة أرجوكي .. أرجوكي ..

والتقطت عيناه شفتيها الورديتين المكتنزتين تنتفضان ، وهي تحاول أن تسكت نحيبها وبكاءها .. التقطت عيناه عينيها المغمضتين ، وشعر أنه لا يستطيع .. وانحنى بشفتيه يقترب من شفتيها ، وشعرت عايدة بشفتيه تقترب وسكت بكاؤها .. سكتت في أقل من لحظة كأنها ما كانت تبكي .. كأنها ما كانت أبدًا ترتعد كعصفور .. شعرت عايدة بأنفاس هاشم تقترب ، وشعرت بعصفور آخر يغني في عروقها .. هاشم يحبها .. هاشم سيقبلها .. هاشم سيأخذ شفتيها العذراء بين شفتيه .. ليس وهمًا أبدًا .. هاشم يحبها .

ولمست شفتاه شفتيها ، إلا أن «هاشم» صاح في ألم ، كأنه يصفع وجه قلبه .. صاح بعد أن وضع قبلة سريعة على شفتيها كتلك التي نضعها على شفاه الأطفال .. صاح يقول:

كفاية يا عايدة .. كفاية يا حبيبتي ..

وابتعد عنها هاشم لتفتح عايدة عينيها في ذهول .. ثم قالت في خجل كأنها تلملم كبرياءها:

سامحني .. مش قادرة اتخيل إن أخويا وابني وحبيبي حيسافر .

وأمسك هاشم بكفها قائلًا:

يللا يا عايدة نخرج من هنا .. يللا عشان ما نتأخريش .

****

في طريق العودة تسللت عايدة بكفها إلى كف هاشم لتضمه في هدوء .. ما قالت كلمة واحدة .. وما وقفت دموعها أيضًا لحظة واحدة ..

كان هاشم يشعر بغضب كبير في عروقه .. لماذا تركها .. لماذا لم يأخذها .. لماذا حتى لم يقبّلها؟!

خشي أن تكون لحظة ضعف .. خشي أن تفيق عايدة فتلومه .. خشي أشياء كثيرة ، ولكن هو غاضب غاضب .. لكنه أيضًا يعلم الآن أن عايدة تحبه والتفت ينظر إليها ليجد يدها اليمني تعبث بسلسلة ، كانت مختبئة خلف قميصها الأحمر ورآها تخرجها بأصابعها وتضمها ، وشهق هاشم شهقة صغيرة ..

إنها ذاك الهلال الذي أهداها إياه .. لم يكن يعلم أنها مازالت ترتديه .. كان دومًا يرى السلسلة ، ولكنها للمرة الأولى التيَ يراها تخرجها من خلف ملابسها ؛ ليعلم أنها تضم هديته إلى صدرها ، وستبقى العمر تفعل .

ودخل هاشم بها باب المنزل الذي تسكنه .. لن يتركها أبدًا تخطو وحدها ولو خطوة واحدة في نابن إلمز .. ونظرت إليه عايدة من خلف دموعها ، وكفها مازال بين كفه ، وقبل أن تصعد السلالم ليعود هاشم إلى التاكسي ، الذي كان يقف في انتظاره ألقت برأسها على صدره ؛ ليعلو صوت بكائها من جديد وقالت كأنها تئن .. كأنها تصرخ:

أنا بحبك يا هاشم بحبك ..

وعاد هاشم إلى السيارة في صمت ، وأغلق بابها لتنطلق دموعه في حزن مجنون ، وأخذ ينظر من زجاج نافذة السيارة ، وهي تغادر حي نابن إلمز ، ثم قال بعد لحظات:

وأنا كمان .. فوق ما تتصوري!!

****

الآن فقط علمت عايدة كيف يكون شعور المحكوم عليهم بالإعدام .. الآن وفي هذه اللحظة التي تخطو فيها على سلالم البيت بعيدًا عن هاشم ، علمت عايدة أن الخطوات التي يخطوها المحكوم عليه بالإعدام نحو المشنقة هي أكثر ألمًا من لحظة الموت نفسها ..

الآن علمت أن ابتعادها عن هاشم وصعودها على سلالم البيت .. إلى صلاح .. إلى حياتها التي ظنت أنها اعتادتها قبل حضور هاشم ، هو الألم بعينه.

وعادت تنظر خلفها .. هل تهبط مرة أخرى .. قد يكون هو الآخر مازال في التاكسي .. بل ربما يعجز سائق التاكسي عن أن يدير محرك سيارته ، ويبتعد بهاشم عنها .

لكنها نكست رأسها ، وهي تحاول أن ترى موضع قدمها .. لا شيء تراه سوى صور تهتز خلف جيوش دمعها .. هاشم رحل .. هاشم بعد ساعات ستحمله طائرة ما بعيدًا عنها .. هاشم سيعود بعد أربعة شهور .. لكنه سيعود وأصبعه مشنوق بدبلة كالتي تشنق أصبعها .

ما الذي حدث؟! .. عايدة لا تبكي هاشم الأخ الذي نشأت معه .. عايدة تشعر أنها تبكي نفسها بعد رحيله .. عايدة تشعر أن أنثى تصرخ بداخلها في جنون .. أنثى تسأل في لهفة لِمَ لم تكتمل قبلة هاشم على شفتيها .. أنثى تصيح وتسألها في عنف .. كيف ينتفض جسدها لمجرد أن شفتي رجل اقتربت منها ، ولا ينتفض جسدها ، وصلاح يقتحمها ويضاجعها .

ومسحت عايدة دموعًا أخرى كثيفة ، سقطت على وجنتها ، وهي تقف أمام باب البيت الخشبي المتسخ لتهز رأسها في عنف .. عايدة تحب «هاشم» .. نعم .. تحبه .. ولكن هل هو يحبها .. لِمَ ابتعد عن شفتيها إذن .. هل كانت لحظة ضعف ، أفاق منها قبلها ليعود بها إلى الحقيقة .. قد تكون عايدة لا شيء في قلب هاشم ، سوى تلك الفتاة التي فتح عينيه على وجودها في بيته ، إلى جوار أمه وأبيه .

وأخرجت عايدة المفتاح من حقيبتها ، لتضعه في ثقب الباب ، وهي تهز رأسها في عنف .. إن لم يكن هاشم يحبها ، فهي اليوم علمت أنها تحبه .

نعم .. هي تحبه!!

وانتفض جسدها ، وهي تدخل إلى البيت ، لترى «صلاح» يجلس على الأريكة السوداء ، وينظر إليها في غضب كبير ، صاح بعده قائلًا:

خلاص .. سافر حبيب القلب؟!

كان صعبًا أن تستطيع إخفاء دمعها .. كان صعبًا أن ترفع رأسها .. فراق هاشم قطع رأسها من جذوره ..

ونظرت عايدة إليه لتقول في انكسار كبير:

آسفة إني اتأخرت .. هاشم حيسافر بكره الصبح .

وعاد صلاح يصيح في جنون ، كأنه لا يبالي بآدم النائم إلى جواره على الأريكة قائلًا:

الصبح .. إحنا بقينا الصبح يا هانم ، وإيه اللي في إيدك دا ..

ومدت عايدة يدها بالكيس الورقي الصغير ، الذي منحها إياه هاشم لتقول:

«سي دي» بتاعة فرح دينا وابنها مختار ، وكأنها حاولت أن تطفئ نارًا فأشعلت نارًا أخرى ، عندما مد صلاح يده داخل الكيس الورقي الصغير لتخرج يده بصندوق صغير أنيق ، شهقت عايدة عندما رأته بين أصابعه وفتحه صلاح ، وهو يصيح في جنون أكبر:

دي ساعة يا هانم .. ساعة شوفي .. يا تري سي هاشم اشترى إيه بكل الهدايا دي؟!

وقذف بالصندوق في وجهها ليدخل إلى غرفته .. وانحنت عايدة تلتقط الصندوق الصغير .. إنه من اللون البني الداكن، ونقشت عليه حروف باللون الأسود لماركة جوتشي الشهيرة .. وعندما فتحته من خلف دموعها ، وجدت ساعة أنيقة من اللون الأبيض ، وعلى حلقاتها نقشت حروف جوتشي .. إنها أحدث ساعة أنتجتها دار جوتشي .. إن عايدة حتى لا تعلم أين يمكنها أن ترتدي ساعة بهذه الأناقة .. وعادت تنظر إلى داخل الكيس الورقي لتجد ورقة صغيرة ، تغفو إلى جوار الـ «سي دي» التي ظنت أنه وحده هناك .. وجلست عايدة كأنها تسقط إلى جوار قدمي آدم الصغيرتين ، وهي تقرأ كلمات هاشم التي قال فيها:

عايدة ..

من باريس اشتريت لك هذه الساعة .. اشتريتها لتخبرك أنني في كل لحظة، وفي كل دقيقة أدعو الله لك بكل السعادة ..

عند حضوري في المرة القادمة ، أتمنى أن أراها في معصمك الجميل .. أتمنى أن تخبرك عقاربها أن فراقك سم كبير ، ولكن يبقى الأمل في لقائك ترياق القلب .

هاشم ..

****

هاشم ..

أنت لم تأت محملًا بالهدايا .. لم تأت بالأمل ولا جئت تحمل رائحة ذاك البيت ، الذي أذوب عشقًا وشوقًا إليه ..

أنت جئت بعصا سحرية ، أبعدت عن سماء لندن غيومها .. أنت جئت بعصا سحرية جعلت من تايين إلمز قطعة من الجنة .

من يزعم أن بلدًا على الأرض ليس جميلًا .. من يزعم أن شجرة على الأرض ليست مثمرة .. من يزعم أن زهرة على الأرض لا لون لها أو رائحة .. هو إنسان مسكين لا يد تحنو عليه ولا قلب يشاركه الطريق ..

كنت أظن مصر وحدها أجمل بلاد الأرض .. كنت أظن أن لندن وحدها أكثر بلاد الله ظلمة ووحشة .. ولكن بك مصر كانت جميلة ، وبك لندن أصبحت قطعة مسحورة من الجنة ..

بعد رحيلك عاد كل شيء كما كان .. عادت غمائمها الرمادية تكسوها .. عادت شمسها تغفو في الكسل والملل ؛ ليكسو غيابها قلبي وروحي بالحزن والدمع ..

سأنتظر عودتك .. سأنتظر رسائلك ..

لندن بأكملها ستنتظر معي ، لتعود أجمل وأبهى بلاد الأرض ..

على صدري سيبقى هلال كبير ، وعلى يدي سأضع ساعة إن لم تعد .. إن لم تكتب .. إن لم تحنو ستقتلني عقاربها ..

ظننت يومًا أنك في قلبي .. لكنني اليوم علمت أن قلبي فيك!!

عايدة

****

وضع منعم قبلة صغيرة على رأس هدى ، وهو يصيح مناديًا «هاشم» أن يلحق به إلى السيارة في طريقهما إلى المكتب، وخرج هاشم بعد خروج منعم بلحظات لينظر إلى هدى ، وهي في ملابس الخروج قائلًا:

انتو نازلين دلوقتي يا مامي؟!

وفي هدوء ، أجابت:

أيوة .. ميعادنا مع الدكتور دلوقت يا هاشم ، ودينا مش حتقدر تسيب «مختار» مع صباح لوحده لأنه سخن ، وحسن عند سيادة اللوا باباه ..

وانحنى هاشم يقبلها في حنان ، لكنها قالت في رنة غضب:

لما أطمئن على نجوى إن شاء الله ، حيكون بينا كلام كتير يا هاشم .. انزل دلوقت باباك مستنيك في العربية .

لوح هاشم لها وهو يركض نحو الباب ، كأنه يهرب منها ، وألقت هدى برأسها على المقعد ، الذي تجلس عليه في انتظار نجوى لتأخذها من دينا ، وتذهب معها إلى الطبيب .

إنها حزينة .. إنها غاضبة وخائفة .. حزينة على نجوى ، وحزينة على حزن دينا ، وهي ترى أمها تراهم في أحيان كثيرة ، كأنهم غرباء لا تعرفهم .. حزينة على عصبية حسن ، التي بدأت تزداد ، بعد أن فقد عمله في الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت البلاد .. حسن في عناده يرفض القبول بعمل آخر أقل من عمله في شركة البورصة ، التي أغلقت أبوابها .. حسن يزداد جنونًا من نجوى والأخطاء الكثيرة ، التي بدأت ترتكبها في نوبات مرض الزهايمر ، الذي بدأ يتغلغل في عروقها معظم الوقت ، حتى عايدة هي الأخرى تغيرت كثيرًا منذ سفر هاشم إليها .. لا تحادثها هدى أبدًا ، إلا وتجدها تبكي وهي تسأل في جنون متى يحضرون؟ متى تمر الأيام ، ويأتي موعد لقائهم .. عايدة

في كل مرة ، وقبل إغلاق الخط تسألها عن هاشم .. لماذا لم يخطب؟ لماذا أجّل هذا المشروع الذي أخبرتها عنه هدى ، يوم كان معها في لندن؟! وفي كل مرة تخبرها هدى أن المشروع مازال قائمًا ، ولكن هناك أمورًا تضطرهم إلى التأجيل قليلًا وستخبرها بها عند رؤيتها .

هدى حزينة لأنها تكذب على عايدة .. هاشم أعلن أنه لا يريد الزواج أبدًا في الوقت الحالي .. هاشم يتذرع بأنه غارق حتى أذنيه في الملفات والقضايا مع والده .. هاشم يقول إنه يريد أن يمسك بيده كل الخيوط في مكتب والده الدكتور منعم صادق ، قبل أن يبدأ في إعداد رسالة الماجستير ، ولكن هدى تعلم أنه غارق أيضًا في رسائل عايدة .. أصبح الاثنان يتبادلان الرسائل على المحمول ، وعلى الكمبيوتر في جنون .

ما يغضب هدى ويخيفها حتى الموت أن «هاشم» أصبح لا يتحدث عن عايدة أبدًا .. كأنه يكتفي برسائلها ، أو كأنه يخشى أن يتحدث فتعلم هدى شيئًا لا يريدها أن تعلمه .

ما الذي أصاب عايدة .. إنها تحيا في أحد أجمل بلاد العالم ، ومعها طفل يحبها .. طفل رائع جنت به هدى ، حين أراها هاشم صوره الكثيرة التي التقطها لهم حين كان معهم .. بل حتى صلاح نفسه .. لقد أخبرها هاشم أن عايدة سعيدة معه .

لماذا تبكي عايدة إذن؟! لماذا تسأل عن هاشم في كل مرة بكل هذا القلق ، وكأنها تكره فكرة زواجه؟!

وعادت هدى تنكس رأسها في حزن .. وجيعة قلبها هذا الهاشم الأحمق .. شاب بكل هذا البهاء والوسامة .. شاب يكاد يتربع على مقعد والده الدكتور منعم صادق ، أحد أكبر محامي الدولة ، وأحد مستشاري رئاسة الجمهورية ،

يعود ليسجن نفسه بين العمل وأوراق الماجستير ، ويسحق أصابعه كل مساء وصباح في الكتابة إلى عايدة ..

كم مرة تراه هدى يترك طعامه ليقرأ رسالة ترسلها إليه .. أحيانا يبتسم ويخبرهم أنها منها ، وأحيانًا كثيرة يقول إنها من أحد زملائه .

لكن هدى تعلم أنه يكذب .. هدى تعلم أن «هاشم» يجب أن يخرج من هذه الدائرة .. يجب أن يسعد ، كما يجب أن تسعد دينا وعايدة ..

دينا أيضًا يجب أن تتخلص من شعورها الكبير باستهتار حسن وقسوته في الحكم على نجوى .. دينا يجب أن تكون أكثر رحمة به ، بعد أن أصبح بلا عمل .. دينا أيضًا أصبحت أكثر عصبية من خوفها على نجوى ومن تصرفاتها الضائعة .

الحمقى الصغار يجب أن يتخلصوا من أوهامهم ؛ ليعرفوا كيف يهنأوا بكل الهدايا التي منحهم إياها القدر ، قبل أن يسلبها منهم عقابًا لهم .

ماذا يعرفون عن الألم الحقيقي .. ماذا يعرفون عن العذاب؟ دينا التي تبكي لإغلاق شركة البورصة منذ شهور .. ماذا تعرف عن الألم الذي عاشته هدى حتى بلوغها الأربعين دون إنجاب .. ماذا تعرف عن ألم نجوى بعد رحيل مختار وقيامها بدور الأم والأب معًا ..

ماذا تعرف عايدة عن امرأة مثل نجوى في لحظة ، تجد نفسها في بيتها غريبة تخشى وجوه أقرب الناس إليها ، ولا تعرف من هم أو بماذا يشعرون .. امرأة أصبحت تعامل بكل الحذر كالأطفال ، وتُغلَق خلفها الأبواب خوفًا من أن تخرج ولا تعود .. امرأة كانت يومًا رجلًا وامرأة .. كانت يومًا أبًا وأمًّا وجدة ، وفي لحظة تصبح كالطفل الرضيع ، لا تعلم من هي وأين تكون؟!

ألا يكفي عايدة أن «صلاح» لا يخونها .. ألا يكفيها أنه حملها بعيدًا عن عزبة الشال ، وعن شلبية التي تعرف هدى دناءتها جيدًا بعد عملها معهم أعوامًا كثيرة .. لما تبكي إذن؟!

لو تعلم هدى كيف تخبرهم أنهم لايعلمون شيئًا عن التعاسة الحقيقية التي ذبحت قلوبًا كثيرة حولهم .. فقط لو تستطيع!! لكنها لن تيأس .

هدى لن تيأس أبدًا حتى تراهم سعداء .. ستقف إلى جوار دينا ستخبرها دومًا عن ذكريات هدى مع الألم .. مع استجداء طفل حتى جاءها هاشم ..

هاشم أيضًا لن تكف هدى أبدًا عن مطاردته بالأسماء والوجوه ، ويومًا سيجد هاشم اسمًا أو وجهًا يتخلص معه من أوهامه .. هاشم متزن بار يعشق هدى ، ويسعى دومًا إلى إرضائها وسيفعل .. ويومها سيعلم أن أعوامًا ضاعت منه في وهم كبير ، اسمه عايدة .

عايدة نفسها لن تتركها هدى حتى تعود بها إلى الصواب .. عندما تراها ستأخذها بين ذراعيها ، وتحدثها عن صلاح ، وكيف أنه هدية الهدايا إليها رغم عيوبه .. رغم مظهره .. رغم كل ما قد يكون فيه ، لكنه يبقى هدية السماء إلى اليتيمة الرقيقة .. أليس وجودها معه أفضل آلاف المرات من بقائها في المنصورة؟!

هدى ستعلم كل ما يدور في رأس عايدة ، عند لقائها بعد شهور قليلة ، وإن كانت معاناة عايدة نقودًا .. هدى ستمنحها وديعة ، تضعها باسمها في أحد بنوك إنجلترا لتعينها على الحياة ، وعلى تربية الصغير .. هدى ستكسب ثوابًا بتربيته كما فعلت مع عايدة يومًا .

هدى لن تترك أطفالها يعبثون مع أقدارهم بعد أن أسعدتهم .. هدى ستعود بهم إلى العقل وإلى السعادة ، قبل أن تهرب السعادة يأسًا منهم ومن حماقاتهم ..

ورفعت هدى صوتها قائلة:

أنا جاية يا دينا .. جاية .

ونهضت عن مقعدها ، وهي تحمل حقيبتها لتتوجه إلى الباب ، الذي سمعته يدق وهي غارقة في أفكارها ، وعندما فتحته أطل وجه دينا الشاحب ومن خلفها رأت نجوى تقف، وما أن نظرت في عين دينا حتى ضمتها في حنان ، وهي تقول:

إن شاء الله يا دينا خير .. روحي يا بنتي لابنك واهدي يادينا ..

وألقت دينا برأسها على كتفي هدى ؛ لتبكي في مرارة شديدة ، واستدارت نجوى تربت على كتفي دينا وهي تقول:

حسن بقى صعب جدًا يا هدى .. أنا واللي ياعمله من ناحية ، وحسن وعصبيته من ساعة ما ساب الشغل من ناحية تانية .. لكن والله مش بايدي يا هدى .. مش بايدي يا دينا ..

ابتعدت دينا عن ذراعي هدى ؛ لتضم نجوى في حنان ، وهي مازالت تبكي وقالت:

لا يا حبيبتي أنت اللي تسامحيني وسامحي «حسن» .. أرجوكي يا ماما تعذريه .. هو كمان مخنوق .. عشان خاطري ماتزعليش منه ..

أمسكت هدى بكف نجوى بين يديها ، ليخطوا نحو المصعد ، وقالت في حنان:

أنا ونجوى يا دينا كل اللي يهمنا سعادتكم يابنتي .. خلي بالك من جوزك وابنك .. خدي جوزك واخرجوا لما مختار ينام يا دينا ، وأنا مع نجوى ماتخافيش يا حبيبتي .. ولما نرجع حنكلمك ونطمنك .. حسن محتاجلك يا دينا ..

****

دخلت دينا إلى بيتها لتستند على بابه المغلق في تهالك واضح .. يحزنها ألا تذهب مع نجوى إلى الطبيب .. مختار الصغير حرارته مرتفعة ، ولكن ليس هذا هو السبب الحقيقي .. السبب الحقيقي هي الحمى التي تسيطر على عروق حسن .. منذ أغلقوا شركة البورصة ، وهو عصبي ، لا يترك البيت ولا يكف هو الآخر عن إصدار التعليقات اللاذعة على نجوى وتصرفاتها ..

وسقطت دمعة من عين دينا .. نجوى أصبحت تنسى كثيرا .. بالأمس كادت تتسبب في إشعال حريق .. أشعلت موقد الغاز ونسيت إناء الطبخ عليه حتى جف ، لولا صياح الخادمة دخلت إلى المطبخ لتجد الإناء يكاد يشتعل .. كل ما في البيت وكل من فيه يكاد يشتعل .. وحدها تلك الساعات القليلة التي تقضيها في العمل اصبحت أكثر ساعات يومها هدوءًا واستكانة .. لكن دينا دومًا تعود لتجد ألف قصة مشتعلة من قصص الزهايمر نجوى وعصبية حسن ومشاكل مختار .. لو كانت عايدة هنا ، لربما كان الأمر أفضل ، ولكن عايدة هي الأخرى يشتعل قلبها خوفًا ووحدة وشوقًا إليهم ..

وأفاقها صوت حسن قادمًا من غرفته لتدخل دينا إليه ، ومازال على خديها قطرات من دمعها ، ونظر حسن إليها في إشفاق لينهض عن فراشه، ويتقدم نحوها ، ويأخذها بين ذراعيه قائلًا:

دينا حبيبتي .. أنا قلتلك روحي مع طنط نجوى وطنط هدى .. أنا حآخد بالي من مختار وأديه الدوا ..

وضغطت دينا نفسها إلى صدره بقوة ، وقالت:

حسن .. حسن أنا محتاجالك قوي .. فيه إيه؟!

حسن الدنيا ما خلصتش عشان سبت شغلك .. أنا باشتغل وأنت محوش فلوس كتير يا حسن .. حسن تغور الفلوس في داهية .. فيه إيه؟ ليه كلنا بنغلي .. ليه كلنا بنفور يا حسن فيه إيه؟!

وضمها حسن إلى صدره بكلتي ذراعيه لحظات طويلة ، ثم أجهش في بكاء حاد ، أصاب دينا بالذعر والألم لتأخذه بين ذراعيها ، وتخطو به إلى فراشها وجلست جواره لتأخذ رأسه على صدرها ، وأخذت تربت على ظهره في حنان ودهشة التهمت دمعها وجففت خديها المبللتين ، وبعد أن هدأ قليلًا ابتعدت برأسه عن صدرها ؛ لتنظر في عينيه قائلة:

حسن .. فيه إيه؟! أنت متضايق عشان أنا باروح الشغل ، وأنت بتقعد مع ماما .. انزل يا حسن ملكش دعوة بيها .. أخرج مع أصحابك .. والله العظيم لو ينفع أنا ، كنت أسيب الشغل وأقعد بيها وبمختار وأمشّي صباح .. لكن إحنا لو قعدنا نصرف من الفلوس ، اللي أنت محوشها ، حتخلص إحنا مانعرفش بكره فيه إيه وماما حالتها حتوصل لغاية فين يا حسن ..

ورفع حسن عينيه في ألم ليقول لها ، وكأنه ضاق صدره بما يخفيه:

دينا .. أنا ماعنديش ولا مليم .. أنا في مصيبة ..

وشهقت دينا لتنظر إليه قائلة:

إيه؟ بتقول إيه يا حسن .. الفلوس راحت فين .. أنت كنت بتقبض بالعمولات قرب العشرين ألف جنيه كل شهر .. أنت كنت محوش أكتر من ربع مليون جنيه .. الفلوس راحت فين يا حسن؟ راحت فين ..

وأجهش حسن في البكاء مرة أخرى ليصيح قائلًا:

لا يا دينا أنا كنت محوش نص مليون جنيه .. نص مليون ..

وفي ذهول عادت دينا تقول:

راحو فين يا حسن .. مصيبة إيه؟ اتكلم .. أرجوك اتكلم ..

بعد لحظات تردد طويلة تحدث حسن .. تحدث إلى دينا كأنه يشق قلبه العاري بنصل سكين الحقيقة الحاد ليريها ما يخفيه .. منذ طالت الأزمة الاقتصادية كل شيء ، وضربت أسواق البورصة والمال ، ومنذ أغلقوا الشركة التي كان يعمل فيها بنجاح كبير ، وهو لا يعلم ماذا يفعل ..

أخبرها أنه وضع كل ما أدخره مقدمًا لثمن ڤيلا بأحد كومباوندات أحمد عرابي بمنطقة العبور .. أخبرها أنه يدفع أقساطًا ربع سنوية تقدر بخمسين ألف جنيه .. أخبرها أنه كان يعد لها مفاجأة .. أخبرها أنه كان يحلم بأن ينتقل للحياة بها هي ومختار ، بعيدًا عن الزحام والضوضاء .. أخبرها أنه كان يحلم أن يحيوا جميعًا في ڤيلا واسعة ، لها حديقة وحمام سباحة .. أخبرها أنه فعل ذلك لإسعادها ولإسعاد ابنه .. أخبرها أنه كان يرى أنهما يستحقان حياة أفضل في مكان أفضل .. من يحيون في الڤيلات ويستمتعون بالكومباوندات ليسوا أفضل منهم في شيء ، ولكن هو الآن في مأزق كبير ..

هو الآن عاطل بلا عمل .. وأي عمل سينجح في الحصول عليه لن يغطي أبدًا الأقساط المطلوبة .. إنه يختنق .. ونظرت إليه دينا في لوم كبير ، وقالت بصوت هادئ:

كل دا ليه؟ ليه يا حسن .. أنا عمري ما فكرت أسيب شارع نهرو .. أنا طول عمري باقولك إني ماأقدرش ابعد عن هنا .. هنا جنب شغلي .. جنب طنط هدى وهاشم وأنكل منعم .. وماما .. ماما ياحسن ليه عمرك ما فكرت فيها؟!

وقاطعها حسن قائلًا:

طنط نجوى كانت حتيجي تعيش معانا .. أنا كنت بافكر أن بابا كمان يروح معانا .. يبقى عندنا بيت كبير ، يلم أبويا وأمك وولادنا يا دينا ..

وعادت دينا تقاطعه في حدة:

ومين قالك إنهم عايزين أو حيوافقوا .. أنكل عبد الكريم حيسيب شغله وصحابه والنادي ، ويروح يعيش في منفى .. في مصحة .. الكومباوندز دي عاملة زي المصحات النفسية اللي بيرموا فيها العيانين .. أنا وأنت عارفين إن ماما مستحيل تسيب هنا ، ولا أنت بتعمل كدا عشان اضطر أسيبها لوحدها وابقى قدام الأمر الواقع .. فيه إيه ياحسن؟! فيه إيه؟!

واحتد حسن قائلًا:

كفاية ظلم بقى ، والله أنا عامل حسابي إنها تعيش معانا ..

وعادت دينا تصرخ:

أمي لا هي حتعيش ولا أحنا حنعيش .. رجع الڤيلا وخد المقدم ولا حتى يخصموا منها أي حاجة .. خلاص الحكاية بسيطة ..

ونهض حسن عن فراشها صائحًا:

مستحيل .. مش حارجعها ولا حاعرضها للبيع .. حاخسر .. السوق العقاري كله نام يادينا في هوجة الأزمة الاقتصادية ، وأنا بيتي مش للبيع .. مش للبيع يادينا .. مش للبيع؟!

وعلا صياحها أكثر ، وهي تقول:

يبقى تبيع إيه؟ الڤيلا تمنها كام ياحسن ،

في ألم أرخى حسن رأسه ، وهو يقول:

مليون ونص .. دفعت النص «مقدم» ودفعت «قسط» منهم خمسين ألف جنيه .

وقاطعته دينا ، وهي تصيح:

يعني الباقي مليون جنيه .. مليون جنيه نجيبهم منين ياحسن - يعني كل شهر تقريبا خمستاشر ألف جنيه .. منين وأنت حتى ما بتحاولش تدور على شغل؟!

وأمسك حسن بكلتي ذراعيها بين كفيه ، وعاد يصيح:

مين قال .. مين قال .. أنا مابقومش من على الكمبيوتر طول مانت في الشغل .. أبعت إيميلز وأعمل مكالمات .. أنا بدور .. بس عايز شغل يغطي الأقساط ويغطي مصاريف البيت ..

وحررت دينا ذراعيها من كفيه لتنفضهما في غضب ، وترتمي على فراشها وهي تبكي قائلة:

أنت مجنون .. دا البنوك والشركات بتقفل وتسرح الموظفين .. حتلاقي شغل بمبلغ زي دا فين يا حسن .. هي دي آخرة الأنانية والقرارات الفردية!

****

هاشم:

الشتاء يتسلل في عنف إلى جنبات لندن .. و كلما أعلن عن ظهوره زاد خوفي وألمي .. الشتاء يعني أن «ماري» قد تظهر لتأخذ «آدم» .. قدوم الشتاء معناه أن الفراق قادم .. هل يذهب آدم! هل يتركني وحدي؟!

أعلم أنه من الجنون والخطأ أن أستبقيه إن جاءت أمه ، ولكن أعلم أيضًا أنه من المستحيل أن أحيا بدونه .. من سواه بعدك يضمني؟! من سواه يمسح دمعاتي؟! مع من سواه سأتحدث عنك؟! مع من سواه أستعيد أيامنا وضحكاتنا وركضنا تحت سماء لندن؟!

الشتاء قادم يا هاشم وقدومه يعني الفراق .. أنت أيضًا ستأتي في الشتاء .. ستأتي لتبقى أيامًا ، ثم ترحل من جديد .

كيف أتدفأ وأرتوي بعد كل هذا الظمأ ، ثم في لحظة يلقي بي فراقك إلى الجليد وحدي من جديد!!

الشتاء هذا العام معناه أيام قليلة دافئة حانية معك ومع آدم .. لكنها أيام تتبعها أيام طويلة موحشة مخيفة مع الفراق .

آه لو أعلم كيف أقول لك لا تحضر .. آه لو أعلم كيف أحل آدم بنفسي إليها ..

قد يكون الموت صعبًا ، ولكن يبقى انتظاره الصعب الكبير ..

أريدكما معًا وأعلم أنه من الغباء والجنون والظلم أن أستبقيكما ..

يارجل القانون والعدل ، أخبرني أينا الظالم وأينا المظلوم ..

هاشم ..

ساعدني أرجوك!!

عايدة

****

وضع آدم رأسه الصغير على كتفي عايدة ، التي كانت تجلس إلى جواره ، وهو يؤدي واجباته المدرسية ؛ ليقول في صوت حزين:

هو هاشم حيتأخر قد إيه يا عايدة؟!

ورفعت عايدة طرف عينها ، تنظر إلى صلاح الذي كان يتناول عشاءه على الطاولة ، وظهره لهما معًا ، ثم قالت في صوت خفيض:

يمكن ييجوا على شهر فبراير يا آدم .. أنكل منعم عنده شغل مهم –

ونكس آدم رأسه في صمت .. أسابيع ويأتي العام الجديد .. قد تأتي ماري هذا العام .. قد تعود ماري .. أمه قد تعود .. وسرت رعشة في جسده ، شعرت بها عايدة لتحكم ذراعيها حوله في قوة أكبر .. هل هو حزين مثلها لتأخر حضور هاشم .. لو لم يكن صلاح يجلس معها ، لتحدثت معه أكثر، ولكن صلاح يكره الحديث عن هاشم .. صلاح دومًا يقذف إلى أذنيها بأبشع الألفاظ ، إن لاح اسم هاشم يومًا على شفتيها .. حتى أنها ما عادت تفتح هاتفها الصغير وصلاح في البيت ؛ حتى لا تأتيها منه رسالة ، ويُسمعها تعليقاته الجارحة .. وعاد آدم على غير عادته في الحديث أمام صلاح ، يقول لها:

أنا عايز أبعتله إيميل يا عايدة ..

وأمسكت عايدة بكف آدم تضغط عليها ، كأنها تتمنى لو تخبره أن يسكت .. لا تعلم ماذا أصابه .. آدم لا يتحدث أبدًا وصلاح معها ، ولكن ربما ظن

الصغير أنه لا يسمعها مادام وجهه يواجه الحائط الآخر، وفي لحظة حدث ما تخشاه عايدة .. انتفض صلاح واقفًا عن المائدة في غضب؛ ليتقدم نحوهما، وهو يمسك بذراع آدم ويصيح:

مش عايزك تجيب اسمه على لسانك .. هو هاشم دا أخوك ولا أبوك .. ما تتنيل تدور على أمك اللي رمتك وجريت .

وضاعت ملامح عايدة في لحظة من وجهها خلف خوفها ودهشتها، لكنها دون وعي صاحت:

فيه إيه يا صلاح؟!

وأطلق صلاح ذراع آدم من بين أصابعه؛ لينظر إليها في غضب أكبر، وهو يصيح:

سممتي مخ الولد بالزفت بتاعك .. هو إيه؟! إنت عايشة حياتك ياتبعتيله جوابات يا بكلمك .. بتتكلمي عنه .. ما كان قدامك وكنت قدامه .. سايبك ليه .. رموك ليه .. بقيت حلوة دلوقت، ولا بقيت سهلة يا عايدة عشان بقيتي ست؟!

ولم تحتمل .. لم تحتمل أبدًا، فصاحت في ألم:

أسكت .. إيه اللي بتقوله دا؟!

وفي قسوة وجنون، عاد صلاح يصيح:

أنت فاكراني ما عرفش حاجة .. فاكراني نايم على وداني .. دا أنا عرفت حريم عدد شعر راسك دا .. اتلمي يا عايدة وابعدي ابني عن الموضوع دا .

لكنها لم تسكت، بل عادت تقول في جنون:

صلاح .. هاشم دا اخويا .. دا أصغر مني .. دول أهلي يا صلاح ... أنا ماليش غيرهم .. ليه .. ليه يا صلاح؟؟

وابتسم في سخرية، وهو يصيح:

أملك؟! أخوكي؟! أخوكي .. فين الأخ اللي يجيب كل الهدايا دي .. فين الأخ اللي ياخد أخته وابن جوزها، ويسرح بيهم طول النهار فسح وهدايا .. فين الأخ اللي ترجع أخته وش الفجر .. ماكياجها سايح وبتعيط، بعد ما حط في إيدها الأجرة ساعة بكم ألف .. أنت فاكراني عبيط ولا إيه؟!

كانت عايدة واجمة، كأن صاعقة كبيرة ضربت بجسدها ..

كيف علم أن «هاشم» كان يخرج بها هي وآدم كل يوم ..

لم تخبره عايدة أبدًا .. هل يخمن؟! هل كان يتجسس عليها .. لاتعلم، ولكن ما تعلمه أن «صلاح» يفعل أي شيء وكل شيء، وعاد صوته يعصف بها أكثر، وهو يقول:

عليًا الطلاق ما هو داخل البيت دا تاني .. ولا أنت تشوفيه .. اسمعي آخر كلام عندي الناس دي لو طبت البلد، ترجعي معاهم .. فاهمة؟!

وفتحت عايدة شفتيها في ذهول قائلة:

إيه؟!

وعاد صلاح يصيح قائلًا:

اللي سمعتيه .. اللي سمعتيه .. كلميه وفهميه إنه لو جاي هو، ولا حتى الهانم أمه والدكتور أبوه، حتبقي طالق يا عايدة .. فاهمة؟!

وصفق صلاح باب غرفة النوم خلفه ليجهش آدم في البكاء .. لقد فهم كثيرًا مما قاله صلاح .. آدم بدأ يفهم الكثير من اللغة العربية، بل إنه حتى بدأ يتحدث بها قليلًا، وقال بصوته المرتعش:

أنا آسف يا عايدة .. أنا السبب ماكنتش عارف أنه سامعني .. ما كنتش أعرف أنه .. أنه بيكره هاشم كدا ..

كانت عايدة تنتفض خوفًا وذعرًا .. عايدة تحتمل كل شيء على الأرض إلا أن يقتل صلاح أملها في حضور هاشم .. في لقائه .. في رؤيته .. ما تراها تصنع أو تفعل .. هل هي ثورة عابرة ، وينسى صلاح ما قاله .

وهزت عايدة رأسها .. فليطلقها كما قال .. من قال إنها تريده .. ستعود معهم .. ستعود عايدة معهم ، ولكن أيضًا من قال إنهم يريدون عودتها .. إن هدى كلما حادثتها ، توصيها بزوجها وبيتها .. هدى في كل مرة تحادثها تخبرها بشكل أو آخر أنه ما عاد لعايدة مكان سوى بيت زوجها .. لقد قالت لها مرة إن نار صلاح أكرم لها من جنة الحياة بعيدًا عنه .

لن تعود إذًا .. فليطلقها صلاح وستبقى هنا وحدها .. ستبحث عن غرفة تسكنها وحدها .. لقد رفع شودري مرتبها .. وهي في عطلة كل أسبوع ، تبحث عن عمل آخر في منطقة تشيلسي .. ستجد .. عايدة أصبح لديها الآن خبرة تتجاوز العام في العمل كساقية في مقهى شودري .. ستجد عملًا ، وقد تجد غرفة تسكنها في تشيلسي ، بعيدًا عن هذا الحي وعن هذا الرجل .. ولكن هل يتركها صلاح .. أبدًا .. صلاح يذبحها ولا يتركها .. تعلم هذا جيدًا .. عايدة تكاد تكون هي التي تنفق عليه .. عايدة خادمة وأم بديلة وعاهرة أيضًا .. صلاح لن يتركها .. لن يتركها أبدًا تحيا في سلام .. وآدم ما مصيره؟!

قد تأتي ماري لأخذه .. بل هي تؤمن أن ماري قادمة .. آدم طفل لا يُترك ولا يُنسى أبدًا .. ستصبح وحدها فريسة لصلاح .. سيمزقها صلاح .. سيمزقها قطعًا صغيرة .. إنها يتيمة وحيدة .. عايدة إن ماتت ، لن تجد من يمشي يومًا في جنازتها .

وألقت عايدة بوجهها بين كفيها وبكت .. يقتلها أن تعرف أنها ضعيفة إلى هذا الحد .. يقتلها أن تذكر أنها وحيدة إلى هذا الحد .. ويقتلها أن يتهمها صلاح بعلاقة آثمة مع هاشم .. أصبح يقتلها ألا شيء دار أو يدور بينها وبين

هاشم .. كلما اتهمها صلاح .. كلما طاردتها كلماته .. كلما جرحها تمنت عايدة لو كان هاشم قبّلها .. لو كان هاشم أخذها وأخذ جسدها .. على الأقل لن تشعر بهذا الظلم .. صلاح يستحق أن يُخان .. صلاح لا يستحق أبدًا امرأة بطهارتها ونقائها، ولكن هل هو حقًّا يظلمها؟!

عايدة تحب «هاشم» .. عايدة ترقص على سلالم شائكة مع هاشم .. يكتب لها وتكتب له ألف قصيدة ، وألف كلمة حب .. لكن ولا كلمة واحدة صريحة ..

عايدة تخبره كل يوم أنها في شوق إلى ذراعيه .. وهاشم يخبرها كل يوم أنه مازال يقبل وسادتها كل صباح ، لكن أيضًا يبقى كل شيء مبهمًا .. مازالت تسأله عن زواجه ، ومازال يوصيها بزواجها ..

مازالا كالحمقى يتعاطيان المخدر ، ويقسمان أنهما في كامل وعيهما .

عايدة تجن .. كل يوم تجن أكثر .. إنها تنتظر فراق آدم ، وتحلم بلقاء هاشم وترتعد مما يعرفه صلاح ، وكأنه يعرف أشياء لم تفعلها .. لكنه لقسوة كلماته أصبحت تشعر أنها فعلتها .. بل تتمنى لو تفعلها ألف ألف مرة من جديد...

وكعادته هز آدم كفها ، الذي كانت تخبئ خلفه وجهها ، وهي تبكي لتسمعه يقول:

ما تزعليش يا عايدة إنه قال كدا عليك وعلى هاشم .. صلاح كان دايمًا بيقول لمامي كدا .. هي حكتلي .. كان دايما بيقولها إن عندها علاقات وحشة .. تصوري دا مرة راح ضرب جارهم وأنا صغير .. مامي بتقول إن الإسعاف خدته وهو دخل السجن .. صلاح دايمًا بيعمل كدا .

واتسعت عينا عايدة في ذعر .. إلى أي حد قد يذهب صلاح في حماقاته وغبائه .. إن كان يومًا فعل هذا مع زوجته التي منحته الجنسية .. إن كان يومًا

فعل هذا مع مواطن إنجليزي وفي بلده .. ما تراه يصنع بجارية صغيرة يتيمة أحضرها من عزبة الشال .. ما تراه قد يصنع يوما مع ... مع ..

وانتفض جسدها وهي تتخيل «صلاح» يتعرض لهاشم ، ويسمعه بعضًا من عباراته الدنيئة ، التي يسمعها إياها كل صباح وكل مساء ..

عايدة تموت .. تموت قبل أن يمس أحدهم «هاشم» بكلمة ..

الدنيء .. لو يعلم أن «هاشم» وحده من صانها .. وحده أمسك بيدها ليعيدها إليه ، يوم كانت تتمنى لو ذابت بين أصابعه .. لو يعلم صلاح رفاعي أن هناك على الأرض رجلًا بحق ، ولكن كيف تقف الرياح السوداء بباب زهرة ياسمين نقية .. ليتك تسمع يا هاشم .. ليتك ترى .. ليتك أخذتها .. ليتك أحييتها وما أماتكما معًا الشرف والمبادئ .

عايدة يجب أن تهدأ .. يجب أن تفكر .. ماذا تفعل .. ما عساها حقًّا تفعل؟! أصبح أمل حضور هاشم كابوسًا كبيرًا ، يجب أن تجد عايدة منه مفرًّا ..

وعاد آدم يقول لها في حنان:

انت ليه ما اتجوزتيش «هاشم» يا عايدة ليه؟!

ونظرت عايدة إليه ، من خلف دموعها ، لتقول:

عشان أقابلك .. عشان أشوفك .. عشان أحبك .

لكن آدم عاد يهز رأسه ليقول:

بس انت بتحبيه .. مش كدا .. بتحبيه يا عايدة؟! بتحبيه وهو كمان بيحبك!!

****

عايدة:

أكاد أختنق .. بل أنا أختنق كل يوم ألف مرة ..

عندما أترك ماما وأذهب إلى العمل أختنق .. عندما أترك حسن في البيت أشعر أنني أختنق .. عندما أعود لأشعر بالألم على أمي ، التي تتدهور حالتها كل يوم وتسوء ، حتى أنها بالأمس سألتني من أكون؟!

أعود لأرقب وجه حسن غارقًا في الحيرة والخوف .. حسن يموت كلما مر يوم ، واقترب موعد القسط القادم لفيلا أحلامه المجنونة .. أعود لأرى «مختار» يكبر وجدته بالكاد تعرفه ، وفي أحيان كثيرة تسألني كيف أنجبته ومن مَنْ؟!

آه يا عايدة كم يقتلني ألا تعرفه أمي ، وأن يعرفها حسن ويعرف ظروف مرضها ، ورغم هذا لا يرحمها أو يعذرها ..

عايدة:

مازلت أعشق «حسن» .. مازلت أذوب بين ذراعيه شوقًا وحبًا ، كما كنت في ليلتي الأولى لكنني تعيسة ..

تقولين إن الحب وحده يزرع السعادة .. تظنين يا عايدة أن كرهك لصلاح وحده سر شقائك .

أبدًا يا صديقتي .. الحب يؤلم أكثر .. الحب لوعته أكبر .. الحب سكين نصلها دومًا أكثر شراسة وإيلامًا .. الكره دواؤه سهل .. في الكره تحملين نفسك بعيدًا عمن تكرهين لتهدأ أنفاسك .. ولكن أين يختبئ العشاق من هواهم .

آه يا عايدة .. هل تذكرين كيف كنا أنا وأنت وهاشم سعداء منذ أعوام قليلة .

الحب وحده أشقانا .. بالحب وحده أصبحنا ثلاثتنا بهذه التعاسة .. هناك أمور قد يراها البشر جميعًا أمورًا تافهة ، لا تستحق الألم والمعاناة ، ولكنها تبقى وحدها أمل قلوبنا وعذابها .

لا تغضبي من شعورك بالكراهية .. صدقيني إنه نعمة كبيرة ..

الحب وحده هو العذاب الكبير!!

دينا

****

أمسكت عايدة بيد صلاح ، وهو ينهض عن فراشها في خوف كبير ، وعادت تقول بصوتها المرتعش:

صلاح .. قلت إيه؟ أرجوك يا صلاح .

ونفض صلاح يده من يدها في قسوة ، وقال:

قولي يا صبح يا عايدة .. ماعنديش غير اللي قولته .

وعادت عايدة تلحق به ، وهي تمسك بذراعه في خوف أكبر:

حرام عليك .. أقولهم إيه؟ صلاح .. أرجوك .. ماما وبابا وهاشم مش حيقعدوا أكتر من أربع خمس أيام .

والتفت ينظر إليها في قسوة ليمسك بكفها بين ذراعيه:

دلوقتي أرجوك؟! بقيتي بتعرفي ترجي يا عايدة؟ كلميهم وقوليلهم.. ولا أقولك كلمي حبيبك وقوليله الأهبل جوزي عرف كل حاجة ، وخليه هو يتصرف مع أهله .

ومن خلف دمعاتها عادت تقول في ألم:

حرام عليك .. دا أخويا ..

وصاح صلاح:

أخويا؟! وحياة ما وصلك آخر ليلة ، ووقفت جوا العمارة تحت تقوليله بحبك يا هاشم .. وطلعتيلي بعدها وانتي مفحومة بالعياط .. أخويا؟!

ورآها تنظر إليه في ذعر .. وفي تهكم بذيء ، قال لها:

سمعتك في الإنتركوم .. شلت السماعة لحظتها ، عشان أقولك تقفلي الباب كويس .. سمعتك .. ربنا فضحك!

وفي ألم كبير عادت عايدة تقول:

وإيه يعني لما أقوله بحبك .. دا أخويا يا صلاح .. أخويا!!

ولم ينبس صلاح بحرف .. تركها ليعود بعد لحظات ليرتدي ملابسه ، ويخرج بعد أن صفق خلفه الباب في عنف .

لن يدع «هاشم» يحضر .. لن يدع أمه أو أباه يحضران .. كلما رآهم عايدة تحولت إلى وجه آخر ، لا يريد أن يرى «صلاح» أبدًا ملامحه .. لن ينسى كيف كانت تبدو وهاشم هنا .. لا يريد أن يتذكر أبدًا كيف كانت ترقص عيناها كل صباح ، وهي تتعجل خروجه .. لقد رآها معه في أكسفورد .. رأى كيف كان يسير بها وذراعه حول كتفيها .. لن يسمح بحضورهم أبدًا؟! لماذا لا يطلق عايدة؟! لماذا حقًّا لا يقذف بها خارج بيته ، بعد كل ما رأى وكل ما يعرف؟! لأنه يعلم أنها لم تمنح جسدها لهاشم .. لأنه يعلم أن عايدة لم تمسها أصابع رجل سواه .. لماذا إذن يتهمها ويقسو عليها .. لأنها مغرورة .. لأنها جميلة أنيقة .. لأنها أفضل منه ..

ورفع صلاح حاجبيه في غباء .. ليس هناك على الأرض من هو أفضل منه .. هو يريد عايدة .. إنها تكسب وتنفق دون بخل عليه وعلى آدم .. إنها جعلت من بيته سكنًا نظيفًا براقًا .. إنها ثروة .. لقد رموها وقبل هو بها .. لقد لفظوها من فمهم .. وحملها هو إلى هنا .. لِمَ يريدونها الآن من جديد ..

هاشم يحبها .. صلاح رجل ، ويعلم كيف يبدو الحب في عيون الرجال .. هاشم يحبها ، ربما كانت عايدة هي الوحيدة التي لا تعلم أن «هاشم» يحبها

.. صلاح لن يترك «هاشم» ، يعبث بها بحضوره وبهداياه الثمينة مرة أخرى .. عايدة ستصبح أقوى إن حضروا .. سيلزمه وقت طويل بعد رحيلهم حتى تنكسر من جديد .. صلاح لا يريدهم جميعًا .. يريد عايدة اليتيمة الوحيدة .. صلاح لن يتركهم يحضرون إليها أبدًا!!

وصفق صلاح باب سيارته ، وبحث بعينيه عن كابينة تليفون ، ووقف إلى جوارها .. مازال محتفظًا برقم عبدالمنعم الشيرازي ، بل إنه يعرف رقم موبايل هاشم .. لقد سجله عنده يوم حادثه هاشم ؛ ليخبره أنه في طريقه إلى المنصورة ليصحبه إلى المطار .. لكنه لن يحادث «هاشم» .. هو يريد هدى .. إنها مغرورة هي الأخرى .. يريد أن يحطم كبرياءها .. يريد أن يعلن لها أنه يكرهها هي ووحيدها العاشق .. ولكن ماذا لو أجاب هاشم .. هو يريد «هاشم» أيضًا لكن هدى هي الأولى ..

ومن داخل كابينة الهاتف ، وبعد رنات كثيرة ، ابتسم صلاح في سعادة..

إنها هدى!!

****

«الحب من الوريد إلى الوريد» .. أحد أعمال غادة السمان غير الكاملة، كما أطلق على هذه السلسلة .. كتاب أغلقه هاشم في هدوء، وهو يضعه إلى جوار أشياء أخرى كثيرة، كان قد ابتاعها ليأخذها إلى عايدة وآدم بعد أيام ..

نهض هاشم ليقف كعادته خلف نافذة غرفته، يرقب حدائق الميريلاند .. لا يصدق .. بقي أسبوع واحد سيرى بعده عايدة وآدم .. بعد غد يسافرون لقضاء خمسة أيام في باريس، ثم يتوجهون إلى لندن .. سيراها .. سيأخذها بين ذراعيه، ولكن في هذه المرة هو يشعر باطمئنان أكبر .. لن يكون وحده .. هدى ومنعم معه .. لن يضعف .. لن تكون هناك فرصة أبدًا لأن يرى تلك النظرة التي رآها في عينيها في غرفته بالفندق تلك الليلة .. لن تولد فرصة ليقترب من شفتيها كما اقترب وابتعد .. هذه المرة ستمضي الزيارة في سلام .. ولكن هو يتمنى حقًّا لو يختلي بها ..

من يعلم؟! قد تعلم هدى أنه كذب عليها، عندما أخبرها أن عايدة سعيدة مع صلاح .. في هذه المرة قد ترى هدى بعينيها كم عايدة تعيسة .. من يعلم .. قد لا تتركها هدى .. قد تعود بها .. قد تتركه يتزوجها .. وانتفض جسد هاشم ..

لن تفعل هدى .. إنها لم تفعلها عندما كانت حرة طليقة بينهم .. فهل تفعلها وهي زوجة .. وأم مسئولة عن طفل لم يعد له سواها ..

وأغمض هاشم عينيه، وهمس «يارب» .. هل يمضي به وبها العمر، وكل منهما لا يجرؤ حتى على إعلان حبه .. إنه يعلم أنها تحبه، ويعلم أنه يذوب فيها حبًا، ولكن هل يمضي العمر بهما كنعامتين حمقاوين؟! لم يعد يعرف أبدًا .. إنه حائر تائه .. لكن يكفيه أنه سيراها .. يكفيه أن ينظر في عينيها المستديرتين الواسعتين .. يكفيه أن يتدفأ بصوتها الحاني .. يكفيه أن يرسم السعادة على وجهها ووجه آدم .. لقد اشتاق إليه واشتاق إلى توني وبيتر .

واستدار هاشم بعينيه، ينظر إلى الهدايا التي اشتراها لتوني وبيتر .. حتى كريستين لم ينسها .

عايدة وهاشم حسبهما هذه الرسائل .. حسبهما هذه الأيام كل عام .. هناك بشر يحيون العمر معًا دون سعادة .. دون إحساس .. هاشم وعايدة يتزودون من رسائلهم بالحياة .. يتزودون من لقائهم السنوي بالطاقة، التي تحركهم عامًا بأكمله .. لقد بدأ يكتفي حقًّا بهذا ..

وتسلل إلى أذني هاشم صوت هدى، وهي تصيح في جنون .. كان واضحًا أنها تصرخ باكية .. وانطلق هاشم كالمجنون خارج غرفته، ليراها تضع موبايلها على أذنها، ودموعها تنساب في جنون على وجنتيها، ووقف مشدوهًا أمامها ليسمعها وهي تصيح:

ولا كلمة .. ولا كلمة حاصدقها .. خلاص أنا عرفت كل حاجة .. يا خسارة العمر اللي قضتيه في حضني ..

كان وجهها شاحبًا وأنفاسها تتلاحق في جنون .. كان صوتها يرتعش كما لم يسمعه هاشم يومًا، وعادت هدى تصرخ من خلف صوتها الباكي الجريح قائلة:

اوعي تحلفي .. أوعي تحلفي يا عايدة .. ما تحلفيش .. أنت الكبيرة .. أنت العاقلة .. دا لو هاشم غواكي إنتِ تفوقيه .. أنت تلطميه على وشه

وتصحيه .. أنت متجوزة .. في ذمة راجل .. عارفة يعني إيه ذمة راجل .. بتصلي إزاي؟! بتقري قرآن إزاي ولا كمان نسيت الصلاة والقرآن .. ليه .. ليه .. كنت قدامه وكان قدامك .. لو كان ينفع كان اتجوزك .. لكن دلوقت وإنت ست وإنت مراة راجل تاني .. ابعدي .. ابعدي يا عايدة .. انسينا .. انسينا يا عايدة روحي استغفري ربنا ، وبوسي إيد الراجل اللي شاريكي وبيبكي عشان عايزك .

شعر هاشم أن سكينًا تشق صدره .. شعر أن نهرًا من الدموع يتفجر من عينيه .. عايدة ستذبحها هذه الكلمات .. واقترب من هدى في ألم ، وأمسك بذراعها ، وهو يبكي قائلًا:

لا يا ماما .. حرام .. عايدة .

ورفعت هدى ذراعها في الهواء ليطير هاتفها الصغير ، ويرتطم بزجاج أحد طاولات الريسبشن ، وهوت بكفها على وجه هاشم في جنون ، وهي تصيح بلا وعي:

ما عرفتش أربيك .. ما بتخافش ربنا .. من إمتى دا بيحصل بينكم يا هاشم .. من امتى؟!

وفي لحظة ، كان منعم يركض نحوهما ، ليرى هدى تلقي بجسدها في تهالك شديد على أحد المقاعد ، وقالت في صوت متقطع:

صلاح .. صلاح جوز عايدة اتكلم .. بيترجاني ما نسافرش .. عايدة وابنك بينهم علاقة .. عايدة ماكانتش بتروح شغلها ، طول ما هاشم كان هناك .. بتوصل الولد الصغير المدرسة وتقضي اليوم كله معاه .. في الفندق .. في سريره!

واقترب هاشم من هدى في جنون ليجلس على ركبتيه .. وأمسك بركبتيها بكفيه قائلًا:

والله كدب .. كدب .. عايدة ما دخلتش الفندق ، غير مرتين مرة مع آدم ومرة تانية .. ليلة .. ليلة ..

وقاطعته هدى ، وهي تمسك بصدرها قائلة:

ليلة ما رجعتها لجوزها وش الصبح ، ووقفت تبكي على باب البيت وتترجاك ما تسافرش .. وقفت تحضن وتبوس فيك وتقولك بحبك!!

كانت أنفاسها لاهثة متقطعة .. كانت هدى تمسك بصدرها ، كأن سكينًا حادة تمزقه .. واقترب منعم من هدى في ذهول قائلًا:

اهدي يا هدى أرجوكي .. وهو صلاح سكت على الموضوع دا كل الشهور دي ليه .. ما فتكرش غير النهاردة؟!

وعادت هدى تحاول التقاط أنفاسها المتقطعة ، لتقول في ألم واضح:

محتاجلها عشان ابنه .. مش عايز يرميها ؛ لأن طلعت هو اللي اترجاه يتجوزها .. مش عارف يوديها فين ، لأن برضة عارف إني أنا اللي طلبت من طلعت ياخدها .. الفلاح طلع أصيل واحنا .. احنا ولاد الناس طلعنا زبالة .. زبالة .

ورفعت عينيها تنظر إلى منعم قائلة:

مش راضية تخلف ، ودا مش راضي يتجوز .. جوابات وتليفونات واحنا .. احنا رايحين عشان ناخدها في حضننا ونساعدها .

وعادت هدى تدفع «هاشم» بكفيها ، وهي تصيح:

أوعى من وشي .. أوعى من وشي .

وابتعد عنها هاشم في ذهول ، وعندما حاولت هدى النهوض ، سمعوها تصرخ قائلة:

منعم .. الحقني يا منعم ..

وركض منعم نحوها ، وهو يقول:

إهْدي أرجوكي يا هدى ..

وعاد هاشم يجلس أمام هدى ، وهو يحمل مصحفًا صغيرًا ، التقطه من علبة من الفضة ليقول:

والقرآن الكريم دا ما حصلش بينها وبيني حاجة .. والمصحف يا أمي أنا وعايدة .

وكأنها تئن قالت:

إحلف أنك ما تشوفها ولا تكلمها عمرك كله يا هاشم ..

كان وجهها يتصبب عرقًا غزيرًا ، اختلط بدمعها الكثيف ، ويكى هاشم ويده على المصحف الشريف ليقول:

والله ما حكلمها ولا أشوفها بس صدقيني ..

كانت هدى تحاول أن تهدأ ، لكن كان الألم أقوى منها ..

حاولت أن ترفع ذراعها لتضع كفها على رأس هاشم .. حاولت أن تخبره أنها تحبه .. أنها حقًّا تتمنى لو كان صادقًا، لكنها ما استطاعت ، وأطلقت صرخات صغيرة حادة من الألم ، الذي كان يشق صدرها ، وصاح منعم يسألها عما تشعر به ..

هو يعلم أن هدى تعاني من ضغط حاد ، وسكر مزمن ، بالإضافة إلى ضعف في عضلة القلب ، وقصور في الشريان التاجي .. هو يعلم أن ما سمعته أكبر من أن يحتمله قلبها ، وصاح منعم في جنون:

يللا يا هاشم .. أمك لازم تروح المستشفى ..

هدى!!

ونظرت إليهما هدى من خلف دموعها ، وهي تحاول أن تقاوم الألم لكنها شعرت بعجزها .. واتكأت هدى على ذراعي منعم ، ونظرت بطرف عينيها إلى هاشم ، الذي كان يرتعد خوفًا عليها ، وقال في صوت باكٍ:

نروح مستشفى كليوباترا يا بابا؟!

وبصوت متقطع ضعيف ، قالت هدى:

مافتكرش إني حاوصل أبدًا!!

****

لم تفتح عايدة فمها بكلمة منذ عودتها إلى البيت بصحبة آدم .. جلست تبكي في صمت كبير على الأريكة السوداء .. مازالت ترتدي الجاكيت الجلدي الأسود الذي كانت ترتديه منذ الصباح .. كانت صامتة باكية تعبث بهاتفها الصغير بين أصابعها .. آه لو تستطيع أن تحادث «هاشم» .. فقط لو تستطيع .. وأعادت وضع الهاتف في جيب معطفها .. لن تحادثه قبل أن يأتي صلاح .. قبل أن تعلم وتفهم .. قبل أن ترد اعتبارها واعتبار هاشم وتذبحه كما ذبحها .. بعدها سترحل .. لقد وضعت جوازَيْ سفرها المصري والإنجليزي في جيب الجاكيت الداخلي .. لن تبقى هنا ليلة واحدة ، رغم أن آدم سألها عشرات المرات .. إلا أنها أبدًا لم تتحدث ولم تفكر حتى في العودة إلى عملها .. منذ حادثتها هدى من ساعات ، وهي لا تتوقف عن البكاء .. لا شيء يدوي في رأسها سوى كلمات هدى وصرخاتها .. ماذا قال لها صلاح .. هل حقًّا كرهوها .. هل حقًّا أصبح من المحرم عليها أن تراهم أو تحادثهم .. هل صدقوه؟ وهل هو كاذب؟! هل اخترع صلاح قصص الخطيئة عنها وعن هاشم ، أم أنه حقًّا يصدق أن هذا ما كان يحدث بينهما .. لِمَ استبقاها إذن؟!

لِمَ كان يعاشرها ويقبل نقودها وبقاءها معه .. إنه أكثر دناءة مما كانت تتصور .. إنه أحقر من آفة سامة .. لو كان حقًّا يعلم أنه كاذب واتهمها بالخطيئة ، فهو كلب دنيء يستحق أن يقتلوه ـ ألم يرمها بما ليس فيها .. ألم يتهمها في شرفها ، وهو يعلم أنه كاذب .. وإن كان يعلم أنها حقًّا آثمة .. إن

كان حقًّا يظن أن «هاشم» أخذها ، وأنها استسلمت له ، فهو رجل لا شرف له ولا رجولة فيه .. في كلتا الحالتين صلاح رفاعي دنيء يستحق الإعدام ، ولكن ما عساها تفعل؟! . أين تذهب وماذا تحكي أو تقول؟!

عايدة لن تفعل شيئًا قبل أن يعود صلاح .. قبل أن تبصق في وجهه وتسمع منه ما قاله لهدى .. من يعلم ربما حادث «هاشم» أيضًا ..

وعادت دموعها تنهمر في قسوة أكبر .. ألا يكفيه أنه يقتلها صباح مساء .. ألا يكفيه أنه يسحق عمرها تحت حذائه .. لِمَ يقتل «هاشم» معها؟! لِمَ يقتل هدى و«منعم» دون ذنب ، سوى حبهم واحتضانهم لها؟!

تكاد تموت .. تتمنى لو تصرخ .. عايدة تتمنى لو تحطم حي ناين إلمز بأكمله ، وتحوله إلى شظايا صغيرة .. وبطرف عينيها رمقت آدم ، الذي جلس إلى جوارها في صمت ، ودمعاته تسقط على وجنتيه .. ليتها لم تره .. ليته لم يحضر .. لو لم يكن آدم هنا ، لربما استطاعت عايدة أن تخبر «هاشم» بحبها ..

ها هي تعترف بحبه .. نعم تحبه .. لو لم تحبه عايدة يومًا لأحبته الآن .. لعشقته الآن بعد أن رأت مع أي دنيء تحيا .

وسمعت عايدة صوت باب بيتها يغلق في هدوء ، ومن خلف دموعها رأت «صلاح» يقف أمامها ، وعلى وجهه شبح ابتسامة .. صلاح تهزمه الابتسامة كلما رآها حزينة أو باكية .. وفي لحظة اشتعل بركان حريقها .. اشتعل بركان غضبها وصمتها .. ما عادت تشعر بالانكسار .. ما عادت عايدة زهرة أو يمامة ـ في لحظة شعرت أنها بركان وطوفان ، ووقفت أمام صلاح تنظر إليه بعينيها الحمراوين ، المغسولتين بالدمع والألم لتصيح في جنون:

عملتها .. عملتها يا صلاح؟!

رغم دمعها إلا أن «صلاح» كان يرى في عينيها بركانًا لم يره يومًا من قبل، ورمى بجسده على المقعد المجاور للأريكة السوداء، ليقول في لامبالاة:

وفرت عليك .. عملت اللي انت ماقدرتيش تعمليه .. عملت اللي لازم يعمله أي راجل عنده كرامة وشرف.

وذهبت عايدة إلى حيث يجلس لتصيح في غضب:

كانت فين الكرامة دي، وكان فين الشرف دا طول الشهور اللي فاتت .. هاشم كان هنا من شهور، والا اكتشفت إني باخونك معاه امبارح.

ونهض صلاح ليمسك بذراعها في قسوة ليصيح:

اخرسي واتلمي واحمدي ربنا إني عاقل وما عملتش فيك ولا فيه حاجة.

وانفجرت عايدة تهدر بصيحاتها، في جنون وغضب، قائلة:

عاقل؟! تعمل؟! عارف الحاجة الوحيدة اللي ممكن تعملها إيه عشان تثبت إنك راجل بجد يا صلاح .. تموت .. تموت يا صلاح رفاعي .. موت .. لأن مالكش معنى في الحياة .. قوللي بتعمل إيه في دنيتك .. بتسوق تاكسي؟! مليون واحد ممكن يعملوا كدا .. بتربي ابنك .. أبدًا .. أنا لو جبتلك كراسة من كراريس مدرسته مع واحدة تانية، مش حاتعرف خطه من خط صاحبه .. بتتكلم معاه؟! عمرك .. بتسمعه؟! عمرك .. بتعلمه مبادئ؟ قيم؟ مُثُل؟ إزاي؟! إذا كان أنت نفسك ما تعرفش حاجة عنهم .. يبقى تعيش ليه؟! بتصرف عليه؟! أبدًا أنا .. أنا بقيت بصرف عليه وعليك .. تعيش ليه؟!

كانت عايدة تصرخ في جنون، وكلما سقطت دموعها رغمًا عنها، زاد غضبها وجنونها، وعادت تصيح كأنها تئن:

تعيش ليه؟ عشان عندك بيت وست عايشة في حماك .. أبدًا .. دا ماكنش بيت .. دا كان زريبة من زرايب عزبة الشال .. ست؟! لا عمرك صرفت

عليَّ ولا عمرك حتتني .. دا أنت بترميني من الصبح لغاية بالليل في حتة معفنة زي دي أجري فيها، واشتغل عشان أجيب فلوس وافتحلك بيتك .. فَهِّمني تعيش ليه؟! يا أخي موت موت .. الموت هو الحاجة الوحيدة اللي ممكن تعملها عشان تقول إنك راجل .. راجل عرف إن مراته مرافقة عليه ماقدرش يقتلها قتل نفسه .. مش أنا برضه مرافقة هاشم؟!

وذبحته الدهشة من كل كلمة قالتها عايدة .. لم يكن يظن يومًا أن هذه الصامتة الرقيقة يمكنها أن تقول كل هذا، ومن بين دهشته، قال صلاح:

أنا ما قلتش كدا بالضبط .. أنا لو متأكد أن بينكم حاجة كنت قتلتك وقتلته.

وصاحت عايدة في جنون:

تبقى سافل أكتر .. تبقى كلب أكتر .. مش متأكد يبقى تخرس لغاية ما تتأكد .. مش تتهم إنسان كل اللي عمله أنه كرمك، وكرم ابنك، ودخل بيتك جايبلك هدايا .. مش متأكد يبقى تخرس وما تقتلش أمه وأبوه .. اللي أنت عملته دا اسمه قذف في شرع ربنا .. عارف عقوبته إيه؟ لكن تعرف شرع ربنا منين .. مش باقولك حلك الوحيد إنك تموت ..

وأسرعت عايدة بخطاها نحو باب البيت، لتسمعه يصيح من جديد:

رايحة فين! الساعة داخلة على تسعة .. رايحة فين؟!

والتفتت عايدة تنظر إليه من خلف دموعها قائلة:

رايحة في داهية .. لو كلاب الشوارع أكلتني يا صلاح أشرف من حياتي معاك.

وأسرع آدم يمسك يدها قائلًا:

عايدة؟! ما تخرجيش دلوقتي .. أرجوكي ..

ونفضت عايدة يد آدم ، وهي تقول:

آدم .. دا أبوك .. وأمك زمانها راجعة ، وحتاخدك .. أنا لازم أمشي .. سيبني ..

لم تسمعه عايدة وهو يبكي .. لم تسمعه عايدة ، وهو يئن من ذراع صلاح التي أمسكت به في قسوة لترمي به بعيدًا .. لم تسمع شيئًا سوى صرخات مبهمة ، وكلمات جارحة وقف صلاح يقذف بها إلى أذنيها ، وهي تركض على سلالم البيت؛ لتجتاز باب العمارة ، وتواجه شتاء فبراير وقسوته .

خرجت وهي لا تشعر بشيء سوى الألم والامتهان والخوف .. كانت تسرع بخطاها في شوارع الحي الموبوء ؛ خوفًا من أن يستوقفها أحد .. كانت تركض ولا ترى سوى دموعها .. لم تشعر عايدة أبدًا بأن الأمطار كانت تنهمر في جنون على رأسها .. كل ما كانت تشعر به أن أمطارًا أكثر قسوة ، كانت تنزف من عينيها وفؤادها الجريح .

ووقفت عايدة لحظة تلتقط أنفاسها ؛ لترى جسر تشيلسي بأضوائه الجميلة أمامها ، وأطلقت ساقيها من جديد لتعبره؛ فلتبتعد عن هذا الحي بأقصى ما تستطيع .. إن كل خطوة تبتعدها عنه ، هي خطوة تخطوها نحو الأمان .. نحو مصر .. نحو هاشم .. هاشم يعلم أنها مظلومة .. ستعود إليهم .. حتى إن لم يكن هاشم يريدها ، فسيبقى دومًا معها وإلى جوارها .. هاشم هو أكثر من يعلم أنها مظلومة ، وأنها بريئة نقية .

ركضت عايدة كثيرًا والأمطار تركض على جسدها ، وتهرب من داخل عينيها .. ركضت حتى وصلت إلى المقعد ذاته ، في متنزه تشيلسي ، ورمت بجسدها عليه في جنون .. كانت أنفاسها تتلاحق في صخب .. كان شعرها

الأشقر القصير يتصبب ماء من أمطار الشتاء .. كان النهر يموج أمام عينيها تحت أضواء المصابيح وسقوط الأمطار عليه .. وكانت هي ترتجف وثيابها تقطر ماء وحزنًا ودمعًا ، وتحسست بأصابعها جيب معطفها القصير لتخرج منه هاتفها الصغير .. لا أحد عندها سوى هاشم .. لا أحد على الأرض يهمها سوى هاشم .. ستخبره أنها تركت «صلاح» وتركت آدم وستعود .. وليفعل بها ما شاء .

هاشم لا يجيب أبدًا ، وعايدة تبكي في جنون أكثر ، وهي تعيد طلب رقم هاتفه .. كانت تصيح وتبكي وترجوه .. كانت عايدة تشعر أنها تموت بردًا وخوفًا ، وبعد أن طالت محاولاتها طلبت رقم منعم .. منعم سيسمعها .. منعم هو الآخر رجل عدل وقانون .. وجاءها صوته لتصيح عايدة كأنها تتوسل إليه قائلة:

بابا .. بابا أرجوك اسمعني .. أنا .. أنا عايزة أكلم «هاشم» .

وفي لحظة سكت كل شيء في رأس عايدة .. حتى هدير أمطار سماء لندن ما عادت تسمعها .. حتى أنفاسها المبعثرة الضائعة ما عادت تسمعها .. كل ما كانت تسمعه عايدة هو صوت منعم ، الذي كان يبكي في جنون قائلًا:

اسمعي انتِ يا عايدة .. هدى ما استحملتش .. هدى ماتت .. كفاية يا عايدة .. كفاية!!

****

إنها العاشرة وآدم لا يتوقف عن البكاء .. ساعة منذ خروج عايدة ، وهو يبكي .. ساعة بأكملها ، وصلاح ينهره في جنون وقسوة ، ولكن آدم لا يتوقف أبدًا عن البكاء ..

وفي لحظة نهض آدم في جنون لينظر حوله ، كأنه يبحث عن شيء ما .. كان صلاح يضع صحنًا صغيرًا على الطاولة ، ويرقبه في غيظ كبير حيث صاح:

أسكت بقى .. شوية وحترجع .. مش حتلاقي حد يلمها .. اللي زيك وزيها ماحدش يقبل بيهم غير واحد زيي .. اخرس .

لكن آدم كان مازال يتلفت حوله في جنون ، ووقفت عينه على شيء ما حيث ركض يلتقط مظلة سوداء ، لها خطوط ملونة ، وصاح وهو يركض نحو الباب قائلًا:

عايدة ما معهاش شمسية .

وفي بلاهة نظر صلاح إليه ليقول:

هي يعني واقفة تحت مستنية الشمسية يا عبيط؟!

وركض آدم يحمل المظلة على سلالم البيت .. لن يترك عايدة أبدًا ، وعاد ينظر خلفه .. صلاح لم يأت وراءه .. ربما هو لا يهتم لأمر عايدة ، ولكن وحده آدم يحبها .. لن يتركها وحدها تحت الأمطار أبدًا .. ووقف آدم ينظر إلى الشارع من خلف باب العمارة الزجاجي المغلق .. إنه يعلم أن الخروج في

وقت كهذا إلى شوارع ناين إلمز قد يكون جنونًا وانتحارًا .. إنه يعلم أن شيئًا ما قد يحدث له إن خرج وحده ليلًا .. ولكن عايدة لم تأخذ مظلتها .. عايدة وحدها تبكي تحت الأمطار .. آدم لن يتركها أبدًا .. وأخرج آدم دراجته وفتح الباب لينطلق هو الآخر ، بعد أن وضع المظلة خلفه .. انطلق يقود دراجته في أقصى سرعة استطاعها .. سيبحث عن عايدة .. أبدًا لن يتركها ..

كان يتلفت بعينيه بحثًا عنها .. ربما دخلت مقهى ما .. ربما وقفت تحتمي من الأمطار تحت مظلة ما .. لكنه كان خائفًا .. وجوه كثيرة كانت تحدق فيه .. أصوات كثيرة كانت تناديه .. وبلا وعي ، وكما اعتاد كل يوم عبر آدم جسر تشيلسي .. ربما ذهبت عايدة إلى المقهى الجديد الذي تعمل فيه في تشيلسي .. حتى إن لم تذهب ، سيطلب آدم من أحد زملائها في المقهى أن يساعده في البحث عنها .. جميعهم يعرفونه ، وجميعهم يحبون عايدة .

وما أن عبر آدم جسر تشيلسي ، ومرَّ إلى جوار المتنزه الذي يجلسان به كل يوم مع توني ، حتى عاد بدراجته مرة أخرى .. شيئًا ما في رأسه الصغير أخبره أن يعود .. شيئًا ما في قلبه الصغير أخبره أن يعود ، وينظر إلى مقاعد المتنزه .. من يعلم؟!

ورآها .. رآها تجلس على المقعد ذاته أمام النهر ، والأمطار تسقط على رأسها ، وأسرع آدم يهبط عن دراجته ، وهو يحمل المظلة ليفتحها مسرعًا نحو عايدة ، وهو يصيح:

عايدة .. أنا آدم .. جبتلك شمسية يا عايدة ..

ووضع المظلة فوق رأسها .. لكنها لم تلتفت نحوه .. كانت عايدة تنظر إلى النهر في ذهول كبير .. كان جسدها ينتفض .. كانت صامتة لا يتحرك لها جفن .

ووضع آدم كفه على ذراعيها ، وعاد يناديها ويحادثها .. لكنها بقيت صامتة مفتوحة العينين كأنها مذبوحة ، وبكى آدم .. بكى الصغير في جنون هل يذهب ليحضر «صلاح» .. هل يخرج ليطلب المساعدة من أي أحد يجده خارج المتنزه .. ولكن إلى أين يأخذها وأين يذهب بها .. هو أيضًا لا يريد العودة إلى صلاح أبدًا ، ووضع كفه الصغير على كفي عايدة المغلقتين؛ ليقول وهو يبكي متوسلًا:

عايدة .. ردي عليا .. أرجوكي .

وعاد يعبث بكفها ليفتحه .. ورأى هاتفها الصغير بين أصابعها ، وأمسك به آدم ، وأخذ يقلب في أرقامه من بين نحيبه ودموعه ، وفجأة وقفت عينيه على رقم ؛ طلبه آدم ليبكي بعد لحظات صارخًا:

توني .. توني أرجوك تعال .. أنا وعايدة هنا في تشيلسي بارك .. عايدة ما بتردش يا توني .. أرجوك .. أرجوك .. بسرعة!!

****

كان توني يحمل عايدة على ذراعيه ، وهو يركض نحو سيارته وآدم يركض خلفهما في جنون .. لم يكن يراهما بوضوح .. كان صراخه قد علا صوته عندما سمع توني يخبره أنها محمومة .. كان دمعه يجعله يراهما كظلال غائمة تتحرك أمامه .. كان يلهث ويبكي ويصرخ ، ولم يسمعه توني عندما صرخ صرخة كبيرة ، بعد انزلاقه على الأرض وارتطام رأسه الصغير بأحد حجارة المتنزه الكبيرة ، وعندما وضع توني عايدة على مقعد سيارته الخلفي عاد يصرخ مناديًا آدم .. لكنه لم يظهر ، فأسرع توني إليه ليلتقي به في منتصف الطريق .. كانت قطرات كثيفة من الدم تزحف على جبهته الصغيرة التي شق فيها جرح غزير طريقه خندقًا واسعًا .. كان واضحًا أن الصغير وقع ، وشعر توني بالخجل كيف نسيه .. كيف لم يسمعه؟!

وأسرع توني إليه يحمله هو الآخر على ذراعيه .. لكن آدم كان يبكي في جنون ، وهو يسأل عن عايدة ، وفي لحظات كان توني وصل إلى المستشفى ، الذي يعمل به بعد أن خابرهم ليطلب منهم انتظاره .. وحملوا آدم إلى غرفة العمليات لخياطة جرحه العميق ، وبقي توني مع عايدة ، ليخلع بيده عنها ملابسها المبتلة ، وهو يصدر تعليماته بإجراء اشعة لصدرها ، والإسراع بحقنها بمخفض لحرارتها التي أخبروه أنها جاوزت الأربعين درجة .. كان جسدها ينتفض في جنون بين أصابعه من جراء الحمى ، ولكن حتى توني لم يكن يراها بوضوح .. كل ما كان يراه هو وجه سيلفيا ابنته ، التي ماتت هي

الأخرى بين ذراعيه عقب ولادتها لبيتر .. واقترب فيليب أحد الأطباء منه ، ليقول في أدب وتصميم:

سير .. من فضلك أنا حاتعامل مع الحالة .. أنت محتاج تهدا .. أرجوك سير .. أنت مش حتعرف تعمل حاجة في الحالة دي .

وصاح توني قائلًا:

سيلفيا مش حتموت .. مش حتموت .

وأغمض فيليب عينيه في ألم ، ثم عاد يفتحهما ، وهو ينظر إلى وجه عايدة .. إنها حقًا تشبه سيلفيا ابنته ، وعلم سر انفعاله واضطرابه ، رغم الهدوء الكبير المعروف عنه، واقترب د . فيليب منه ليربت على كتفه في حنان قائلًا:

طبعًا مش حتموت .. اطمن وأرجوك تطلع تستريح .. هو أنت ماعندكش ثقة فيا ولا إيه؟!

وأدرك توني في لحظة أنه يجب أن يترك الغرفة ..

أدرك في لحظة أن طاقم الممرضات والأطباء حوله يرونه يبكي ويصيح كالأطفال .. وعاد ينظر إلى وجهها المرتعش إنها عايدة .. إنها عايدة وليست سيلفيا .

ونكس رأسه في خجل كبير ، ليخرج من غرفة الطوارئ في صمت ، لتتبعه إحدى الممرضات ، وهي تقول:

سير والتر .. حاجيب لحضرتك هدوم تغير بدال هدومك المبلولة ..

ورفع توني كفه ، وهو يقول:

أنا رايح أشوف آدم .. مين معاه؟ مين بيعمله خياطة الجرح؟!

ولم ينتظر إجابة .. إنه يعرف كل من في المكان والكل أيضًا يعرفه .. توني ليس الدكتور توني .. إنه سير توني والتر .. إنه من كبار مستشاري هذا المستشفى وغيره .

ألقى توني بجسده على مقعد أمام فراش آدم ؛ ليمسك بكفه الصغير بعد انتهاء خياطة جرحه العميق .. كان آدم في وعيه ، وكان يبكي ، وكان توني يحاول تهدئته ، بعد أن أخبره أن عايدة بخير ، وأن حرارتها أفضل ، وأنه بعد أن يرتاح آدم سيصحبه إليها ، ولكن آدم عاد يقول وهو يتألم:

أنا مش عاوز عايدة تموت يا توني .

ونكس توني رأسه ليقول في ألم بعيد:

سيلفيا بنتي ماتت ، وأنا كمان مش عايزها تموت ..

ونظر آدم إلى وجه توني ليشهد تلك الدمعة ، التي فرت من عينيه الصغيرة ، ثم قال كأنه يطلق سراح سر طال سجنه قائلًا:

أنا كمان أمي ماتت ، ومش عايز عايدة تموت ..

والتقت عيناهما وكلًا منهما يسأل الآخر .. لِمَ يرى توني عايدة سيلفيا ولِمَ يراها آدم ماري؟!

واقترب توني من آدم ليمسك بكفه في حنان وأغمض عينيه .. عايدة بحنانها عليهم .. عايدة بنقائها معهم أحيت في قلب توني سيلفيا ، وأعادت إلى رأس آدم ماري من جديد .

وقبل أن يسأل توني آدم عن ماري وعن سر ما يقوله ، جاءه صوت آدم الباكي يسأل من جديد:

هي عايدة جرالها إيه؟!

وقال توني بعد أن كسا صوته الهدوء:

التهاب شعبي حاد من البرد والمطر .. بس حقيقي هي كويسة .. أول ما تصحى ، حيبلغونا ونروحلها سوا .

ثم عاد يقترب من آدم قائلًا في حنان:

آدم .. احكيلي إيه اللي حصل لأمك؟!

****

عندما فتحت عايدة عينيها ، في الصباح التالي على سعالها المؤلم ، لم تجد أحدًا حولها في غرفتها بالمستشفى .. واعتدلت بظهرها قليلًا ، وهي تحاول أن تستعيد كل ما حدث في رأسها .. إنها تذكر كل شيء لكنها لا تفهم أي شيء .

صور وأصوات تتلاحق في رأسها .. آدم يبكي ، والمظلة في يده ، وهو يرجوها أن ترد .. توني يصيح مناديًا ابنته الراحلة .. صلاح يتهمها .. رنين هاتف هاشم ولا أحد يجيب .. صوت منعم يبكي في جنون ..

وانتفض جسد عايدة ، كأن بركانًا عصف به ، وهي تقف برأسها عند صوت منعم وهو يصيح «هدى ماتت» .. وأحاطت عايدة جسدها بذراعيها؛ لتبكي في نحيب مرير .. لم يبق في رأسها شيء سوى صوت منعم ، وهو يتردد في كيانها بأكمله صائحًا: «هدى ماتت» .. وأحكمت عايدة ذراعيها حول جسدها ، وهي تهز رأسها في عنف ، ودمعها يتطاير حول وجهها في جنون .. ماتت هدى .. ماتت أمها .. ماتت دون أن تعلم أنها بريئة .. ماتت دون أن تعلم أن عايدة لم تنس أبدًا ما علّمته إياها من مبادئ وصلاة وقرآن .. ماتت هدى دون حتى أن تراها عايدة .. ماتت؟! لا .. أبدًا! هدى قُتلت .. صلاح قتلها .. عايدة قتلتها!! ضمتها هدى ومنحتها الحب والأمان ،وأنقذتها من براثن شلبية لتقتلها عايدة في النهاية .

وعلا صوت بكائها لتخرج من شفاهها ، الغارقة في دمعها ، آهات جريحة أليمة زادت من سعال عايدة المكتوم ، لتشعر بأنها تتنفس بصعوبة كبرى ، وشعرت بباب الغرفة يفتح ليطل توني من خلفه بابتسامة صغيرة ، ماتت حين رآها ليسرع نحوها ، وهو يسألها في لهفة عما تشعر به ..

وهدأت عايدة بعد لحظات .. هدأت لتستعيد أنفاسها المتقطعة وجلس توني إلى جوارها ، ممسكًا بكفها الأبيض الرقيق ليقول في ألم:

عايدة فيه إيه؟! احكي يا عايدة أرجوك ..

ونظرت عايدة حولها ، ثم قالت في صوت خفيض:

آدم فين؟!

وبتنهيدة خرجت من صدره ، قال توني:

زي ما اتفقنا امبارح خدته عندنا البيت .. هو مع كريستين دلوقتي .. عايدة اتكلمي إيه اللي حصل؟!

ورأى توني دموعها تتفجر من جديد ، ومد ذراعه حولها ليأخذ برأسها على صدره ، وسمعها تقول:

أمي ماتت .. أنا قتلتها يا توني .. ربتني وكبرتني عشان اقتلها .. تصور؟!

ماتت وآخر حاجة قالتها إنها مش عايزاني .. إنها بتكرهني ..

وأخذ توني يهدئها في حنان ويساعدها لتعتدل أكثر ، وابتعد عنها قليلًا ليسمعها تحكي له عن كل شيء ..

كم مضى من الوقت وعايدة تتحدث .. لا أحد منهما يعلم .. لكن عايدة فتحت له بابًا كبيرًا ، دخل منه توني ليرى ويتجول في حياتها لحظة فلحظة ، ويومًا فيوم .

أخبرته عايدة كل ما حدث .. حدثته عن صلاح .. عن علاقتها عن زواجها الذي لا زواج فيه .. حدثته عن هدى، عن منعم .. حدثته حتى عن شلبية وأبنائها .. وبكت كثيرًا ، وهي تخبره عما فعله صلاح .. عن خروجها من البيت .. عن جواز سفرها الذي كانت تحمله في طيات ملابسها لتعود به إلى هاشم ، الذي ظلمه صلاح وظلمها لتموت هدى حزنًا وألمًا ، كما أخبرها منعم ..

وبعد أن انتهت عايدة من كل ما كان يجثم على صدرها ، قالت من بين دمعاتها:

توني .. أنا مش حارجع لصلاح .. أرجوك تشوفلي أوتيل ، أنزل فيه أنا وآدم لغاية ما نلاقي مكان ..

وقال توني في هدوء:

مش حاترجعي لهاشم؟!

ورغم دمعها .. رغم ألمها ، إلا أنها شهقت ونظرت إليه قائلة في ألم كأنها تئن:

هاشم؟!

وعاد توني يقول في هدوء:

أبوه هاشم .. مش أنت اخدت جواز سفرك عشان ترجعيله .. مش سبتي «صلاح» ، وسبتي البيت وحتى آدم ما فكرتيش فيه وقررتي ترجعي لهاشم .. مش برضه أنت قلتي إن أول حاجة عملتيها بعد خروجك من البيت ، إنك طلبتيه هو ولما يأستي من أنه يرد عليك كلمتي أبوه ، وبرضه ما حاولتيش حتى تشرحيله حاجة .. كلمتيه عشان يخليكي تكلمي «هاشم» صح؟! مش دا اللي قلتيه يا عايدة .. يبقى إيه اللي اتغير؟ عايزة أوتيل ليه؟ ارجعي لهاشم .

وسكت دمعها .. سكت بكاؤها .. حتى أنين شعبها الهوائية الممزقة هدأ وسكت .. عيناها الواسعتان الحمراوان ، وحدهما ، كانتا تقفان في ذهول على وجه توني ، كأنهما تحاولان أن تفهما ما يعنيه ، وأرخى توني عينيه ليكمل:

إيه اللي حصل؟ أنا باقول حاجة غلط ولا حاجة صعبة .. هاشم بيحبك وأنت بتحبيه .

وسمعها تئن قائلة:

توني والله ..

وقاطعها قائلًا بابتسامة مريرة:

بتحبيه وبيحبك .. يا حبيبتي الحب بيبان .. أمه وأمك ماتت .. ماحدش قتلها منكم يا عايدة .. ظروفها الصحية اللي حكيتي عنها كفاية عشان تموت، حتى من فرحتها بمقابلتك أنت أو آدم لو جت هنا .. يعني ما حدش قتلها. صلاح لا يستحق إنك تعاشريه أو تميشي معاه لحظة ، لأن دا فيه امتهان لآدميتك .. صححي خطأ حصل .. اتجوزي الإنسان المايل اللي أنا شفته .. الإنسان اللي بيحبك يا عايدة .

وقالت عايدة:

إنت مش فاهم .. مش فاهم .. هاشم مستحيل بعد اللي حصل يقبل حتى يبص في وشي .. أنا .. أنا كمان مستحيل أقدر أرفع عيني في عينه أو في عين بابا منعم مستحيل .. مستحيل حتى أقدر أحط رجلي في مصر كلها .

توني .. مستحيل .. ماما هدى مش هي بس اللي ماتت لا .. أنا كمان بقيت ميتة في قلب بابا وقلب هاشم .. أنت ماتعرفش «هاشم» .. أنا أعرفه .. أنا ربيته واتربيت معاه .. أنا واثقة أنه بيكرهني .. حتى لو مقدرش يكرهني

حيفضل يكره كل لحظة ، عاشها معايا ؛ لأنها كانت الطريق لموت ماما .. حيكره حبه ليا ودا كفاية عشان ما أرجعش أبدًا .. مستحيل يا توني مستحيل .. أرجوك تساعدني ألاقي مكان .

وبعد صمت قصير ، قال توني:

المكان مش مشكلة .. أنا في البيت عندي جناح صغير ، فيه أوضة وأوفيس وحمام على الجنينة الخلفية ، كانت سيلفيا بتكتب فيه .. له باب ومخرج على الشارع كمان .. تعالي عيشي فيه .. بيتر ما تعرفيش سعيد قد إيه بوجود آدم معاه امبارح .. كريستين نفسها حتكون سعيدة .. عايدة وجودك معانا حيسعدنا .. خلينا نشبع منك ، قبل ما تسافري وترجعي لهاشم .

ورآها تنظر إليه ، كأنها تتهمه بأنه لا يفهمها ، وعاد يبتسم ليقول في مرارة أكبر:

حترجعي يا عايدة .. في يوم حترجعي .. مفيش حد يقدر يعيش وقلبه بعيد ..

ونكست عايدة رأسها لتقول:

عمري ما حارجع .. عمري .. وبعدين مش ممكن أرجع لغاية آم آدم ماتيجي تاخده ..

وفي حزن كبير ، قال توني:

أم آدم؟! عايدة .. ماري ماتت؟!

وشهقت عايدة في جنون قائلة:

إيه؟! ماري ماتت .. إمتى؟ إزاي؟!

****

عايدة:

مضت ثلاثة أيام لم نكف فيها جميعًا عن محاولة الوصول إليك لمحادثتك .. هاتفك دومًا مغلق .. حسن يريد تعزيتك ، رغم أن العزاء لنا جميعًا .. أنا أيضًا أريد أن أضمك إلى صدري ، وإن كان هذا عبر الهاتف ..

أمي ممزقة يا عايدة .. منذ رحيل طنط هدى ، وهي أكثر ذهولًا وصمتًا وكلما تحدثت كانت كلماتها عنك ..

رحلت أمنا جميعًا .. رحلت السيدة التي كانت أمي وأمك ، وأعتبرها أمًا لأمي في مرضها .. رحلت أمنا يا عايدة ..

آه لو تعلمين ، كيف نجلس أنا وأمي وحسن وأنكل منعم نبكي ، ونحن ننظر إلى هاشم ، وهو يذوب أمامنا حزنًا ودمعًا وألمًا ..

عايدة حادثيني أرجوك .. حادثيني ما بي من الألم يكفيني .. حتى مختار الصغير ، يسأل عنها ويبكي حين لا يجدها ..

عايدة:

هاشم اليوم بحاجة لأن يجد من تمسح أحزانه بكفيها ، كما كانت أمه تمسح دومًا أحزاننا .. لو كانت أمي كما كانت في الماضي ، لقامت بهذا الدور فوحدك تعلمين كم تحب «هاشم» وتحبك ، ولكنها اليوم في ضعف مختار

وقلة حيلته .. وحدك يا عايدة من تستطيعين القيام بهذا .. وحدك تستطيعين إنقاذه .. هاشم يموت!!

حادثيه وحادثيني ..

عايدة:

أنكل منعم يحاول الصمود .. حسن وماما ، رغم كل ما فيها مازالا معي ، ولكن «هاشم» لن يساعده سواكِ .. يقتلني أن أطلب منك المساعدة ، رغم علمي أننا هنا جميعًا ، وأنت وحدك هناك تبكين!!

ولكن من أجلها .. من أجل ما منحتنا جميعًا اجتازي الألم ، وكوني إلى جوار هاشم ..

وحدك رغم الألم أقوى منا وأقرب إلى قلبه وروحه ..

عايدة:

أنت الآن أم اليتامى!!

دينا

****

رفع منعم حاجبه في دهشة ، عندما رأى دينا تقف خلف الباب في تريننج سماوي اللون وأفسح لها الطريق ، وهو يقول:

إيه اللي مسهرك كدا يا دينا؟

وابتسمت دينا ابتسامة صغيرة لتقول:

أبدًا .. أنا عايزة هاشم .. اتعشيتوا يا أنكل منعم؟!

ولحق منعم بها ، وهي تتجه إلى غرفة هاشم قائلًا:

دينا .. مافيش داعي تعملي أكل كل يوم ..

نجوى بتقف الصبح معانا ومع هبة ، والطباخ حيرجع .. أنا وهاشم حندبر أمورنا .

والتفتت دينا إليه لتقول:

والله أزعل لو قلت كدا تاني .. صباح حتجيب واحدة قريبتها ؛ عشان تبقى مقيمة معاكم .. اسمع حضرتك ، أنا حارتب كل حاجة لغاية عم علي ما يخف ويرجع .

كان يبدو أنها مسرعة .. كان واضحًا أنها متعبة ، وأنها أبقت نفسها مستيقظة لشيء مهم تريد «هاشم» له .. منعم يعلم أنها تنام في العاشرة .. بقاؤها حتى منتصف الليل يعني أن لديها شيئًا مهمًا حقًا .. وابتعد منعم عنها

ليجلس على أحد المقاعد ، وأخذ يرقبها وهي تطرق باب هاشم في لهفة ، وأغمض عينيه لتسقط دمعاته .

كم هو قاتم البيت دون هدى .. كم هي الحياة بأكملها قاتمة .. رحلت هدى وليتها رحلت كما يرحل البشر .. لكنها رحلت لتترك خلفها دخانًا أسود ، يختنق به هاشم ومنعم كل لحظة .

إنه اليوم الثاني لهم بعد عودتهم إلى المكتب ، بعد أكثر من أسبوع على رحيلها .. هاشم يتحرك بصعوبة لكنه صامد .. كل شيء كما هو ، لكن أيضًا لا شيء كما هو .. هاشم لم يتحدث لحظة عن عايدة أو عن القصة ، التي حدثت .. هاشم أخبر منعم هذا المساء ، في المكتب ، أنه سيعمل أكثر وينجح أكثر ، وأنه سيجتاز الأزمة .. منعم يعلم أن «هاشم» يفعل هذا من أجله ، ولكنه يعلم أيضًا أن لحظة ستأتي يجب أن يتحدثا فيها .. يجب أن يغلقا فيها الصفحة السوداء ، التي كان موت هدى آخر سطورها ..

هدى!! وسقطت دمعات جديدة على وجنتيه ..

هدي ليست هنا بعد الآن ..

وعاد يرفع عينيه يرمق بهما غرفة هاشم من بعيد .. لِمَ تراها دينا حضرت .. ماذا تريد في هذا الوقت؟!

****

حين دخلت دينا غرفة هاشم ، تركت خلفها الباب مفتوحًا ، ووقفت ترقبه وهو يذهب ليقف خلف النافذة كعادته ، واقتربت منه في حنان لتربت على كتفه في هدوء ، والتفت هاشم إليها ؛ لترى دمعًا غزيرًا يسقط على وجنتيه ، وهمست وهي تبكي:

كفاية يا هاشم كفاية ..

وألقى هاشم برأسه على كتفيها ، وقال في صوت متقطع:

مش قادر يا دينا .. مش قادر .. والله العظيم مش قادر .

كانت دينا هي الأخرى تبكي .. لكنها ما جاءت من أجل هذا .. دينا قضت ساعات ، تنتظر عودة هاشم من أجل شيء آخر .. وبعد أن هدأ هاشم قليلًا ؛ أخرجت دينا من جيب بنطلونها ورقة ، وضعتها في يد هاشم قائلة:

أنا طبعت دي عشان تقراها وتفهمني .. خد يا هاشم اقرا ..

دينا ..

هناك صفعة قاسية تفقدنا البصر ، ولكن هناك صفعة أكثر قسوة تعيده إلينا ..

موت ماما هدى كان أقسى صفعة وجهتها يد القدر لكياني .. لكنها أعادت النور إلى عيني ..

ماما هدى لم تمت بل قتلتها أنا ..

أعلم أن «هاشم» يحتضر ، ولكن ما لا تعلميه أنت أن «هاشم» قد يعانق أفعى .. هاشم قد يبتلع سُمًّا ، لكنه لن يحتمل بعد اليوم رؤيتي أو سماع صوتي .

أنا أتمنى لو أنثر روحي تحت قدميه .. ولكني أصبحت في حياة هاشم المستحيل .

يومًا سيخبرك بابا منعم أو هاشم كيف قتلت صديقتك الأم التي تبكيها جميعًا ..

أنا تركت «صلاح» ، وأقيم الآن في بيت تونى مع آدم ، الذي ماتت أمه هو الآخر ..

دينا ..

إن قال لك هاشم يومًا إنه يكرهني ، فأخبريه أنني أصبحت أكرهني أكثر..

أخبريه أنني سأبقى العمر أتمنى لو يصفح ويغفر ..

أخبريه أنني لا أريد الصفح لأراه أو ليضمني إلى صدره ، رغم حاجتي له ولكن أخبريه أنني أريد الصفح ؛ لأتمكن يومًا من النظر داخل مرآتي دون أن يصيبني الغثيان!!

عايدة

****

أطبق هاشم على الورقة بين كفيه في ألم ، ثم ألقاها على الأرض في غضب، ليرفع عينيه ناظرًا إلى دينا ، وهو يقول:

كلنا بنتعذب يا دينا .. كلنا .

وحكى لها هاشم في اختصار كل ما حدث .. كان يستعيد تلك اللحظات التي صرخت فيها هدى ، وهو يصف نظراتها وألمها .. كان يصف لدينا كيف أمسكت بكفه في المستشفى ، ودمعاتها تهرب من عينيها ، كأنها تتوسل إليه أن ينسى عايدة .. أن يتركها .. أن يمحوها من أيامه ..

أخبر دينا كيف كان يبكي إلى جوار هدى ، وهي في العناية المركزة ، وهو يتمتم طالبًا الرحمة .. لكن السماء أبت أن تمنحه إياها .. جريمته أكبر من الرحمة ، وعقابها كان موت هدى بيديه وبين يديه .

حين جلس بعدها هاشم على حافة فراشه ، اقتربت منه دينا ، وهي تقول بحدة رغم صوتها الدامع:

يعني إيه؟! عايدة هي اللي قتلت طنط هدى؟!

ورفع هاشم رأسه ليقول:

لأ يا دينا .. أنا اللي قتلتها ..

وعادت دينا تقول:

انت .. إزاي؟! عشان خرجت مع عايدة .. عشان بتحبها .. عشان نمت معاها؟!

وكأن أفعى لدغت «هاشم» ليصيح في ألم:

دينا؟! والله أنا ما لمست عايدة والله ..

وقاطعته دينا في حدة كبيرة لتصيح قائلة:

حاجة من اتنين يا هاشم .. عايدة خانت جوزها وسلمتك نفسها ، وأنت نسيت إنها اختك ، وحصل بينكم حاجة غلط .. جوزها عرف بعد كل الشهور دي ، وبلغ طنط هدى ، أو الحاجة التانية إن عايدة نضيفة زيك وزي ما عرفتها وعرفتك .. والكلب ظلمها وظلمك وكلم طنط عشان أي غرض سافل في دماغه .. يبقى مين الكلب الحقيقي .. مين اللي اتظلم في القصة دي كلها؟!

وقال هاشم كأنه أبدًا لا يريد أن يسمع صوت العقل .. كأنه يريد حقًّا أن يتحمل المسئولية وحده .. قال هاشم في جنون:

عنده حق يا دينا .. عنده حق .

وعادت دينا تصيح في ذعر حقيقي:

عنده حق ليه؟! حصل بينكم حاجة؟!

وعاد هاشم يصيح من بين دمعاته:

ورحمة أمي .. ورحمة أمي يا دينا ما لمستها ..

وأمسكت دينا بذراعه في قسوة لتصيح من جديد:

يبقى إيه؟! يبقى انت اللي موِّت طنط هدى؟ إزاي؟ تبقى عايدة مجرمة إزاي؟ يبقى أنكل منعم ظالم ليه؟ طول الأسبوع اللي فات أقوله تعالَ نكلم عايدة يقولي لأ .. ليه؟! إيه اللي جرى .. هو احنا نسيب «صلاح» ، ونشنق عايدة ليه .. ليه يا هاشم؟!

صلاح عمل اللي هو عاوزه وبرضه على جثة عايدة وجئتك ليه؟! ليه لما بنتوجع بنضرب أي حد إلا اللي دبحنا .. وبعدين عايزة أقولك حاجة .. دا حتى يا أخي لو أنت وعايدة حصل بينكم حاجة مش غلطة عايدة ولا غلطتك .. يبقى غلطة الكلب اللي ما عرفش يخليها تحبه .. دي عايدة بتربي ابنه .. بتشتغل وتصرف عليه .. عايدة كانت عنده .. كان ممكن ينسيها اسمك .. لكن في الآخر عمل إيه؟! فوق يا هاشم .. عايدة مش غريمتك .. اللي قتل أمنا هو صلاح .. صلاح .. نشنق عايدة ليه ليه؟! نسيب عايدة في ايده عشان يقتلها هي كمان؟!

وجاء صوت منعم يقول في هدوء:

عندك حق يا دينا .. عندك حق!!

واستدارت دينا لترى «منعم» يقف إلى جوار الباب .. لقد جاء على صياحهما، ولم يشعرا به ، ونظرت إليه دينا في ألم ، وهي تقول:

عندي حق .. طب وبعدين؟!

وأرخى منعم عينيه ، وهو يعلم ما تعنيه دينا ، ثم قال بعد لحظات صمت قصيرة:

هاشم .. عايدة .

وصاح هاشم في جنون:

مستحيل .. مستحيل .. دا أنا أقتل نفسي قبلها .. مستحيل .

وخطت دينا إلى خارج غرفة هاشم ولحقها منعم ، وهو يقول:

دينا .. الوقت .. الوقت يا دينا حيداوي كل حاجة .

وقبل أن تخرج دينا ، قالت في صوتها الباكي:

الوقت؟! الوقت حيداوي جرح هاشم وجرحك يا أنكل منعم .. ممكن .. لكن كل ثانية بتفوت من الوقت دا بتقتل عايدة أكتر .. كل دقيقة بتمر عليها ، وهي مظلومة منبوذة بتشرّح قلبها ..

وأغلقت دينا الباب ليرتمي منعم على المقعد القريب ، وبعد دقائق طويلة من الصمت والألم رفع صوته مناديًا هاشم ، الذي جاء ليجلس أمامه في هدوء ، ليسمع منعم يقول ، فوهو يمد يده إلى هاتفه الصغير قائلًا:

أنا حاطلب عايدة عشان أعزّيها في أمها .. حتكلمها؟!

ونظر إليه هاشم في حدة .. في جنون .. شيء ما في عروقه يصيح ، وشيء ما يبكي ..

ردت عايدة .. وسمع هاشم «منعم» يقول في صوت خفيض:

عايدة .. شدي حيلك يا بنتي احنا كلنا معاكي .

وانتفض هاشم من مقعده .. انتفض في جنون ، كأن نارًا اشتعلت بين حناياه ، وأسرع يصفق باب غرفته خلفه ، ووقف يبكي في جنون ..

لَم يبكي؟! هل يبكي لأن «منعم» يحادثها وهو يعجز عن سماع صوتها؟ هل يبكي لأن سدًا كبيرًا أصبح يقف بينها وبينه .. أم تراه يبكي لأنه يعلم أن ما قالته دينا هو الصواب ، وما فعله منعم شيرازي هو الصواب؟! عايدة تركت «صلاح».. عايدة أصبحت حرة .. أصبح من الممكن أن تعود عايدة إلى ذراعيه .. أصبح من الممكن أن تصبح عايدة زوجته .

ولكم هاشم الباب بقبضته في جنون .. أبدًا .. عايدة هي المستحيل .. المستحيل!! ونظر إلى الورقة الملقاة تحت النافذة ، وذهب إليها ليفتحها ويقرأها من جديد ..

مسكينة عايدة .. آه لو تعلم أنه مازال يحبها ، ولكن من منا يستطيع هدم سد عال بحبه وأصابعه الجريحة؟!

عايدة أصبح لديها آدم .. عايدة مازال لديها دينا ونجوى ومنعم .. أما هاشم فلا شيء بقي عنده ، سوى امرأة ماتت بين ذراعيه ، وامرأة يموت هو شوقًا إليها .. امرأتان تبقى عودة أي منهما إليه هي المستحيل ..

****

رفع آدم عينيه الزرقاء لتسقط منها دمعة جديدة ، ونظر إلى عايدة قائلًا:

بلاش نروح يا عايدة .. بلاش ..

واقتربت منه عايدة لتضع ذراعها حول كتفه في حنان ، ثم قالت:

تاني يا آدم؟ تاني؟! لازم نروح .. ممكن تكون لسه عايشة .. آدم حتى لو تعبانة ، من حقها إنك تكون جنبها ، ومن حقك إنك تشوفها ، وبعدين توني حيروح معانا وحيساعدنا لو محتاجة أي رعاية طبية هو حيساعدها .. أنا ممكن أعيش معاكم هناك ، أو نجيبها تعيش معانا .. آدم ..

وانفجر آدم في البكاء ليقول:

أنا خايف .. أوقات باحس إنها ممكن ترجع .. يمكن لسه بتتعالج .. لو رحت ممكن أتأكد إنها .. إنها .

وضمته عايدة إلى صدرها ، في قوة ، وعادت تقول:

الأمل حلو بس مش على حساب غيرنا .. صدقني ممكن نلاقيها ..

وعاد آدم يهز رأسه في عنف ليقول:

مش حنلاقيها يا عايدة .. مامي قالت أول السنة .. عدّى كام شهر .. إحنا في مارس يا عايدة .. في مارس .

وعادت عايدة تقول في ألم:

يبقى ليه نتعذب .. قوم ياحبيبي البس هدومك .. توني أكيد حيرن علينا دلوقتي .. احنا مع بعض ، وحنواجه الموقف .. مش اتفقنا؟!

ونهض الصغير ليدخل إلى الغرفة ، التي يقتسمها مع عايدة منذ أسابيع ومنذ خروجها من المستشفى ، وتبعته عايدة بعينيها ، ثم رمت بعينيها إلى الحديقة الخلفية لمنزل توني من خلف زجاج الصالة الصغيرة التي تجلس فيها..

هدأت وسكنت روحها منذ جاءت هنا .. إنها لا تصدق أنها تحيا في هذا المكان الهادئ الصغير .. توني وكريستين يشعرانها أنها قدمت لهم صنيعًا كبيرًا بقبولها السكن في هذا الملحق الخلفي الصغير .

آدم وبيتر يلعبان معًا كل يوم بعد انتهاء واجباتهم المدرسية ، ثم يحضران إلى عايدة دومًا لتحكي لهما بعض قصصها ، بعد عودتها من العمل، وفي الثامنة يعود بيتر إلى جدته ، لتدخل هي وآدم للنوم في الغرفة الأنيقة الموجودة في هذا الملحق ..

منعم ودينا يحادثانها كل بضعة أيام .. وشعرت عايدة أن نارًا هبت رائحتها ، عندما تذكرت كيف سألت «منعم» عن هاشم بالأمس .. لكنه أخبرها أن هناك دواءً اسمه الصبر والوقت .. لو يحادثها هاشم مرة واحدة .. لو يقل لها كلمة واحدة .. ومسحت عايدة دمعة سقطت من عينيها .. هناك أشياء أخرى مهمة يجب أن تصنعها عايدة الآن .. يجب أن تعلم ماذا سيفعل صلاح معها ومع آدم .. أخبرها توني أن طلاقها منه سهل ، هي فقط بحاجة إلى محام .. أخبرها أنه سيوفر لها أمهرهم .. لكن عايدة تعلم أن أجر محام ليس في استطاعتها .. هي تعلم أيضًا أن طلاقها من صلاح ليس صعبًا وأنها ستعلم كيف تحصل عليه .. حتى آدم .. بقاؤه معها ليس صعبًا ، رغم

أن توني أخبرها أنها أبدًا لن تحصل عليه بسهولة إن أرادت القانون .. عايدة ليست أمه .. عايدة لن تكون حتى زوجة أبيه .. لكي تحصل على آدم يجب أن تثبت أن «صلاح» ليس أهلًا له .. يجب أن تقدم طلبًا للتبني .. أخبرها أن الطريق صعب وشائك .. لكن عايدة تعلم أن بقاء آدم ليس مستحيلًا .. من قال إن صلاح يريده .. من قال إن «صلاح» يقبل إنفاق بنس واحد عليه .. صلاح إن قال يومًا إنه يريد آدم ، فذلك سيكون فقط للضغط عليها ، ولكنها ستعلم كيف تتعامل معه .. ما يشغلها الآن هو ماري .. هل ماتت حقًا .. لقد أخبرها آدم هي وتوني أن أمه أعادته إلى صلاح ؛ لأنها اكتشفت مرضها بالسرطان وانتشاره في جسدها .. أخبرها توني أنها كانت في مرحلة متأخرة جدًا ، وأنها أخبرت آدم ألا طريق آخر أمامها ، سوى أن تتركه لدى صلاح حتى تعود وتخضع للعلاج ..

أخبرهما آدم أن ماري قالت إنها ستعود إن نجحت ، وإن لم تعد فلا معنى لهذا سوى أنها ماتت .

آدم وعايدة وتوني سيذهبون بعد لحظات إلى إكستر ديفن ، التي تبعد حوالي 250 كم عن قلب لندن .. يجب أن يعلموا الحقيقة .

كم تتمنى عايدة لو كانت ماري بخير .. وعاد جسدها ينتفض .. هل تماثل للشفاء؟! هل مازال أمامها بعض الوقت؟! ماذا سيفعلون؟!

لا تعلم .. لكنها تعلم أن الحقيقة يجب أن تظهر .. أن الأمور يجب أن تنجلي .. وأن الألم يجب أن يواجه ويقهر .

وجاءها صوت هاتفها يخبرها أن توني في انتظارهما، وأقبل آدم وهو يرتدي بنطلونًا كحليًا ، وعليه قميص وردي، وسارعت عايدة تحضر له بلوفر من غرفتها ؛ لتمسك بكفه الصغير بين أصابعها في حنان .

إن وجه آدم وكفه الصغير كلاهما كقطعة من جليد شاحب ، لا لون فيه أو روح ، وزاد ضغطها على كفه ، كأنها تريده أن يستمد من أصابعها الدفء والحرارة .

ونظر توني إلى عايدة .. إنها جميلة ترتدي بنطلونًا أسود وبلوفر أسود اللون ، وعلى صدرها يتدلى هلال الذهب الأبيض ، الذي عرف قصته منها .. إنها جميلة لكنها منذ خروجها من المستشفى ، وهي حزينة وثيابها دومًا هي هذه الثياب السوداء ، التي طلبت من كريستين أن تشتريها لها قبل خروجها من المستشفى!

ودخلت عايدة إلى جوار توني وآدم ، حيث انطلق بهم السائق إلى إكستر ديفن ، وعاد توني يرمق عايدة بطرف عينيه ، وهي تأخذ رأس آدم إلى صدرها.

كم هي رقيقة هذه المرأة الشابة .. منذ سكنت معهم ، وهي تحاول أن تصنع لهم بعض المأكولات الشرقية والحلويات .. لقد عرضت على توني أجرة لسكنها ، لكنه ضحك طويلًا ، وقال لها إن كريستين تقتله لو سمعتها تقول ذلك .

أخبرها أن بيتر وجد فيها أمه ، وأن كريستين تتحسس فيها سيلفيا .. أخبرها أنها إن تقبل لدفعوا لها هم كل ما يملكون .. أخبرها أنه يشعر بالامتنان لأنها تضم بيتر وآدم ، وتمنحهما الحب والأمان .. أخبرها الكثير ، ولكنها بقيت دومًا تردد أنها سترحل في أقرب وقت ، تستطيع فيه دفع إيجار مسكن صغير لها ولآدم .

ودون وعي ، مد توني ذراعيه ليلفها حول كتفي عايدة ، ثم قال في حنان:

عايدة .. أنت هدية يا عايدة .. هدية .

ونظرت إليه عايدة لتسقط من عينيها دمعة صغيرة ، ألقت بعد سقوطها برأسها إلى الخلف على ذراع توني لتقول:

مين هدية مين يا توني؟ مين بياخد بأيد مين؟!

ورفع آدم عينيه ينظر إلى توني ، كأنه يلوذ به ويحتمي بوجوده ووجود عايدة إلى جواره .. مازال الطريق إلى إكستر ديفن طويلًا ، ولكن مع كل ميل تقطعه البنتلي السوداء ، كان رجاء وخوف كل فرد من ركابها يعلو دبيبه وصوته ، وكلما زاد خوفهم زاد اقترابهم من بعضهم البعض ، حتى كاد الثلاثة يشعرون أنهم شخص واحد ، يستعد لمواجهة أقسى لحظة في عمره!

حين وصلت البنتلي السوداء إلى إكستر ديفن ، بعد أكثر من ساعتين ، أخذ آدم يتلفت بوجهه إلى جميع الاتجاهات في ذهول .. عايدة أيضًا كانت تنظر من خلف النافذة في ذهول كبير .. البلدة جميلة هادئة لامعة ، كأنها تابلوه رائع رسمته الطبيعة ، وشعرت عايدة بحزن كبير .. كانت تشعر بالألم يوم انتقلت من شارع نهرو إلى حيث يحيا صلاح .. كيف كان تراه آدم يشعر، يوم ترك كل هذا الهدوء والجمال ليحيا في ناين إلمز .

كان آدم يصف للسائق الطرق التي يسير فيها .. كان يبدو ، وكأنه يعرف كل شوارع البلدة الجميلة ..

وبعد دقائق صاح آدم مشيرًا إلى أحد البيوت البيضاء الصغيرة ، وهو يقول:

هو دا بيتنا يا عايدة .. هو دا ..

وهبط الثلاثة في هدوء ليتقدموا نحو المنزل ، وعاد آدم يصيح:

إحنا الدور اللي تحت .

البيت أبيض وعلى سطحه قرميد ، تداخلت فيه الألوان بشكل أنيق نظيف .. وركض آدم إلى الحديقة الصغيرة ، التي يقع في نهايتها البيت وتبعته عايدة ، ومعها توني إلى الجهة الخلفية ؛ حيث وجدا بابًا صغيرا كان مدخلًا لبيت ماري وآدم يومًا .

ووقف الثلاثة أمام الباب ، كأن كلًّا منهم ينتظر الآخر ليدقه ، ولم يتقدم أحد ، حتى آدم وقف مكانه يمسك بكف عايدة في خوف كبير .

وحده توني تقدم نحو الباب ليطرقه طرقات صغيرة متباعدة ، ولكن دون فائدة ، وبعد لحظات قالت عايدة في صوت خفيض:

آدم .. الشباك عليه تراب كتير .. واضح أن مافيش حد جوّا .. نعمل إيه؟!

ورفع آدم رأسه ، كأنه بدأ يستعيد وعيه وتركيزه ليقول:

نروح عند آنت مارجريت صاحبة البيت .

وعاد الجميع إلى الباب الرئيسي في مقدمة البيت ؛ ليطرق آدم هذه المرة الباب ، وهو يصيح كما اعتاد أن يفعل زمنًا ليقول:

آنت مارجريت .. أنا آدم .. آدم يا آنت ..

ثم عاد يفسر لهم سر صياحه قائلًا:

أصل آنت مارجريت سمعها ضعيف شوية ..

وبعد لحظات طويلة ، فتح الباب لتطل من خلفه سيدة عجوز ، ربما جاوزت السبعين .. كانت المرأة ترتدي ثوبًا مزركشًا بنقوش ملونة ، وكان شعرها الأبيض الخفيف مصففًا في أناقة ، إلا أنها كانت في ذهول كبير ، وهي ترى آدم يقف أمامها وخلفه توني وعايدة .. وبعد دقائق أفاقت المرأة لتلوح في عينيها دمعة ، صاحت من خلفها ، وهي تحتضن آدم في حب كبير .

وأفسحت لهم المرأة الطريق ليدخلوا إلى البيت .. كانت صالة البيت أنيقة رغم بساطة مفروشاتها، وأشارت لهم بالجلوس ، وآدم مازالت كفه بين يديها لتجلس بصعوبة على أحد المقاعد ؛ حيث تركها آدم مسرعًا إلى جوار عايدة، ورأته السيدة العجوز يضع كفه بين أصابع عايدة ، التي أطبقت على يده في حنان واضح .

لحظات مرت دون أن يتحدث أحد .. لحظات وعايدة لا تعلم ماذا تقول، ولا آدم يشعر أن له صوتًا يمكنه أن يخرج من جوفه .

وللمرة الثانية ، رفع توني عينيه الصغيرتين الثاقبتين ليقول:

د . توني والتر .. ودي عايدة مراة أبو آدم .. إحنا جايين نطمن على ماري.

وشهقت السيدة شهقة صغيرة لتمد يدها ، وتلتقط عكازًا كان إلى جوار مقعدها ، وأسندت رأسها إلى العكاز ، وعادت تنظر إلى وجه آدم الشاحب لتقول في ألم:

أنا آسفة يا آدم .. ماري ..

وقبل أن تكمل ، رأت السيدة عايدة تسحب كفها من بين أصابع آدم ؛ لتضع ذراعها حول جسده الصغير، وتميل برأسه على صدرها في قوة .. رأتها السيدة تهز رأسها ، كأنها ترجوها ألا تقول كلمة «ماتت» أبدًا ..

وعاد توني يقول:

امتى؟!

وعادت العجوز ترفع رأسها ؛ لتنظر إلى وجه آدم ، الملقى على صدر عايدة، وقالت ، وهي تنظر في عينيه المفتوحتين رغم سقوط الدمع منها:

ماري ماتت أول يناير .. آدم .. ماري حاولت كتير .. حاربت بشراسة عشان تقدر لكن هزمها المرض .. هزمها .. آدم أنا ما كنتش أقدر أزورها كتير في المستشفى .. لكن أنا كنت معاها يوم الوفاة ..

ماري قالت إنها عارفة أنك حتيجي في يوم .. طلبت مني أقولك إنها بتحبك ، وأنا عارفة إنك قوي ، وحتنفذ الوعد اللي أنت وعدتها بيه .

ونهض آدم ليتقدم نحوها قائلًا:

آنت .. ممكن أدخل بيتنا؟

وسقطت من عين مارجريت دمعة ، لتشير بيدها إلى طاولة بعيدة قائلة:

آدم .. المفتاح في المكان اللي أنت عارفه .. كل حاجة في مكانها .. مايك ابني حيوصل الأسبوع الجاي عشان نفضي المكان .. روح يا آدم .. جيت في الوقت المناسب .

والتفت آدم ينظر إلى عايدة قائلًا:

تيجي معايا يا عايدة؟!

كانت عايدة تبكي في وجوم ، ومن خلف دموعها الكثيفة ، نظرت إلى توني كأنها ترجوه أن يذهب معه .

وأمسك توني بيد آدم ، الذي توجه إلى طاولة بعيدة عليها ، بعض الصور والتحف الصغيرة ، التي أمسك بإحداها بين أصابعه ، ليستخرج من داخلها مفتاحًا ، وأكمل طريقه مع توني ليتركا عايدة وحدها مع مارجريت ، التي استندت إلى عكازها لتقف قائلة:

تشربي قهوة؟!

وسقطت زخات من عيني عايدة ، وهي تنهض لتتبعها في وجوم كبير ، ودخلت المرأتان إلى المطبخ الصغير النظيف ، وسمعت عايدة مارجريت تقول:

آدم طفل عبقري .. ماري جت من سنين ، بعد طلاقها من أبو آدم وخروجها من نابن إلمز ، وأجرت الشقة الخلفية .. سنين وهي بتروح شغلها في المستشفى، أنت عارفة إن إكستر ديفن فيها مستشفيات كتير .. أنا حبيت آدم .. حبيته جدًا .. ابني الوحيد عايش على بعد 500 كم من هنا تقريبًا .. بيزورني مرة أو مرتين في السنة .. ماري بقت بنتي .. تروح الشغل وتسيب المفتاح لآدم في نفس المكان اللي أخده منه .. تروح الشغل وترجع الساعة سبعة بالليل .. تصوري .. ترجع عشان تحضر العشا .. في السنين الأخيرة كنا بناكل مع بعض كل يوم تقريبًا ، ما عدا الويك إيند .

أبو آدم كان «صعب» .. يمكن اتغير دلوقت .. لكن ماري كانت بتقول إنه كان «صعب» ، وإنه تعبها كتير .. عمري ما شفتها بتواعد راجل .. آدم هو كل حاجة في حياتها .. قلتيلي اسمك إيه؟!

والتقطت عايدة كوب القهوة ، لتجلس على مقعد صغير ، أمام طاولة صغيرة في المطبخ ، وقالت:

عايدة .. اسمي عايدة؟!

وعادت المرأة تقول:

انت مصرية مش كدا؟!

وهزت عايدة رأسها في هدوء لتسقط دموع جديدة من عينيها ، قالت مارجريت بعدها:

بتحبي آدم؟!

وابتسمت عايدة ابتسامة صغيرة مريرة ، ولم تجب ، ومدت المرأة يدها لتضعها على كف عايدة قائلة:

تصوري مرضة هايلة ، وفي مستشفى كبير بتقضي فيه أكتر من عشر ساعات كل يوم ، وما تعرفش إن عندها «سرطان» في صدرها .. ماعرفتش غير بعد ما انتشر في الرئة ووصل المخ كمان .

كانت بتقعد مكانك هنا وتبكي كل يوم .. عمري ما شفت حد بيموت يبكي ؛ عشان خايف من فراق اللي بيحبه ، أكتر من خوفه من الموت نفسه .

ماري جابتلكم آدم عشان ماكنتش عايزاه يشوفها ، وهي بتتألم .. حاولت كتير أقنعها إن دا غلط ، لكن كان عندها حق .. لو شفتيها كانت عاملة إزاي في العلاج الكيماوي والإشعاعي .. عندها حق .

بتحبي آدم يا عايدة؟!

ومن جديد لاحت الابتسامة الصغيرة المريرة على وجه عايدة ؛ لترفع عينيها من جديد ، ولتسقط منها أيضًا زخات جديدة من الدمع .. وأرخت عينيها بسرعة .

وعادت المرأة تقول:

جوزك بيأذيه؟! بيأذيه يا عايدة؟!

ونظرت إليها عايدة في حيرة ، تخاف أن تخبرها أن آدم يحيا معها .. إنها لا تعلم القوانين .. قد تجن المرأة إن علمت أن آدم يحيا مع غريبة ، لا صلة له بها .. قد تبلغ السلطات .. ولكن لِمَ لم تقل لها حتى أنها تحبه .. صوتها يختنق ، ومع كل قطرة قهوة ترتشفها ، تشعر أنها تبتلع جيوشًا من الدمع والألم ـ

ونهضت عايدة في هدوء ، وهي تقول:

أنا حاروح أشوف آدم وحارجع تاني .

ونهضت مارجريت لتقول:

جاية معاك ..

عندما دخلت عايدة من الباب المفتوح ، وجدت توني يقف في هدوء في منتصف الصالة الصغيرة ، التي كانت بها أريكة ملونة ، أمامها مكتبة صغيرة بها جهاز تليفزيون ، وفي أحد الأركان طاولة طعام صغيرة حولها مقعدان .

رغم الأتربة ورغم البساطة ، إلا أن المكان كان جميلًا ، ويبدو أنه كان يومًا في غاية النظافة .

وجلست مارجريت على أحد المقاعد ، وهي تستند إلى عكازها ، وترقب بعينيها الملونتين عايدة ، التي وقفت تبحث عن آدم في لهفة ، وأشار توني لها بيده إلى حيث دخل آدم إلى غرفة أمه .. أخبرها توني أن آدم طلب منه أن يتركه وحده هناك .. إلا أن عايدة لم تحتمل طويلًا ..

كان باب الغرفة مفتوحًا ، وكان بإمكانهم جميعًا رؤية آدم ، وهو يجلس على فراشها وظهره لهم .

وبهدوء وقفت عايدة على باب الغرفة ، لتسمع مارجريت صوتها يقول:

آدم .. آدم ..

لم تدخل عايدة ولم يلتفت آدم .. كان يجلس مواجهًا وسادة الفراش .. كان يبدو أنه يستعيد وجه ماري عليها .. كان الصمت عاليًا لا شيء يقطعه ؛ سوى نهنهات صغيرة ، كانت عايدة تكتمها بين صدرها وشفتيها .

وكأنما شعر آدم ببكاء عايدة ، واستدار ينظر نحوها ليرى وجهها غارقًا في الدمع ، وهي تستند بكفها إلى باب الغرفة ، ونهض في هدوء ليقبل نحوها ، وهو يرفع كفه بثوب وردي ، كان يحمله قائلًا:

دا فستان مامي يا عايدة .. أكتر فستان كانت بتحبه .. مش قلتلك يا عايدة إنها ماتت .. مافيش حاجة في الدنيا تخلي ماري ما تحافظش على وعدها غير الموت .

وسقطت عايدة على ركبتيها أمام آدم لتضمه بين ذراعيها في حنان .. كانت تشعر بقسوة كل ما يشعر به الصغير .. كانت تشعر بعجزها وخوفها من أن تكون أخطأت بحضوره وحضورها .. كانت تشعر أن موت ماري وأحلام وهدى كله أصبح هذه اللحظة .

وأجهش آدم بالبكاء على كتف عايدة ، وقال من بين دموعه:

أنا بحبك .. بحبك قوي يا عايدة .

****

ساعات طويلة مرت عليهم في منزل مارجريت ، تناولا فيها طعامًا خفيفًا أصرت مارجريت على إعداده لهم ، وأخبرتهم أن بإمكانهم العودة متى شاءوا ، وأن بإمكانهم أن يأخذوا كل ما يريدون من متعلقات ماري الخاصة .

وحين خرجت إلى الحديقة الأمامية لوداعهم ، نظرت إلى عايدة قائلة بعد تردد قصير:

ممكن دقايق؟! روح أنت يا آدم مع د . والتر .. أنا عايزة عايدة .

وأخذ توني آدم بعيدًا إلى البنتلي التي كانت في انتظارهم مع بيل ؛ لتدخل عايدة خلف مارجريت ، وهي لا تحاول إخفاء دهشتها ، حين أغلقت مارجريت الباب خلفهما لتقول:

دقيقة وحارجع .

وبعد لحظات عادت مارجريت ، تحمل في يدها شيئًا كالكتاب ، وضعته بين يدي عايدة قائلة:

الحب بيتشاف .. وأنا شفته وسمعت آدم وشفته بيقوله .. دي مذكرات ماري .. أمنيتها كانت إن آدم ياخدها لما يبقى عنده عشرين سنة .. ونكست العجوز رأسها لتتابع في ألم:

أنا ماعرفش إذا كان في عمري عشر سنين كمان .. كنت حاديه لمايك يحتفظ بيه .. لكن مايك مايعرفش آدم .. شافه بس ما يعرفوش .. أنت بتحبي آدم .. آدم بيحبك .. خدي اتصرفي .. ماري حترتاح دلوقتي ..

ونظرت عايدة إلى المذكرات ، التي وضعتها مارجريت في يدها ، وعادت تنظر إلى عين السيدة الدامعة وضمتها إلى صدرها ، وهي تقول:

أنا بحب آدم .. بحبه أكتر من ..

وضمتها المرأة في قوة لتقاطعها قائلة:

الحب الحقيقي هو اللي بتشاف موش اللي يتقال ..

ابقي زوريني يا عايدة .. كل ما آدم ييجي يزور قبر ماري تعالي زوريني!!

****

وقف الثلاثة أمام قبر ماري ؛ ليضع عليه توني باقة زهر كبيرة ، اشتراها في الطريق ، ونظر آدم إليهما بعد لحظات ليقول في خجل:

ممكن أتكلم معاها؟!

وانحنت عايدة تقول:

أكيد .. وحتسمعك ..

وعاد آدم يسأل:

أنت عايزة تقوليلها حاجة يا عايدة؟!

وابتسمت عايدة قائلة:

لا يا آدم .. أنا عارفة إنها حاسة قد إيه بحبك .. تحب نسيبك معاها شوية لوحدك ..

وهز الصغير رأسه بالموافقة ؛ لتمضي عايدة إلى جوار توني في سكون ، حيث جلسا على أحد المقاعد الرخامية ، بعيدًا عن آدم ليرقباه في ألم كبير .

وسقطت زخات أخرى كثيرة من عيني عايدة ؛ ليأخذها توني على صدره لحظات طويلة ، قال بعدها:

وبعدين يا عايدة .. حتعملي إيه؟!

ورفعت عايدة رأسها من على كتف توني ، لتنظر إلى آدم ، الذي كان يجلس أمام قبر أمه على البعد ، وقالت في ألم وتصميم كبيرين:

حاكتب يا توني ..

وعقد توني حاجبيه ليسأل:

إيه .. تكتبي؟!

وأجابت عايدة في هدوء:

حاكتب رواية .. حاكتب عن الإنجليزي الصغير اللي ماتت أمه ، وعشقته مسلمة مصرية ..

ونظر توني إليها في فرح ليقول:

قصدك اللي أنقذته ..

وعادت عايدة تقول:

حتساعدني؟!

وضمها توني في حنان ليقول:

حاعمل اللي أقدر عليه!!

****

كل شيء في عيني حسن ورأسه هذا الصباح لا لون له إلا اللون الأسود .. قبل أن تخرج دينا إلى عملها هذا الصباح ، تشاجرت معه من جديد .. لقد أحضرت له مشتريًا للفيلا ، التي رفضت حتى الذهاب لمشاهدتها ؛ حيث كان يأمل كثيرا أن تقع في هواها ، وتصبح حلمها مثلما هي حلمه ..

جاءت له بمشتر يدفع له كامل المبلغ الذي دفعه ، وحتى القسطين الأول والثاني اللَّذين استدانهما من والده ، دون أن يخبره عن الفيلا أو قصتها .. لقد رفض .. رفض حسن في جنون .. حسن لن يتنازل أبدًا عن الفيلا .. ما عساه سيفعل بالنقود التي سيستردها .. قالت له هذا الصباح إن بإمكانه أن يبدأ مشروعًا ما .. حمقاء دينا .. حمقاء.. من يبدأ مشروعًا في هذه الأوضاع والظروف .. وأي مشروع يبدأه بنصف مليون جنيه ، وكم من الشهور والأعوام سينتظرها لينجح المشروع .. ومن قال إن «حسن» يفهم في المشاريع ..

حسن لا يفهم سوى في الكمبيوتر والأسواق المالية والأسهم والبورصة .. سيجد عملًا في شركة أخرى .. بل لقد جاءته عروض في شركات أخرى ومن عملاء ، كان حسن وحده سببًا في ثرائهم .. لكنها كلها وظائف دخلها لا يزيد عن خمسة آلاف .. حسن لن يقبل بدخل أقل من خمسة عشر ألف جنيه شهريًا .. إنه لا يفهم لِمَ هي غاضبة إلى هذا الحد .. مازال يمنحها آلافًا قليلة كل شهر .. لم تتفق دينا عليه أو على مختار بعد ، فلماذا هي غاضبة إلى هذا الحد؟! ليس عقلًا أن يقبل العمل بمثل هذا الدخل الشهري .. لن يعرض

عليه شيء أفضل بعدها ، ولن يصبح لديه الوقت أبدًا للبحث .. من يقبل بالقليل لن يحصل يومًا على الكثير .. ما الذي يغضبها؟! لماذا تكره قصة الفيلا إلى هذا الحد .. لماذا تعتبر أنها حيلة منه للابتعاد عن نجوى وشارع نهرو .. لقد أقسم لها أنه أبدًا ما كان ليترك نجوى وحدها يومًا .. أصبح يؤمن أن حالتها تدهورت بشكل كبير .. لقد أصبحت نجوى تنسى حتى من هي دينا .. في أيام كثيرة ، تذهب لتطرق باب هدى لتشرب معها قهوتها ، أو تسألها عن عم علي الطباخ ، لتسأله عن طبخة ما تعدها ، وفي كل مرة تبكي ، عندما يخبرونها أن هدى ماتت منذ شهور .. في كل مرة تثور نجوى غاضبة من دينا لأنها أخفت عنها وفاة هدى ..

وفي كل مرة تبكي دينا ، وهي تقسم أنها أخبرتها ، وأنها كانت في أيام العزاء يومًا فيوم ..

ونهض حسن من فراشه في تثاقل ليخرج إلى غرفة المعيشة ، بعد أن طلب من صباح إعداد كوب من الشاي ، حيث جلس كعادته أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به ..

من هذا الجهاز كانت ثروته ، ومن هذا الجهاز سيستعيد حسن وضعه وسيجد حلًا لمشاكله وسيحتفظ بحلمه .. حسن عبدالكريم لن يتنازل عن فيلا العبور أبدًا ، ويومًا ستهدأ دينا حين يجد عملًا يدر عليه الدخل الذي فقده .. يومها ستذهب دينا معه ، وستعلم أن حياة الكومباوندات ليست حياة في مصحة نفسية ، ولكنها حياة صحية راقية من حقه وحقها وحق مختار ، وحتى نجوى ، أن يستمتعوا بها .

وغاب حسن كعادته مع جهاز اللاب توب الخاص به ، وظهرت صباح تحمل له كوب الشاي ، وطلب منها حسن أن تشتري له بعضًا من سجائره

التي نفدت .. وبعد أن غادرت «صباح» البيت ، شعر بها تدخل عليه ليسمعها تقول:

حسن حبيبي .. هي صباح راحت فين؟!

ونظر حسن إلى وجه نجوى ، ليقول:

أنا بعتها يا طنط تشتري سجاير من تحت .. حضرتك محتاجة حاجة .. مختار صحي؟!

وأجابته نجوى ، وهي تمضي خارج الغرفة قائلة:

لا يا حبيبي مختار نايم؟ هي دينا فين .. أنا دورت عليها في البيت كله .. هي راحت عند عايدة؟!

واستدار حسن ينظر إلى اللاب توب قائلًا:

طنط نجوى .. عايدة في لندن بقالها سنتين تقريبًا .. ودينا في الشغل ..

وسمعها من بعيد تقول:

خليك في شغلك يا حبيبي .. أنا حَتدهلها ..

وغاب حسن في شاشة الكمبيوتر ، وأفاق بعد لحظات ليلتقط علبة السجائر التي أحضرتها صباح ، وسمعها تقول:

عايز حاجة يا أستاذ حسن .. أنا حاروح ابتدي في المطبخ قبل مختار ما يصحى ..

ولم يجب حسن .. كان رأسه حقًا مشغولًا بكتابة ايميل يرسله إلى إحدى الشركات ، التي أرسلت له تطلب حضوره لإجراء مقابلة شخصية مع أحد مدرائها ..

حسن لن يبدأ قبل أن يثبت لدينا أنه على حق ..

حسن سيجد عملًا كالذي فقده .. عندها سيستعيد دينا ، التي بدأت تبتعد عنه .. عندها ستعلم دينا أنه ليس طفلًا أنانيًا ، ولكنه رجل عاقل يعلم ما يفعله ، ويعلم أين يضع قدميه ومتى يقبل ومتى يرفض ، وكيف يصنع قصرًا ويحافظ عليه ..

****

كانت الثالثة ظهرًا ، عندما سمع حسن صياح صباح لينهض مذعورًا، ويتجه خلف صوتها ، حيث وجدها تقف على باب غرفة نجوى ، وهي تلطم خديها في جنون قائلة:

الحقني يا حسن بيه .. الست نجوى مش هنا ..

وركض حسن إلى غرفة مختار ، ليجدها هي الأخرى خاوية ، إلا أن «صباح» عادت تقول:

مختار في الصالة يابيه .. صحي من شوية ، وأنا أخدته برا يتفرج على التليفزيون ، ومن شوية مدام دينا اتكلمت ، وسألتني عن الست نجوى لما قلتلها ماخرجتش من أودتها النهاردة ، قالتلي آجي أشوفها مالقتهاش ..

كان حسن يدور بين غرف البيت ، يفتح أبوابها بابًا تلو الآخر ، وهو يصيح:

مستنية لحد الساعة تلاتة الضهر يا صباح .. مافكرتيش تعمليلها شاي أو فطار ..

وعادت صباح تلطم ، وهي تصيح:

والنبي ماخرجت من المطبخ من ساعة مارجعت من مشوار السجاير بتاع حضرتك .. الست طلبت ورق عنب ، ومن ساعتها ، وأنا باسلقه وأعمل خلطته وألفه .. أنا قلت لو الست احتاجت حاجة حتندهلي ، لولا إن الست دينا ..

لم يكن حسن يسمع الكثير مما قالته .. لقد وقف رأسه عند كلماتها التي قالت فيها أنها خرجت لشراء السجاير .. وركض حسن إلى باب البيت ، وأمسك به بين كفيه ، وأدار مقبضه في جنون وصاح:

يخرب بيتك .. أنت لما رجعتي من بره ، ما قفلتيش الباب بالمفتاح يا صباح..

وركض حسن إلى باب منعم شيرازي .. لقد تذكر ما قالته هدى هذا الصباح عن دينا وعن عايدة ، ووقف يطرق الباب في جنون .. لقد سمعها تخبره أنها ستذهب لإحضار دينا من بيت عايدة .. سمعها لكنه لم يعي ما قالت .. كان رأسه مشغولًا بالكمبيوتر .. وكان دومًا لا يفكر فيما تقوله نجوى .. لقد اعتاد أن يسمعها ، دون عقل أو تركيز ؛ لأنه يعلم أن كثيرًا مما تقوله حروفًا أقرب منها إلى الهذيان .. وعاد يطرق الباب مرة أخرى ؛ ليطل هاشم الذي كان واضحًا أنه كان نائمًا بعد عودته من رحلة المحاكم والمكتب الصباحية ، وصاح حسن يسأله:

طنط نجوى مش عندكم يا هاشم؟!

وأجاب هاشم في ذعر كبير:

لأ .. أنا نزلت أنا وبابا الصبح بدري ، ورجعت من ساعة ، وبابا في إسكندرية حيرجع بالليل .. فيه إيه يا حسن؟! هي خرجت لوحدها .. فيه إيه؟!

****

في هدوء مدت عايدة أصابعها الطويلة ، تتحسس بها المقعد الذي تجلس عليه أمام نهر التايمز .. وأطلقت آهة صغيرة .. هنا جلس هاشم إلى جوارها .. هنا كانت تضع رأسها على كتفيه ، وهما في انتظار ظهور آدم ..

هاشم؟! هل نسيها .. هل حقًا نسيها .. مازال منعم يحادثها .. مازالت دينا تراسلها ، ولكن «هاشم» كأنه ما عرفها يومًا .. هل تلومه عايدة؟! أبدًا ..

منعم يخبرها أنه بخير ، ولكن دينا قالت لها إنه تبدل كثيرًا .. هاشم في الشهور الماضية أصبح أكثر شيخوخة من منعم نفسه .. هاشم يعمل مع والده ويستعد لإنهاء رسالة الماجستير .. دينا أخبرتها أنها يجب أن تنتظر .. مازال هاشم يرفض حتى الحديث عن عايدة .. مازال هاشم غارقًا في حزنه وشعوره الدفين بأنه وحده قتل هدى ..

وعادت عايدة برأسها إلى الخلف .. ستة أشهر منذ ذاك اليوم الأسود .. ستة أشهر وهي بين عملها وأوراقها .. عايدة تكتب كل مساء .. لقد قطعت شوطًا كبيرًا في روايتها .. إنها سعيدة بما كتبت ، بل إنها تشتاق إلى القلم .. عايدة تشعر أن ما يربطها بالحياة هو القلم وآدم .. لكن مازال أمامها بعض الوقت حتى تنتهي .

وعادت تتنهد مرة أخرى في ألم .. كل شيء ينتهي .. كل شيء يذوب إلا هاشم .. من أجله تكتب .. من أجل حبها .. من أجل وعدها .. من أجل حلمه .. ومن أجل نسيانه .. من أجل أمل مات ، وأمل يصارع الموت ، وأمل يولد كل لحظة بأن تراه بأن يسمح لها حتى بسماع صوته ..

لا شيء حقًّا يربطها بالحياة ، سوى آدم والقلم وهاشم ..

وفي تثاقل نهضت عايدة عن مقعدها .. آن الوقت لأن تعود إلى العمل .. آدم سيذهب وحده إلى البيت .. يجب أن تعود لتقضي الساعات المتبقية لتذهب وتحتضن ما بقي لها .. آدم والقلم!!

وقبل أن تدخل المقهى الذي تعمل فيه ، سمعت صوته يناديها في قسوة كبرى .. وشعرت عايدة أن الأرض تدور بها ؛ لتنظر نحو الصوت في ألم كبير وهي لاتصدق ماتسمع .. وسمعته يقول في سخرية:

إيه نسيتيني؟!

ورغم الألم الكبير .. رغم الحزن الأكبر الذي اجتاح روحها ، إلا أنها استعادت شيئًا من هدوئها لتقول في صوت بارد:

عايز إيه يا صلاح؟!

واقترب منها ليقول:

عايز أفكَّرك إني جوزك .. سبتك ست شهور وبرضه ماافتكرتيش .. جيت أفكَّرك ..

وبنظرة هادئة ثاقبة ، قالت:

اسمع .. انا عندي شغل .. روح ربنا يسهلك ..

وأمسك صلاح بذراعها في قسوة ليقول:

أروح فين .. أنا سبتك الشهور دي بمزاجي .. أنت حاترجعي معايا أنت وابني .... أنا كنت حاروح آخده من المدرسة .. وأخليك تيجي تجري وراه زي الكلب .. لكن قلت أعمل بأصلي يا عايدة ..

وفي سخرية كبيرة قالت:

أصل؟! .. عايز ابنك .. عارف طريقه .. روح خده .. لكن أنا لأ .. اسمع أنا اتكلمت مع محامي من فترة ، وقاللي إن طلاقنا مافيش أسهل منه .. أنا دلوقتي زيي زيك مواطنة إنجليزية ، بس أنت ما تناسبنيش .. في أول جلسة ، ومن أول نظرة ، ومن أول جملة تنطق بيها .. أنت عارف الحكم حيبقى لصالح مين ..

وعاد صلاح يصرخ:

وآدم؟

ونفضت عايدة ذراعها من بين أصابعه لتقول:

أنا عندي شغل .. عايز تاخده روح خده من المدرسة ، ولا أقولك النهاردة أول ما يطلع من المدرسة الساعة أربعة ، أنا حاستأذن من الشغل وأجيبهولك بهدومه ، حتى عشان ما تضطرش تشتريلوا لبس ..

روح استنى في بيتك يا صلاح .. أنا حاوصلك آدم لغاية عندك ..

واضطربت عيناه وهو لا يصدق .. هل تقذف عايدة بآدم بهذه السهولة .. ربما كانت تلاعبه .. وبعد لحظات قال:

الساعة خمسة لو آدم ما جاش ..

ولم تدعه عايدة يكمل ، بل تركته لتمضي إلى داخل المقهى في صمت ، وهي ترتجف رغم ثباتها ..

لمَ عاد هذا الدنيء بعد ستة أشهر .. هل حقًّا جاء يأخذ آدم .. لقد أخبروها أنه إنْ فعل .. سيصبح من المستحيل أن تنال هي حق حضانته .. عايدة لا تمت له بصلة .. القضية كبيرة .. القضية صعبة .. عايدة يجب أن تثبت أن «صلاح» ليس أمينًا عليه ، ويجب أن تتقدم بعدها بطلب لتبنيه .. عايدة لا سكن لها .. عايدة ضيفة على نوني .. عايدة لا صفة لها .. عايدة أيضًا لا تملك ما يجعل

أي محكمة إنجليزية .. تأتمنها على طفل مثل آدم .. وكيف حتى إن قررت الدخول إلى دائرة القضايا ، أن تحتمل أن يأخذوا آدم إلى إحدى دور الرعاية ، أو منحه لأسرة إنجليزية تتبناه ؛ حتى يتم الفصل في القضية .

وسقط الكوب الذي كانت تحمله عايدة ، بعد أن ملأته بالقهوة لتقديمه إلى أحد رواد المقهى ..

سقط على الأرض لتتطاير القهوة السوداء أمامها عاليًا ، وشعرت عايدة أن قلبها كان ذاك الكوب ، وانحنت تحاول التقاطه ؛ ليتقدم أحد سقاة المكان طالبًا منها أن تترك له المهمة .. عايدة الآن أصبحت رئيستهم جميعًا ..

ورفعت عايدة رأسها لتنظر حولها في ذهول .. ستترك له مهمة تنظيف ما تحطم منها ، لكن يجب أن تقوم هي بمهمة أكبر ، تحمي فيها كل ما بقي لها على الأرض من أن يضيع أو يتكسر .

وغادرت عايدة المقهى في هدوء ، بعد أن استأذنت ؛ لتقف على باب مدرسة آدم الذي صاح حين رآها قائلًا:

عايدة .. انت استأذنتي من الشغل .. حنروَّح سوا؟

أومأت عايدة رأسها بالإيجاب في صمت ، ثم قالت:

آدم .. لازم نروح البيت دلوقتي ..

ووضع آدم كفه بين أصابعها ليمسك دراجته بيده الأخرى ، وهو يشعر أن شيئًا ما لا يفهمه يدور .. وبعد لحظات جاءه صوت عايدة يقول:

آدم .. أنا آسفة .. أبوك عايزك .. إحنا حنروح نلم هدومك وحاوديك عنده .

أنا حقيقي آسفة يا آدم ، بس إحنا ما عندناش حل تاني!!

****

أغلقت عايدة الحقيبة الثانية لملابس آدم في صمت ، وهو يجلس أمامها على حافة الفراش في ذهول كبير .. واستدارت عايدة ، تنظر إليه في حزن وألم ليرفع عينيه قائلًا:

أنا مش حاروح يا عايدة .. مش حاروح ..

كان قلبها يتمزق .. كانت عروقها تشتعل ، إلا أنها اقتربت منه في هدوء لتضع كفها البارد أسفل وجهه ، وترفعه لتنظر في عينيه الصغيرة ، إلا أن آدم قال في جنون:

بالسهولة دي يا عايدة .. بالسهولة دي؟!

وقبل أن تنطق حرفًا ، ركض آدم في جنون لتسمعه يصفق الباب خلفه ، وسقطت عايدة على حافة الفراش في ضعف .. إنها تشعر أن كل قطعة في جسدها ترتجف .. تشعر أن هدى ماتت الآن و«هاشم» كرهها الآن .. بل تشعر أن «أحلام» و«صابر» ماتا الآن .. لو يعلم آدم فقط .. لو يعلم ، ولكن هي أبدًا لن تخبره .. إن أخبرته سيشعر صلاح بأن اتفاقًا ما يدور بينهما ..

عايدة اعتادت تحمل الألم والظلم .. عايدة أبدًا لا يعنيها إن كرهها آدم في هذه اللحظة ، ولكن يعنيها ألا تفقده ..

ورفعت عايدة كفها بعد دقائق طويلة من تفكيرها ، تمسح دموعها الكثيفة، وهي تسمع طرقات على باب البيت ، لتنهض نحوه في صمت ..

كانت كريستين تمسك بيد آدم في ذهول أمام الباب ، الذي فتحته عايدة .. وأرخت عايدة عينيها تنظر إلى وجه آدم ..

آدم يبكي في جنون ، وعيناه الحمراوان الجميلتان كانتا محملتين برسائل اتهام وقسوة بالغة الحد .. وجاء صوت كريستين يسألها في قسوة:

عايدة؟ مش حتاخدي آدم لأبوه .. مش كدا؟!

وأفسحت عايدة لها الطريق في هدوء ، ليبقى خلفهما الباب مفتوحًا .. وأجابت بعد لحظات:

لا يا كريستين .. أنا حاخده حالًا .. أبوه مستنينا ..

وصاحت كريستين في لوعة:

استحالة .. استحالة .. توني جاي في الطريق .. أنا كلمته .. إزاي يا عايدة؟! .. إزاي؟!

وألقت عايدة بجسدها على أحد المقاعد لتقول:

لأنه أبوه .. لأني أنا ولا حاجة .. ماليش صفة يا كريستين ..

وقاطعتها كريستين قائلة:

نرفع دعوى حضانة .. إحنا عارفين إنه غير أمين عليه ..

وفي سخرية مريرة ، أجابت عايدة:

جرسونة في كافتيريا ولا حتى مديرة الجرسونات زي ما بقيت يا كريستين .. دا أنا حتى ماليش سكن بتاعي .. ودخلي في الشهر ما يطمنش ولا يدي الجهات المختصة الثقة فيًا .. كريستين .. آدم لازم يروح لأبوه .. يللا يا آدم أرجوك .

وبلا وعي ، أعادت كريستين آدم خلف ظهرها في جنون لتصيح:

مستحيل .. لما توني يوصل .. إنت إيه .. مش قادرة أفهمك .. مستعجلة قوي كدا ليه؟!

ونكست عايدة رأسها في صمت .. نعم تتعجل اللحظات لتذهب به .. تتعجل اللحظات لتأخذه إلى صلاح .. ليتهم يفهمون ما تفكر فيه ، وليتها تستطيع أن تخبرهم .

لماذا تتجه دومًا أصابع الاتهام نحوها؟! لماذا يجب دومًا أن تدافع عن نفسها؟! لماذا يجب دومًا أن تتحدث وتقسم وتفسر وتشرح؟! ألا يوجد من يؤمن بها؟! ألا يوجد على هذه الأرض من يثق بها؟!

ورفعت عايدة عينيها في جنون ، وهي تسمع بكاء آدم الحاد من خلف كريستين ، وقالت في ضعف:

آدم .. آدم أرجوك .

وقبل أن يجيبها آدم ، رأت توني يقف أمامها ، وانتفضت كريستين ، وهي تحكي في انفعال شديد ، وأفلت آدم من كفها ليحتمي بجسد توني ، ويلتصق به في جنون .. وبعد لحظات حاول فيها توني تهدئة آدم ، أطلقه من كفه ليمنحه إلى كريستين ، ثم اتجه نحو عايدة في سكون ، وأمسك بكتفيها في هدوء ، وأطال النظر في عينيها الساكنتين ، ثم قال:

يللا يا آدم أنا حاروح معاكم ..

ورغم صيحات كريستين وبكاء آدم ، إلا أن توني فتح ذراعيه في هدوء ليضم عايدة بينهما في قوة ، وشعر بها تهدأ على كتفه ، بل شعر بيديها تحتضنان ظهره كأنها ترتجفان ، مثلما كان آدم يرتجف منذ لحظات ، وحين أرخت

ذراعيها أمسك بكفها في قوة ، واستدار ينظر إلى عيني كريستين المفتوحتين في ذهول ، ومد كفه الآخر الطليق يمسك به كف آدم ، وقال وهو ينظر إلى عين آدم في هدوء:

عمري في حياتي ما قلت إن فيه شيء مطلق .. عمري يا آدم ما آمنت بالمسلَّمات .. لكن الست دي غيرت حاجات كتير .. حب عايدة ليك يا آدم هو المطلق الوحيد اللي مش لازم تشك فيه ..

وأرخت عايدة عينيها في صمت ، ثم أدارتها بعيدًا لتسمع صوت توني يكمل من جديد قائلًا:

ليه الإيمان الكامل بربنا بيريح .. ليه الناس اللي ما عندهاش شك في وجود ربنا ، بيعيشوا في سلام وسكينة ، وبيقدروا يعدّوا كل الأزمات الصعبة .. لأنه بيبقى حب فيه ثقة .. الإيمان دا ثقة مطلقة كبيرة .. ثقة خلت النبي إبراهيم يقبل يدبح ابنه .. مش عايدة حكت لنا الحكاية دي مرة زمان يا آدم .. يدبح ابنه .. لا الابن اعترض ولا الأب قال لأ ..

احنا في ديانتنا بنؤمن إن المسيح وقف يتصلب ، وعلى وشه ابتسامة .. لأنه مؤمن بربنا .. لأنه عارف إنه بيحبه ..

آدم هو دا الحب .. هو دا الإيمان .. وهي دي الثقة .

لما حاجة أكبر مننا تحصل ، لازم يكون عندنا إيمان مطلق في حاجة أو في حد ، نقوم نسلمله أمرنا ونحط إيدنا في إيده ونسيبه هو ياخد القرار ، ولو كان قراره إحنا شايفين فيه ظلم .. إيمان قلبنا المطلق بيه يخلينا نسلم ونعرف أنه العدل بعينه .. آدم أنت فاهمني؟!

كان آدم ينظر من خلف دموعه إلى وجه عايدة وعينيها ، التي أمطرت دمعًا هادئًا غزيرًا ، وعاد صوت توني يقول:

حط كفك في كفها ، وامشي معاها ، لو أنت فعلًا مؤمن بحبها وبيها .. ولازم تؤمن يا آدم .. الناس اللي بتتولد وبتشقى على الأرض هي اللي بتعيش من غير ثقة .. من غير إيمان .

أنا نفسي مؤمن بعايدة .. والله يا آدم لو قالتلي أعمل أي حاجة .. أي حاجة حا أعملها .. دور جوّاك يا آدم ، وشوف إيمانك في مين ، وثقتك فين وغمّض عينك واتبعها ..

وهدأت دموع آدم ليترك كف توني بعد لحظات ، وضع بعدها في سكون كفه بين أصابع عايدة المثلجة ، ليقول بعد لحظات في صوت خفيض باكٍ:

أنا عارف إنك بتحبيني يا عايدة ..

وجاءه صوت توني يقول:

لو عايز قلبك يهدا .. لو عايز دمعك يقف ماتقولش عارف يا آدم .. قول أنا واثق .. قول أنا مؤمن!!

****

منذ خروج نجوى ولا أحد يعلم عنها شيئًا .. والجميع يبحث عنها في كل مكان .. لا أحد حتى يعلم متى خرجت نجوى بالتحديد .. هل خرجت مبكرًا ، عندما كانت صباح تشتري السجائر .. أم خرجت عندما كانت صباح وحدها في المطبخ ، ومختار نائمًا في غرفته أو يلهو في صالة البيت ..

دينا لا تذهب إلى العمل ، ولا تكف عن البكاء، وكلما بكت ألقت بنفسها بين ذراعي اللواء عبدالكريم أو هاشم أو عبدالمنعم شيرازي ..

دينا ترفض أن تحتويها ذراعا حسن ، أو تسمع كلماته .. دينا من خلف دموعها تنظر إليه في لوم ، لا حدود له ، كأنها تتهمه بأنه وحده سبب خروجها وعدم عودتها ..

ورفع حسن عينيه ينظر إلى دينا ، التي بدأ رأسها يسقط على كتفيها من نعاسها ، وسمع والده يقول:

دينا .. حبيبتي .. ادخلي نامي .. ارتاحي شوية يابنتي .. أنا حاآخد حسن وننزل نروح ندور تاني في المستشفيات القريبة والأقسام .. يمكن حاجة ظهرت ..

ونهضت دينا عن مقعدها قائلة:

روَّح حضرتك يا أنكل .. أنت كل يوم بتلف بعد شغلك .. روح استريح .. أنا حاآخد مختار وأدخل أنام شوية .. مافيش فايدة .. لو فيه حاجة كنا عرفنا ..

وأجهشت دينا في البكاء من جديد ، لتدخل إلى غرفة مختار وحملته من فراشه الصغير على ذراعيها ، ودخلت غرفتها لتضعه على فراشها ، واستدارت تقف أمام مرآتها تخلع ملابسها في هدوء ..

وبعد أن ارتدت أحد قمصان نومها ، شعرت به يدخل الغرفة ، وهو يقول في صوت خافت:

دينا .. أرجوكي اتكلمي معايا ..

وسقطت دموعها وهي تستدير حتى لا يراها ، ومضت إلى فراشها قائلة:

أرجوك أنت .. روح نام في أوضة مختار وسيبني أحاول أنام شوية ..

وتقدم حسن نحوها ، بعد أن دخلت إلى فراشها ، ليجلس على حافة الفراش .. إلا أن دينا استدارت لتأخذ «مختار» بين ذراعيها ، وهي تهمس باكية:

ارجوك .. أرجوك يا حسن تطلع برا الأوضة ..

وضع حسن كفه على ذراعيها ليقول ، وهو يكاد يبكي:

دينا .. وحياة مختار .. وحياة رحمة أبوك .. ارحميني .. دينا .. أنا ماليش ذنب ..

ونفضت دينا ذراعها من كفه ، وعادت تهمس ، وهي تنتحب:

وحياة رحمة أمك انت .. سيبني يا حسن سيبني!

ونهض حسن في صمت ليغلق خلفه الباب على دينا ومختار ، وخطا نحو ريسيبشن البيت ، حيث كان والده مازال يجلس وحده هناك .

وبهض عبدالكريم ليضمه بين ذراعيه في حنان ، وانفجر حسن باكيًا وهو يقول:

مافيش فايدة .. مافيش فايدة يا بابا .. دينا بتعتبرني أنا السبب .. أنا السبب!!

وأخذ عبدالكريم يهدهده في حنان ، وهو يتمتم:

معذورة يا ابني .. معذورة .. عارف لو نجوى ماتت كان أهون .. لكن دي ست تاهت .. يا عالم هي فين .. ممكن تكون مش عارفة ترجع .. ممكن يكون جرالها حاجة .. ممكن دي عذاب .. عذاب كبير .. مراتك بتتكوي بيه لوحدها .. اعذرها يا حسن اعذرها .. ربك حيحلها إن شاء الله .. الصبر يا حسن .. الصبر والأمل .. رحمة ربنا كبيرة .. كبيرة يا أبو علي!!

****

عايدة ..

منذ ماتت طنط هدى ، شعرت أن أمي من حزنها عليها ستموت ..

شعرت بأنني فقدت الاثنتين .. لكنني لم أكن أعلم انني أنا التي ستموت ..

ضاعت أمي؟! ضاعت نجوى التي كانت تحكي لنا القصص ، وتأخذنا إلى السينما والحدائق .. ضاعت نجوى .. خرجت ولم تعد .. هل تذكرين كيف كنا نضحك ، ونحن نشاهد على التليفزيون ذاك البرنامج القديم الذي كان يحمل عنوان «خرج ولم يعد» .. كنت دومًا أسألك كيف يخرج رجال ونساء ولا يعرفون كيف يعودون ..

أمي خرجت ولم تعد .. أمي خرجت .. لكنها لم تخرج وحدها .. أخذت معها كل شيء .. تركت حقيبتها وملابسها وبطاقة تحقيق شخصيتها .. لكنها أخذت من ضلوعي الحياة .. أتحرك دون روح .. أتحرك دون حياة .. أذهب إلى العمل وأعمل ، وقلبي وأذني في هاتفي الصغير ، الذي انتظر أن يحمل لي خبرًا عنها .. حتى لو كان خبر موتها ..

الموت يا عايدة ولا الضياع .. قلبي مازال حزينا على طنط هدى ووفاتها .. لكنني أعلم أين تنام .. أعلم أن يومًا سيأتي وأذهب إلى لقائها .. أعلم أنها بين يدي الله ..

إلا أمي .. إلا أمي يا عايدة .. لا أعلم أين هي .. مع من؟! ومن يفعل بها ماذا؟!

خرجت نجوى وتبعها حسن منذ أيام قليلة .. نعم .. ترك حسن المنزل .. وقفت أرقبه، وهو يجمع ملابسه، ويحمل حقيبته، ويغادر الباب، وهو ينظر إلى وجهي من خلف دموعه ..

لم أستبقه وكيف أستبقيه في بيت امرأة، كان وحده سبب خروجها من البيت بإهماله واستهتاره .. خرج حسن رغم حبي وحاجتي له .. وبقيت أنا ومختار .. أضمه إلى صدري الميت، وأخفو إلى جواره بروحي الميتة ..

هاشم وأنكل منعم لا يتركاني لحظة، ولكن ما عساهما بحبهما يصنعان لروحي الشريدة ..

آه يا عايدة .. وحده حسن سر شقائي، رغم أنه وحده دواء مختار ودوائي..

دينا

****

انتفض صلاح انتفاضة صغيرة، وهو يفتح الباب ليجد عايدة تقف وإلى جوارها توني وبينهما آدم .. إنه لا يعلم من هو توني، ولم يره مرة من قبل، ولكن كان واضحًا أنه رجل مهم .. وحاول صلاح أن يستعيد نفسه، وهو يفسح لهم الطريق .. فقال في تهكم:

آه فهمت .. اتفضلوا.

ودخلت عايدة في هدوء لتجلس على أحد المقاعد، وسار توني وأصابع آدم مازالت بين أصابعه ليجلسا على الأريكة السوداء، وتجولت عايدة بعينيها في أركان الصالة، لتجدها أصبحت أكثر اتساخًا مما كانت عليه يوم دخلت هنا للمرة الأولى، ورفعت عينيها الخضراوين الداكنتين تنظر إلى وجه آدم في إشفاق .. كان واضحًا أنه مازال حزينًا وخائفًا، وأرخت عينيها لتنظر إلى البنطلون الجينز الأزرق، الذي ترتديه كأنها خشيت أن يتسخ من ملامسته لمقعد في بيت صلاح رفاعي زوجها .. ولكن ألم تتسخ هي نفسها بوجودها معه في هذا البيت زمنًا ..

وشعرت بألم كبير يشق صدرها، كأنها تذكرت كل شيء .. وعادت ترفع عينيها، تنظر إلى الأريكة التي يجلس آدم وتوني عليها ..

كانت تجلس مكان توني يوم رحلت، وتركت آدم وحده، ليتبعها بالمظلة في شتاء فبراير الماضي .. ترى هل تتركه هي وتوني اليوم أيضًا .. وأفاقها

صوت صلاح ، وهو يقول في سخرية مشيرًا إلى توني:

صاحبك الجديد؟! إنتي بجحة قوي يا عايدة .. كلهم بتدخليهم بيتي .

وقال توني في صوت واضح واثق:

من فضلك سيد صلاح تتكلم إنجليزي عشان أفهم .

ونظر إليه صلاح في قسوة ، لا تخلو من نسمات تردد وخوف ، وقالت عايدة وهي تشرح لتوني:

صلاح يتهمك بعلاقة معايا و ..

وقبل أن تكمل عايدة حرفًا ، قال توني في صوته الهادئ ، وهو ينظر حوله:

سيد صلاح .. عايدة حترفع قضية طلاق ، وأنا بعد ما شفت الوضع دا واثق إنها حتكسبها .. اللي فضّل ابنك .. اتفضل استلمه بس حتكتب تعهد إنك تراعيه وتتابع دراسته .. كل درجات آدم امتياز .. لو درجة واحدة نزلت أنا حارفع عليك دعوى .. لو في يوم سبته لوحده ، أو ما اهتمتش بيه، ووفرت له كل احتياجاته حارفع عليك دعوى .

وصاح صلاح في إنجليزيته الركيكة قائلًا:

بصفتك إيه؟ أنا والده ..

وقاطعه توني بالهدوء ذاته قائلًا:

بصفتي مواطنًا بريطانيًا .. بصفته ابنًا لمواطنة بريطانية من الدرجة الأولى، مش درجة تانية زيك ..

ونهض توني ليشير إلى عايدة قائلًا:

يللا يا عايدة .. ابنك عندك وصدقني يا صلاح ، لو آدم اشتكى أو مستواه الصحي أو الدراسي اتأثر مش بس حناخده .. لا .. يا سيد صلاح أنت حتواجه مواقف قانونية صعبة ، ممكن تعرضك للعقوبة .. أنا مش فاهم تاخدوا جنسية بلد ، وتتجوزوا بناته من غير ما تعرفوا قوانينه إزاي؟!

وقبل أن يفكر صلاح في أي شيء يقوله ، سمع طرقات على باب بيته استجاب لها بسرعة ، كأنه حقًّا كان يبحث عن شيء يفعله ، حتى يجد ما يقول أو يجيب به ، وحين فتح الباب ، وجد أمامه بيل سائق توني الأنيق بزيه اللامع، يحمل حقائب آدم بيده قائلًا:

مساء الخير .. سير توني موجود؟!

وصاح توني من خلف صلاح قائلًا:

دخلهم هنا يا بيل وانزل .. إحنا جايين .. يللا يا عايدة .

واستدار صلاح ليرى عايدة تقف في هدوء ، وقبل أن تصل إلى توني قالت في هدوء:

آدم .. إحنا ما عندناش مانع نحتفظ بيك وتتحمل مسئوليتك .. لكن صلاح أبوك .. لكن لو هو ما قمش بمسئولياته القانون يحميك ..

كان آدم صامتًا .. لكن كان واضحًا أنه يرتجف .. كان واضحًا أنه ينتفض ذعرًا وخوفًا .. لكنه لم ينبس حرفًا ..

ووضعت عايدة يدها بين أصابع توني في هدوء ، واتجها نحو الباب ، وقبل أن يعبراه أمسك صلاح بذراعها في قسوة ، وقال:

أنا عاوز فلوسي .. الفلوس اللي صرفتها على جوازتك وعلى التأشيرة والتذكرة .. عايز كل مليم صرفته عليكي يا بنت صابر ..

وبعد أن شرحت عايدة كلمات صلاح لتوني في ألم كبير، قال توني في هدوء:

رغم إنك إنت اللي ممكن تدفع .. لكن أنا حاديك أتعاب المحامي .. نحدد «ميعاد»، نتمم فيه إجراءات الطلاق وتاخد المبلغ .

وقبل أن يكملا طريقهما إلى الخارج، عاد صلاح يقول:

خدوا الولد دا من هنا .. ودوه لأمه ولا ربوه ولا اعملوا أي حاجة .. أنا مش عايزه .. قوم روح معاهم .

****

دينا:

طنط نجوى لم تضع .. طنط نجوى ليست بين يدي أحد من البشر .. أيا كان ما يفعله بها المجهول، فهي ستبقى بين يدي الله الرحيمة ..

حسن ليس مسئولًا عما حدث .. حسن ليس سبب خروجها .. إنه القدر .. إنها إرادة الله ..

صلاح رفاعي أيضًا ليس من قتل ماما هدى، وليس حتى سببًا في موتها .. إنه العمر وإنها إرادة الله ..

نحن فقط بضعفنا وحبنا نلقي اللوم على من حولنا، وننسى أنه وحده يشاء وما يشاء يفعل ..

طنط نجوى ستعود .. ستجدينها .. ولكن لا تفقدي «حسن»، ولا تحرمي «مختار» من أبيه، فيما لا ذنب له به ..

دينا ..

لا تدعي الألم ينسيك العقل .. أعلم أن ألمنا جميعًا كبير، ولكن ليكن إيماننا بالله وبرحمته أكبر ..

اذهبي إلى حسن .. من أجل مختار .. من أجلك .. ومن أجل طنط نجوى .. اذهبي إلى حسن، وأعيديه إلى الحياة، وعودي إليها معه ..

هل تظنين الله نفسه يرضيه سوى أن تفعلي .. فليكن إرضاء الله طريقك لطلب رحمته ، التي نحتاجها جميعًا ..

قسوتك على حسن ليست ثأرًا لطفلة نجوى .. قسوتك على مختار وعلى نفسك ليست وفاءً لها ..

العقل والرحمة هما الوفاء .. هما الأمل ..

آه لو تعلمين كم أتمنى أن أحضر ، وأكون إلى جوارك ، ولكن أعلم أنني إن أتيت سأطرق باب هاشم .. أعلم أنني إن أتيت سأبكي من قسوته هو الآخر ..

سأبكي وحدي ؛ لأنني أعلم أنه سيغلق الباب ليقف خلفه يبكيني أو يلعنني!!

قد تقتلني لعناته ، ولكن بكاءه يقتلني أكثر!!

لا تقفي أنت الأخرى خلف بابك تبكين وحدك .. اذهبي إلى حسن .. أعيديه إلى بيته .. وإن كان قدركما البكاء فلتبكيا معًا!!

عايدة

****

ألقى حسن بمفاتيح سيارته في غضب على طاولة الطعام بمنزل والده ، وألقى بعدها بجسده على الأريكة البعيدة وأجهش في البكاء .. عاد للتو من لقاء دينا .. لقد ذهب لرؤية مختار ، لكنها تركت المنزل وذهبت إلى هاشم .. لحقها وأمام منعم شيرازي .. أمام هاشم رجاها كثيرًا أن تحادثه .. أن تسمعه..

.. أقسم لها من جديد أنه مازال يبكي غياب نجوى ، ويبحث عنها .. لكنها ما أجابته بحرف واحد .. لقد يئس منها .. يئس منها حتى إنه أخبرها أنه على استعداد لبيع الفيلا وقبول أي عمل .. أخبرها أمامهم أنه على استعداد لقتل كل أحلامه لتعود إليه .. لتحادثه .. ليسمع صوتها وإن خرج يلعنه .. لكن دينا بكت في جنون ، وهي تقول إنها أكثر منه ضعفًا ويأسًا .. قالت إنها أبدًا لا تستطيع أن تغفو بين ذراعيه ، ونجوى لا أحد يعلم إن كانت على ظهر الأرض أم في باطنها ..

صرخت دينا أمام منعم وهاشم ، وهي تقسم أنها تتمنى لو تخرج إلى الشارع ، ولا تعود أبدًا لولا إشفاقها على مختار ..

انهارت دينا ، وهي تعلن أن سماع صوت حسن ورؤيته يثيران فيها ألمًا لا تحتمله ..

أخذها هاشم بين ذراعيه لحظتها ؛ ليبتعد بها في غرفته بعيدًا عن حسن ، وكأنه أشفق عليه من سماع المزيد ..

هاشم ودينا قتيلان .. لكنهما يشهران سيوفهما في وجه القتل ..

هاشم مذبوح من وفاة أمه ، ويشهر سكين ألمه في وجه عايدة .. ودينا مذبوحة بضياع نجوى ، وتغمد سكين ألمها في قلب حسن وقلب مختار وقلبها هي أيضًا ..

وهز حسن رأسه في عنف ... ما عاد لديه شيء يقدمه .. ما عاد عنده شيء يستبقيه ، أو يستبقي في روحه الرغبة في العراك والمحاولة من أجله ..

يجب أن يبتعد هو الآخر .. يجب أن يذهب إلى طرف آخر من أطراف الأرض .. بعيدًا عن أطياف الجريمة التي لم يرتكبها .. إن كان الإعدام هو حكم دينا ، فليمت حسن بعيدًا وليمت وحيدًا ..

سيكتب إلى باسم أمين صديقه في دولة الكويت .. لقد أرسل له منذ أيام إيميل ، يخبره فيه أنه وجد له عملًا بدخل شهري ، مناسب في إحدى شركات الخرافي الشهيرة .. سيرسل إليه حسن موافقته .. سيطلب منه أن يرسل له «الممانعة» ، وجميع الأوراق ليستخرج التأشيرة .. لن يخبر أحدًا ولا حتى والده .. سينهي كل شيء ويرحل .. سيترك دينا علها تهدأ لعل نجوى تعود إليها .. لم يعد يحتمل كل هذا الألم وكل هذا الظلم .. سيحيا حسن وحيدًا بعيدًا عن أبيه وابنه وعن امرأة أحبها وحلم لها .. لكنها ظلمته بذنب لا ذنب له فيه ..

سيبتعد ويحيا كما تحيا عايدة بعيدًا ..

هناك قلوب قدرها أن تمنح الحب ، ولا تأخذ سوى الظلم والنفي ..

حسن عبدالكريم فياض سينضم إلى قائمة هذه القلوب ..

كفاه ذلًا وظلمًا ..

****

دينا:

في الحادية عشرة عندما كنا أنا وآدم نائمين ، طرق توني الباب في جنون وعندما نهضت مذعورة ، وفتحت له ، طوقني بذراعيه وهو يبكي ..

أخبرتك منذ أيام أنني منحته روايتي ليقرأها بعد انتهائها .. توني يقول إنها رائعة!

تخيلي يا دينا أن توني الذي ينام في الثامنة كل يوم ، منذ أعوام طويلة ، لم ينم حتى الحادية عشرة لينهيها .. تصوري أنه بعد انتهائه منها ، أيضًا لم ينم .. بل جاءني ، وهو يرتدي بيجامته ليضمني ، وهو يبكي سعادة وتأثرًا بها ..

توني أخبرني أنها رائعة ، لكنه أيضًا أخبرني أن هذا هو رأيه الشخصي ، وأنه في صباح الغد سيأخذها إلى صديقه ، الذي يمتلك إحدى أكبر دور النشر في لندن ..

توني أخبرني أيضًا أن صديقه لن يقرأها ، ولكنه سيعرضها على لجنة الدار ، وأنهم وحدهم سيأخذون القرار ..

أنا لا أصدق أن الرواية أعجبته إلى هذا الحد ..

لقد بكيت بين ذراعيه أنا أيضًا من ذهولي وفرحتي ..

دينا:

أنا أدين لكم جميعًا .. أنت وهاشم وتوني وآدم وماري رحمها الله ..

ما بقي شيء سوى أن أكتب الإهداء والمقدمة ، ولكنني لن أفعل ذلك إلا إذا تم قبولها .

هل تعتقدين حقًا أنها ستُقبل؟! هل تصدقين أنها جميلة؟! أم أن توني قرأها بعين حبه لي ولروح سيلفيا؟!

لا أعلم يا دينا لكنني سعيدة ..

آه يا دينا كم اشتقت إلى السعادة!!

عايدة

****

في هدوء وضعت دينا مختار في فراشه ، واستدارت تنظر إلى الساعة المعلقة على حائط غرفته .. بقي حوالي نصف ساعة على موعد حضور اللواء عبدالكريم .. لقد حادثها عند عودتها من العمل ؛ ليخبرها أنه سيزورها في المساء لأمر مهم ..

ودخلت غرفتها في صمت لتخرج تي شيرت من اللون التركواز ، ارتدتها على صدرها العاري وبنتاكور من اللون الأبيض ، ووقفت أمام مرآتها تمشط شعرها البندقي ..

طال شعرها ومنذ ذلك اليوم الذي خرجت فيه نجوى ولم تعد ، لم تذهب دينا إلى تصفيفه أو إعادة قصه ..

ازداد جسدها نحولًا ، وارتسمت حول عينيها البنيتين الواسعتين هالتان سوداوان عميقتان .. حتى وجهها الجميل أصبح شاحبًا حزينًا .. أربعة شهور ولا خبر عن نجوى .. مر أيضًا أكثر من شهر على تلك الليلة ، التي بكى فيها حسن ، وبكت فيها دينا في بيت هاشم ..

لم تره بعدها يومًا ولم يحادثها مرة واحدة .. كان يكتفي بإرسال رسائل صغيرة على هاتفها ؛ ليخبرها بأنه سيحضر في الصباح لرؤية مختار أثناء وجودها في العمل ..

في كل مرة كان يحضر فيها لرؤية مختار ، كانت تظن أنه قد يبقى حتى عودتها .. في كل مرة كانت ترفض الاتصال بالبيت ، وتعود وهي تأمل أن

تراه ، ولكنها كانت دومًا تعود لتجده قد غادر البيت منذ ساعات ..

ألقت دينا بفرشاة شعرها ، وخرجت إلى ريسيبشن البيت ، وهي تفكر من جديد ..

هل يأتي عبدالكريم ليدعوها إلى عودة حسن إليها .. وإن فعل ما تراها تفعل أو تقول؟!

هي لا تعلم .. لا تعلم .. دينا تعلم أنها اشتاقت إلى حسن ..

دينا تعلم أنها تحبه ، ولكنها أيضًا تعلم أن شيئًا ما بداخلها مازال ينتفض رفضًا ، كلما أغمضت عينيها ورأت نفسها معه من جديد ..

ونهضت دينا تفتح باب بيتها ؛ ليطل عبدالكريم بوجهه الحاني الهادئ أمامها ، وضمها إلى صدره في حنان ، واستسلمت دينا لذراعيه .. إنها تحبه ، ونجوى أيضًا كانت تحبه ، وتعلم أنه دومًا كان يحبها بصدق ..

وجلسا معًا على الأريكة التي كانت دينا تجلس عليها .. وبعد لحظات من الصمت ، قال عبدالكريم:

مافيش أخبار عن نجوى هانم يا دينا؟!

لاحت في عينيها أطياف دمع ، هزت بعدها رأسها بالنفي ، ثم قالت وهي تتنهد في ألم:

أبدًا يا عمي .. أبدًا .. لو صغيرة أقول حد خطفها .. لو عيلة أقول عصابة أو نشالين أخدوها تشتغل معاهم .. لكن ست كبيرة زي مامي يعملوا بيها إيه ، ويمكن توصل لحد فين ، وهي لا فلوس معاها ولا دهب .

وأطرق عبدالكريم برأسه في حزن صادق عميق ، ثم قال بعد لحظات:

الخسارة كبيرة .. كبيرة قوي يا دينا .. لكن يابنتي اللي محيرني وقاتلني أكتر إني مش قادر أفهم ليه لما خسرنا حاجة واحدة كبيرة ، ما قفلناش إيدينا على اللي فضل عندنا .. ليه لما ربنا بمشيئته وحكمته ياخد من حد عين مثلًا ، يروح قالع التانية من وشه؟! أنا أعرف إنه اللي بيخسر ملايين بيحافظ حتى على الملاليم اللي فضلت معاه ، ويحاول يعمل منها وبيها حاجة .. لكن انتو يابنتي ضاع منكم حاجة اتجننتوا .. رميتوا كل اللي فضل ، مع إن اللي فضل مش ملاليم .. اللي فضل دا بيت وحياة وطفل وحب وعشرة ..

ونظر عبدالكريم إليها لحظة ، ثم نكس رأسه ، وفي هدوء خفيض عاد يقول:

كرهتي حسن يادينا؟! كرهتيه قوي كدا؟!

وسقطت دموعها من جديد في سخاء لتقول بصوتها المتقطع:

والله بحبه .. والله العظيم بحبه .. والله كمان مرة يا عمي مش محتاجة لأمي قد مانا محتاجة لحسن .. بس زعلانة منه ، حتى وأنا مش قادرة ما ألوموش .. عارفة ومؤمنة إنها إرادة ربنا .. لكن مش قادرة .. عارفة وفاهمة لكن مش قادرة .. عارف يا عمي؟!

وأطلت من عيني عبدالكريم دمعة ، وهو يرفع رأسه ناظرًا إلى دمعها الغزير وعادت دينا تكمل قائلة:

زمان كنت غضبانة من هاشم .. كنت أقول لحسن إزاي اتربيت معاه العمر دا كله ، وما أعرفش إنه سادي وقلبه أسود .. إزاي يعذب عايدة ويعذب باباه ويعذب نفسه بالقسوة دي ، وهو عارف إنها مالهاش ذنب في اللي عمله جوزها ، أو في موت ماما هدى .. ما كنتش أعرف إن الوقت حيدور وأشرب من نفس الكاس .. يمكن دا حصل عشان أفهم قد إيه

هاشم بيتعذب .. قد إيه هاشم عارف وفاهم ، ورغم كدا مش قادر .. العجز صعب يا عمي .. العجز مؤلم ومؤلم أكتر لما تبقى عارف وفاهم .. لكن عاجز ومش قادر .. عارفة إن «حسن» بيتعذب ، بس أنا عذابي أكبر ..

وألقت دينا بوجهها بين كفيها لتنخرط في بكاء مرير ، إلا أنها أفاقت على صوت عبدالكريم ، وهو يقول:

حسن مسافر يا دينا .. مسافر ..

واتسعت عيناها الحمراوان في ذهول ، وهي تنظر إليه قائلة:

إيه؟ مسافر .. رايح فين؟!

وسحب عبدالكريم نفسًا عميقًا من صدره ، وقال في حزن أكبر من حزنها:

رايح الكويت .. باسم أمين صاحبه بعتله عقد عمل وعمانعة في شركة من شركات الخرافي .. حيسافر بعد بكره .. اترجيته ما يسبنيش .. قلتله هدى هانم ماتت في لحظة ، بس كان هاشم جنبها .. قلتله نجوى خرجت بس كحلت عينيها بيك وبابنك قبل ما تخرج .. قلتله إني ممكن أموت ، وهو بعيد من غير ما أشوفه .. قلتله كتير يا دينا ، لكن مافيش فايدة .. مش باقولك أنا مش عارف إيه اللي جرالكم .. لما ضاعت منكم حاجة بتحبوها ، بتضيعوا وراها كل حاجة ربنا بكرمه سايبها لكم بين إيديكم ..

وعادت دينا تقول في ذهول غاضب:

كل دا عشان الڤيلا النحس وأقساطها .. مافيش فايدة .

وقاطعها عبدالكريم ، ودمعات صغيرة بدأت تسقط على وجنتيه ، قائلًا:

أبدًا يابنتي .. حسن قالي على موضوع الڤيلا .. عندي أرض كبيرة في الشرقية يغطي تمنها أقساط الڤيلا وزيادة .. عندي صندوق التأمينات والمعاشات من الجيش .. لكن أبدًا مش هو دا السبب .. السبب زي ما قلتلك جنان الحزن والغضب ، اللي بيعمي العين عن كل النعم الموجودة عشان نعمة واحدة راحت ..

ونكست دينا رأسها في ذهول .. هل جاء يخبرها لتستبقيه .. هل جاء يخبرها لتمنعه عن السفر .. لا تفهم .. ومن بين ذهولها ، قالت في حيرة ودون تفكير:

عايزني أعمل إيه يا عمي؟!

وابتسم عبدالكريم ابتسامة صغيرة مريرة ليقول:

أنا مش عايز حاجة يادينا .. حسن هو اللي طلب مني أبلغك إنه مسافر ، وطلب مني أبلغك إن حريتك ملكك .. وإنك لو عايزة .. لو عايزة ..

وتلون صوته بالدمع ، وهو يرى دينا تتحول إلى عينين واسعتين ، خاليتين من الدمع والروح ، وأرخى رأسه في سكون ليقول:

حسن ممكن يطلقك قبل ما يسافر ..

وشهقت دينا شهقة كبيرة ، كأن رصاصة اخترقت صدرها العاري وشعرت أنها ترى كل شيء للمرة الأولى .. كيف حدث كل هذا .. كيف تحول ذاك الحب إلى جسور من الاتهام والقسوة .. كيف أصبحا فجأة غريبين إن التقيا لا يتحادثان ، وإن قررا شيئًا أرسلا من يحمل قرارتهما إلى الآخر .. كيف تحيا دون حسن .. كيف يحيا حسن دونها ودون مختار؟!

ولكن كيف تحيا دينا دون نجوى ، وكيف تحيا نجوى نفسها الآن ، وهل هي حقًّا حية ترزق؟!

ولكن وإن ماتت نجوى وإن ضاعت فلم يجب أن تموت دينا ، وحتى إن ماتت دينا ، لِـمَ يجب عليها أن تقتل «حسن» و«مختار» وعبدالكريم معها .

ونهض عبدالكريم عن مقعده ليخرج مظروفًا من جيبه ، وضعه على مقعد الأريكة ، وقال:

دي فلوس .. لمختار يادينا .. كل شهر أنا .. قصدي حسن حيبعت فلوس .. اللي تقولي عليه ، واللي يكفيك ويكفي ابنك .. دينا ..

ونهضت دينا لتواجهه ، وهي مازالت تائهة مفتوحة العينين ؛ لتسمعه يقول:

فكري يابنتي .. بلغيني بُكره عشان لو عايزة ..

وبكى الرجل .. خانته الدمعات .. ضمها إلى صدره في تهالك واضح ، وقال وهي بين ذراعيه:

يادينا فكَّري .. حسن ماشي بعد بُكره الساعة تسعة بالليل!!

****

يشق صدره أن يراه بهذا الحزن والألم .. يشق صدره أن يصبح هو سبب تعاسته وألمه ، ولكن نحن لا نتعذب ونتألم إلا بأيدي من نحب ..

ونهض حسن عن مقعده ليحمل حقائبه ويضعها إلى جوار باب البيت ، وعاد يجلس إلى جوار عبدالكريم ، ووضع ذراعه حول كتفيه قائلًا:

وبعدين يابو حسن .. وبعدين معاك .. شهر ولا اتنين ابعتلك كارت زيارة . تقعد معايا في الكويت ونشرب بن العميد اللي انت بتحبه ..

وفي هدوء ، أجاب عبدالكريم:

وأسيب دينا .. أسيب مختار .. نسيبهم احنا الاتنين ياحسن .. أنا ماهربش من مسئولياتي ..

ونكس حسن رأسه ليقول:

أنا ماهربش .. أنا اتنفيت .. أنا مش مرغوب فيّا ..

وقاطعه عبدالكريم في حدة قائلًا:

مين نفاك؟ دينا؟ دينا المجروحة .. الوحيدة .. ابنك اللي ما كملش سنتين ولا تلاتة .. وحتى لو عملوها أنا .. أنا ذنبي إيه .. أنت تقبل ليه تعذبني وتعذب نفسك ليه .. وبعدين دينا لو مش عايزاك ياحسن ، كانت وافقت على الطلاق .. البنت كانت حتموت لما قلتلها ..

وبتهكم مرير قال حسن:

دينا عايزاني أموت هنا بهمي وشعوري بالذنب ، لكن أنا مش حاستسلم .. سفري مش هروب .. سفري محاولة لبناء حسن جديد ـ حسن قوي .. صدقني .. يللا قوم البس ، ولا مش عايز تروح معايا المطار يا سيادة اللوا؟!

وفي اللحظة التي نهض فيها عبدالكريم عن مقعده سمع طرقات على جرس الباب ، وعندما فتحه أطلت دينا من خلف الباب ، وهي تقول:

أنا آسفة يا عمي .. جيت من غير ما اتكلم ..

وضمها عبدالكريم إلى صدره في فرح لا حدود له ، وأفسح لها الطريق ، وهو يقول:

بيتك يا دينا .. بيتك يا حبيبتي ..

ورأته يقف أمامها .. رأته ينظر إليها في خلطة كبيرة .. رأت في عينيه فرحًا ودهشة .. رأت في عينيه ألمًا ودمعة ترقص .. كأنها لا تعلم هل ترحب بها ، أم تسقط على كتفيها، وقالت دينا بصوت ضعيف ، كأنها تستجدي الحروف:

إزيك ياحسن؟!

غاب عبدالكريم عنهما متذرعًا بإعداد كوبين من الشاي .. جلست دينا وجلس أمامها حسن يرقبها ـ كانت ترتدي قميصًا ورديًا من الحرير ، وجوب قصيرة من اللون الرمادي الأقرب للون سحابة شتاء داكنة .. رأى على شفتيها مسحة من روج وردي ، وعلى خديها انعكاسة لأزهار تفتحت على جنبات روحه ، وأغمض عينيه ليقول من خلف تنهيدة كبيرة:

الحمد لله يا دينا .. الحمد لله ..

وعاد الصمت يغزو المكان لحظات طويلة ، حاولت فيها دينا أن تتحدث أكثر من مرة ، وفي النهاية قالت كأنها تئن:

حسن .. لما قررت آجي ، قررت أتكلم .. قررت أصرخ وأبكي وأقولك ما تسافرش ـ أقولك إني مش بحمّلك اللي حصل .. لبست اللون اللي بتحبه وحطيت البرفان اللي بتحبه عشان .. عشان أقولك ما تبعدش عني .. لكن..

وأغمض حسن عينيه في ألم ليقول:

قررتي ولبستي وجيتي .. لكن ماقولتيش .. ما قدرتيش ..

دينا .. أنا كمان مش بالومك .. بس أنا تعبت .. تعبت من نظرة اللوم في عينيك .. تعبت حتى من تأنيبي لنفسي ، رغم إني عارف إني ماغلطتش ـ تعبت من أسئلة مختار في كل مرة أشوفه فيها .. إمتى حترجع؟ إمتى حنخرج أنا وأنت ومامى؟ هي ماما نجوى فين؟

تعبت يا دينا .. تعبت .. خلاص ابتدى يسكني إحساس إني أنا السبب .. بس والله ..

وقاطعته دينا ، وهي تبكي قائلة:

والله عارفة إنك مش السبب .. والله عارفة .. حسن أرجوك افهمني .. أوقات كان بيبقى نفسي أجيب «مختار» وآجي أعيش معاك هنا ، عند عمي عبدالكريم ، وأوقات كان بيبقى نفسي أرجع ألاقيك مع مختار ، وأترجاك ما تمشيش ، لكن في آخر لحظة بالاقيني مش قادرة .. مش عارفة ومش قابلة ولا راضية ..

ونهضت دينا عن مقعدها ، وهي لا تعلم .. هل تلقي بنفسها بين ذراعيه ، أم تعود من حيث جاءت .. ونهض حسن وتقدم نحوها ليمسك بذراعها في حنان وأخذها على صدره ، وهو يقول:

في شيء اتكسر وفي شيء اتبنى ..

وبكت دينا في جنون على كتفيه ، وهي تقول:

يمكن لو مامي رجعت .. لو عرفنا عنها حاجة .. يمكن إحساسي بالدنيا كلها يتغير .

وأحكم حسن ذراعيه حولها في قوة ، وهو يقول:

دينا .. أنا حاسس إني اتظلمت ، وأنت مش حاسة إنك ظالمة .. اسمعي يا دينا .. الظالم والمظلوم دواهم النسيان والرحمة .. الأيام بس هي اللي بتخلق النسيان والرحمة .. دينا الفراق مش نهاية .. الفراق مش عقاب .. من الفراق ممكن تتولد الرحمة والغفران .. من الفراق ممكن نشوف ونفهم ونقدر .. نقدر يادينا ولسه باقولك لو مقدرتيش .. أنا مش حالومك أبدًا ، وحريتك تاخديها في اللحظة اللي تقولي عليها ..

وضمته دينا إلى صدرها ، وسمعته يقول:

أبو علي بيحبك يادينا .. حقيقي بيحبك يا أم علي ..

ونظرت إليه من خلف دموعها ، كأنها تستجديه القرار له ولها .. لكنه ابتسم في حزن .. كلاهما جريح .. وكلاهما لا دواء له سوى شيء اسمه الرحيل والأيام!!

●●●●

هاشم:

رغم أني أعلم أنك أبدًا لن تجيب أو تكتب ، ورغم أني أعلم أنك تشعر أني لا أستحق منكم سوى الكراهية والغضب ، إلا أنني لا أستطيع ألا تكون أنت أول من يعلم أن دار النشر قبلت روايتي .. حادثوني يا هاشم هذا الصباح .. أخبروني أنهم سيقومون بطباعة خمسة آلاف نسخة منها .. طلبوا مني أن أذهب إلى لقائهم ، ومعي العنوان والإهداء ..

هاشم:

من أجلك كتبت ، وإليك سأهدي كتابي ..

هاشم:

تم طلاقي من صلاح .. أنا وآدم وتوني وكريستين ، مازلنا دومًا نتحدث عنك .. مازلت أذهب كل صباح إلى مقعد النهر ، وأجتر لحظاتنا هناك ..

مازلت أتحسس بأصابعي مكان جلوسك عليه .. ورغم أن الآلاف يجلسون في المكان ، الذي اعتدت الجلوس فيه ، إلا أنني في كل مرة أضع عليه أصابعي أشعر بدفء جسدك وأنفاسك وحدك ..

هاشم:

إن كانت خطيئتي هي زواجي من صلاح ، فلقد تحررت منه .. وإن

كانت خطيئتي هي موت ماما هدى .. فأنا مت معها .. ولكن مازال الأمل يسكنني.

هاشم:

إن كنت ترى أنني أستحق النجاح ، اكتب لي كلمة واحدة لأتلوثه بها .. وإن كنت مازلت ترى أنني أستحق اللعنة ، فاكتب أيضًا لي كلمة لأطلب من ربي الرحمة ..

هاشم:

أرجوك .. لا تقتلني مرتين!!

عايدة

****

كم مرة قرأ هاشم هذا الإيميل ، الذي وجده في انتظاره عند حضوره إلى المكتب منذ ساعة .. كم دمعة سقطت على وجنتيه .. كم مرة تحسس سطور الشاشة بأصابعه البيضاء الرشيقة .. لا يعلم .. لكن لحظة لم تمر سوى أن يقرأ .. لحظة لم تمر سوى أن يراها بين السطور ..

إنه سعيد من أجلها .. أخيرًا منحتها الأقدار شيئًا ..

أخيرًا امتدت يد السماء لتمنح عايدة شيئًا .. للمرة الأولى ستمد عايدة أصابعها لتأخذ لا لتمنح ..

لكنه يعلم أنها لن تتذوق هذا العطاء .. هاشم يصدق كل حروفها وكلماتها .. عايدة لن تتذوق طعم شيء على الأرض ، دون أن تتخلص من وحدتها وشعورها بالذنب والألم والشوق ..

لا أحد على الأرض بإمكانه أن يجعلها تفعل سوى هاشم .. هو وحده بإمكانه أن يعيد إلى شفاهها الوردية حاسة التذوق ..

هاشم يعلم أن «هاشم» عبدالمنعم وحده في قلبها وروحها .. عشقته عايدة بكل عذرية مشاعرها .. عشقته عايدة كما كان هو يعشقها العمر كله ..

ليتها لم تشعر بحبه .. ليتها حقًّا لم تحبه .. أصبح يشعر أن حتى رؤيتها أصبحت أمرًا محرّمًا .. لا يستطيع أبدًا أن يراها .. لا يستطيع أبدًا أن يتخيل حتى وجهها الجميل ، دون أن تطل من جواره عيني هدى ، وهي تصرخ في

ألم .. لا يستطيع هاشم أبدًا أن يغمض عينيه ، ويأخذها بين مقلتيه ، دون أن تكتوي أجفانه برؤية هدى تموت بين ذراعيه .

هو يعلم أنها بريئة .. وحده يعلم أنها نقية طاهرة .. ما خانت ذاك الكريه الذي يستحق الخيانة ، وما خانت هدى ولا مبادئها ولا قرآنها أو تربيتها .. لكنه رغم طهرها وبراءتها يراها محرمة عليه ، حتى أصابعه التي أمسكت بكتاب الله الكريم ليقسم عليه لهدى بأنه أبدًا لن يراها .. حتى هذه الأصابع تعصاه ، إن حاول يوم الاتصال بها أو الكتابة إليها ..

آه يا عايدة لو تعلمين أن «هاشم» مازال يحبك .. آه يا رفيقة العمر لو تعلمين كيف كبر القلب على هواك .. مسكينة عايدة .. يوم علمت بحبه .. يوم شعرت بحبها ، أصبح ما بينها جثة هدى أباظة ..

وعاد يتحسس سطور الشاشة في ألم كبير ، ووقفت عيناه على كلمة الأمل التي كتبتها عايدة ..

وحده الأمل يعذبها .. وحده الأمل إن مات ، صحت حواسها الأخرى .. عايدة يعبث بقلبها الأمل .. عايدة إن مات أملها عاشت هي في سلام ..

وفي هدوء نهض هاشم عن مكتبه ، ومسح قطرات دمعه ليدخل إلى مكتب منعم شيرازي ، الذي أغلق هاتفه ، الذي كان يتحدث فيه بعد لحظات لينظر إلى هاشم قائلًا:

مالك يا هاشم .. فيه حاجة؟!

وبهدوء شديد ، اعتاده منعم .. بصوت هادئ ما عاد أبدًا يسكنه ذاك المرح القديم ، الذي دفنه هاشم إلى جوار جسد هدى ، قال هاشم:

أيوة يا بابي .. عايزك تكلم الدكتور فؤاد غراب ، وتحدد معاه «ميعاد» .. أنا قررت أتجوز سلمى ..

ورفع منعم عينيه لينظر إليه في استنكار قائلًا:

سلمى .. سلمى يا هاشم؟!

وعاد هاشم يقول في هدوء:

أيوة .. سلمى يا بابي .. مالها؟! أبوها رئيس محكمة النقض وأخوها ..

وقاطعه منعم قائلًا:

أبوها وأخوها وعيلتها على راسي من فوق .. لكن سلمى يا هاشم ما تنفعش .. دي إنسانة عملية جدًّا .. يابني إحنا طول عمرنا بنقول إن الدكتور فؤاد خلف ولدين مش ولد وبنت .. حلوة آه وملونة وزي القمر .. لكن مافيهاش روح يا هاشم .. وبعدين تعالى بقى .. ليه العناد؟! أنت بتحب عايدة .. عايدة خلاص بقت حرة يا هاشم .. أنا ما عنديش مانع أبدًا إنكوا تتجوزا .

وانتفض جسد هاشم ، كأن حريقًا أمسك في أطراف ثيابه ؛ ليقول في لوعة:

إلا عايدة .. مستحيل ..

وصاح منعم ، وهو ينهض عن مكتبه قائلًا:

هو إيه اللي مستحيل؟! العدل مش مستحيل يا هاشم .. عايدة بنتي .. عايدة ما عملتش حاجة عشان تحرمها منك ..

وعاد هاشم يقول في ألم حاد:

مستحيل .. عايدة مستحيل .. مستحيل ..

واقترب منعم بمقعد ليجلس إلى جوار مقعد هاشم ، وعاد يربت على فخذيه ، وهو يرى دمعاته تسقط من عينيه ، ثم قال:

ماحدش يعرف هدى قدي .. ماحدش عاش معاها قد أنا ما عشت .. يا ابني .. حتى أمك حتستريح في موتها .. دي كانت لحظة غضب .. وموتها كان «قدر» .. ماحدش أبدًا كان السبب فيه .. يا هاشم ربنا قال:

«إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» .

حننسى كلام ربنا ، ونمشي ورا انفعالاتنا ومخاوفنا وعقدنا ليه يا هاشم .. يابني لو كان قصدك تعذب نفسك وتعذب عايدة كعقاب ، فلا عذابك ولا عذابها حيرضوا ربنا ولا يرضوا أمك الله يرحمها .. عايدة بتحبك يا هاشم .. دي روحها بترعش في وداني في كل مرة أكلمها ، وتقول اسمك وتسأل عنك .. ارحم نفسك .. بلاش جلد الذات دا .. بلاش يا هاشم ..

وبالهدوء ذاته عاد هاشم يقول ، وهو يرفع عينيه الخضراوين المستديرتين:

أنا عايز أتجوز سلمى غراب .. هي الوحيدة اللي تناسبني .

وعاد منعم يقول في حدة:

مستحيل .. يابني حتى لو مش عاوز تتجوز عايدة .. سلمى ما تنفعش .. إنت محتاج واحدة مشاعرها دافية .. تداوي جرحك .. تصحي مشاعرك .. تستنفر فيك روح هاشم وشبابه وإقباله على الحياة ..

وفي ابتسامة مريرة ، قال هاشم:

هو دا السبب اللي أنا عايزها علشانه .. سلمى مش حتتجرح لما تعاشر «راجل» ماعندوش مشاعر .. سلمى مش حتحس أبدًا إني آلة بتتحرك على الأرض لغاية ما تيجي ساعة وقوفها .. سلمى مش حيأذيها إني مش بحبها ومش حاحبها .. لأن سلمى الحب مش من تكوينها ولا تركيبها .. صدقني سلمى هي اللي حتنقذني وتنقذ عايدة كمان ..

وفي حزن كبير ، قال منعم:

دا برنامج مكثف للعقوبة يا هاشم .. لا يا هاشم سلمى مش حتنقذك .. في يوم حتفوق .. في يوم حتدور على إيد .. على صدر يضمك .. حتعمل إيه ساعتها؟! حتخونها ولا حتدور على عايدة؟! وترجع تاني الحكاية تتكرر .. لا يا هاشم .. أنا مش موافقك ..

وفي تصميم ، وفي اقتضاب شديد ، عاد هاشم يقول:

أنا مصمم .. أنا حاكلم الدكتور غراب وأحدد معاه «ميعاد» ..

****

عايدة قالت إن الأب المسلم لا يمثل الإسلام في شيء ، رغم قسوته ودناءته مع زوجته البريطانية الرقيقة ، التي منحته أكبر فرصة في عمره ، وقالت إن زوجته الثانية أيضًا إنسانة بسيطة عادية كآلاف آلاف الملايين من البشر ، الذين خلقهم الله ..

لا فرق بين إنسان وإنسان إلا في قربه من الله - في فهمه لحقيقة الحياة والأديان ..

عايدة قالت إنه لا خطأ في دين ولا إرهاب في ديانة .. الخطأ والإرهاب والقسوة في الجهل وحده .. من يعلم يصبح إنسانًا ، ومن يبقى جاهلًا وحده يقسو ويخطئ ..

وسألها المذيع اللامع عن الطريق إلى هذا العلم - الطريق إلى تصحيح الأوضاع والصور .. سألها عن الطريق إلى السلام بين البشر على كوكب الأرض ..

عايدة رفعت عينيها الجميلة ، التي رقصت فيها دمعة صغيرة ؛ لتقول إن الطريق إلى رؤية الله وفهم رسالاته بأي لغة جاءت ، وعلى يد أي رسول كان ، هو طريق يخطو فيه الحب إلى جوار الألم ..

عايدة قالت إن من يدركون الحقيقة رغم بساطتها ، التي قد تبدو معقدة هم الأشخاص الذين أحبوا وتألموا .. الحب والألم يطهران النفس ويغسلان الغشاوة عن الأعين والقلوب .. هناك فقط قلوب ضعيفة يرهقها الألم فتسقط في دائرة الإرهاب والضلال .. هناك قلوب تموت لتخرج من خلف جثثها المتعفنة أيديولوجيات كريهة ، تسيء إلى الأديان وإلى معتنقيها .

كان حديث عايدة هادئًا قويًّا واثقًا ، وشعرت بأن كل كلمة قالتها لاقت نجاحًا كبيرًا ، وأن آلاف الآلاف ممن شاهدوا البرنامج ، ولم يكونوا على علم بروايتها سيقرأونها ..

بأصابعها الجميلة الرشيقة ، عادت عايدة تتحسس صفحات جريدة «مورنينج نيوز» في حنان بالغ .. لا تصدق أنهم كتبوا هذه المقالة الرائعة عن روايتها ، التي أطلقت عليها اسم «عندما عشقت المسلمة إنجليزيًّا» .. لا تصدق أبدًا أن روايتها حققت هذا النجاح الكبير ..

لا تصدق أبدًا أنه ، وفي أسابيع قليلة باعت آلاف النسخ ..

لا تصدق أبدًا أن عايدة صابر أصبحت كاتبة إنجليزية مشهورة ، تتحدث عنها الصحف ، وتسعى المحطات التليفزيونية لاستضافتها .. بالأمس كانت على قناة الـ BBC تتحدث عن روايتها لمدة ساعة ونصف .. لقد قال لها «هنري ويليام» مقدم برنامج «آرت شو» الشهير إنه بكى ، وهو يقرأ عباراتها الرقيقة البسيطة ، التي وصفت بها بطل الرواية ، والتي ذكرت على غلافها أنها قصة واقعية .. قال لها إنه بكى وبكى الآلاف عند قراءتهم عنها ، وعن دمعاتها يوم وقفت على قبر ماري ، تعدها في صدرها أن تحيا من أجل آدم .. البريطاني الصغير ، الذي عشقته المسلمة القادمة من الشرق البعيد ..

سألها كيف استطاعت أن تجعل قراءها يكرهون ذاك المسلم ، الذي تزوج ماري البريطانية ، حتى كادوا يكرهون ديانته وبلاده ، وكيف استطاعت بالذكاء والبساطة ذاتها أن تجعلهم يقعون في غرام الإسلام وبلاده ، عندما ظهرت عايدة لتحتضن الطفل الصغير الذي ماتت أمه .

عايدة قالت في حنان إن الواحد الأحد خلق القلوب وفطرها على الحب .. على العطاء ..

عايدة بعد قراءتها لمقالة هذا الصباح أيضًا ، علمت أنها في شهور قليلة ستصبح من أثرى وأشهر سيدات أوروبا .

إنها سعيدة .. لكن مازال في قلبها ركن حزين مطفأ .

مازال في روحها طفلة صغيرة يتيمة ، تقف في انكسار ، وتسقط على وجنتيها دمعات كثيفة ..

عايدة مازال على شفتيها رائحة شفاه ، وقفت على كيانها لحظة ؛ لتخلق امرأة تحلم برجل وحده يسكن معها عروقها ..

عايدة مازالت تحلم بهاشم .. منذ تلك الليلة .. منذ تلك اللحظة .. منذ ذاك العناق وتلك القبلة ، وهي تنتفض إليه شوقًا وترنو إليه حنينًا ..

لماذا لا يكتمل في حياتها شيء واحد .. كل شيء في حياة عايدة مبتور .. كل شيء في أقدارها ينقصه شيء ..

كانت طفلة جميلة رائعة .. لكنها كانت فقيرة وحيدة .. كانت في بيت منعم صادق شابة جميلة رائعة مدللة .. لكنها سجينة يتيمة .

جاءت لندن لتماثل مع صلاح رفاعي .. حتى عندما أصبحت أمًا لآدم ، ضاع منها هاشم ..

حتى يوم نجحت وحققت نجاحًا ، قد لا يعرف مذاقه الملايين .. مازال في قلبها شريان مبتور ، ينزف في قسوة وعنف .

هل تبقى العمر وحدها .. هل تبقى العمر تحيا على ذكرى قبلة وأطياف عناق بعيد؟!

هل تشيب رأسها وهي هنا وحدها .. هل يكبر آدم ، ويتركها في فراشها وحيدة ، دون صدر تهدأ عليه ، أو كف تلقي بنجاحاتها وآلامها وضحكاتها بين أصابعها؟!

صعب أن تكون الأرض أمامك مفتوحة الذراعين .. ووحدك تصلب جسدك على قطعة خشب بالية ..

صعب أن يناديك العالم في سخاء ، وأنت بيدك تغلق عينيك وأذنيك ؛ لتسمع صوتًا واحدًا وتحلم بوجه واحد ، وتحيا على أمل واحد ، وأنت تعلم وتؤمن أنه المستحيل ..

ورفعت عايدة عينيها في كبرياء ..

إن كان الحب أصبح مستحيلًا .. فعايدة منحها الله ما هو أقوى من الحب .. منحها الله ما لن تأخذه منها الأيام ، أو تحرمها إياه الأقدار ..

عايدة صابر منحها الله القلم .. ستكتب وتكتب ..

في سطور رواياتها ستعود إلى بلادها ، وتتجول في طرقاتها ..

في سطور رواياتها ، لن تكون هناك أقدار مبتورة .. مع القلم ، وعلى السطور عايدة ستحيا كل ما حرمته إياها الأقدار ..

ستحيا الحب .. ستحيا الحنان وستحيا الكمال ..

من الغد ستبدأ في كتابة رواية جديدة .. رواية تحكي فيها عن حب عنيد لن يموت .. رواية تحكي فيها عن قُبلة ما كانت قُبلة .. لكنها تحيا العمر على شفاه امرأة عاشت ، وستموت بشفاه عذراء ..

في روايتها الجديدة ستكتب عن ضفائر أمل ، وقصائد عشق عنيدة أنارت الدرب ، وصنعت من فتاة صغيرة ضعيفة امرأة شهيرة عاشقة للخير والأمل رغم حرمانها منها زمنًا ..

عايدة ستكتب رواية جديدة ، وستسميها:

«رغم الفراق »!!!

****

في هدوء أغلقت قلم أحمر الشفاه الوردي ، ووضعته بجوار مرآتها ، بعد أن مرت على شفاهها المستديرة به في طبقة كثيفة ، وابتسمت عايدة في هدوء..

انتهت من وضع ماكياجها الكامل .. عيناها الخضراوان مرسومتان بعناية وحول اتساعها ، مرت بقلم من اللون الأخضر المتلألئ ، وعلى رموشها الكثيفة طبقتان من الماسكارا .. هي نفسها لم تر يومًا عينيها بهذا الجمال وهذا الاتساع ..

أحمر شفاهها الوردي له نفس لون أحمر خدودها ، الذي مسحت به وجنتيها الجميلتين .. حتى حاجبيها ، مرت عليهما بقلم ديور بني اللون جعلهما أكثر كثافة وانتظامًا ..

ونظرت إلى ثوبها الأبيض الذي ترتديه .. إنه ذاك الثوب الذي اشترته لها هدى ، وارتدته هي يوم زفاف دينا ..

واستدارت تنظر إلى آدم ، وهو يجلس على حافة الفراش الذي يقتسمانه معًا .. كان في عينيه الزرقاوين الصغيرتين صيحة انبهار كبيرة ..

هو أيضًا بدا أنيقًا جميلًا ، كما لم تره يومًا ..

زاد طوله واقترب من كتفيها وزاد بهاؤه ، وهو يرتدي حلة كاملة توكسيدو كأنه حقًّا عريس في ليلة زفافه ..

شعره الأشقر مصفف في جمال ، ومن جيب چاكيت بدلته يطل رأس منديل حريري وردي اللون ، له نفس لون البابيون الوردية ، التي تطل على عنق قميصه الأبيض .. وصاح قائلًا:

عمري ما شفتك حلوة كدا يا عايدة ..

وقبل أن تجيب ، سمعا طرقات على باب جناحهما الصغير ، في منزل توني والتر ، وركض آدم يفتح لتسمعه يصيح من بعيد :

عايدة .. توني عايزك ..

وانحنت عايدة تأخذ حقيبتها السواريه الصغيرة ؛ لتغادر الغرفة قائلة:

أنا جاهزة يا توني ..

ورأته هو الآخر في كامل أناقته .. حتى هو كان يرتدي بدلة سوداء كاملة ورباطة عنقه كانت من اللون الأحمر الداكن ، وكان يحمل في يديه صندوقًا كبيرًا ، وقال وهو ينظر لها:

زي القمر يا عايدة .. لكن خدي حتقلعي الفستان اللي أنتِ لابساه وحتلبسي دا ..

وفي ذهول أخذت عايدة الصندوق الورقي الكبير ، والذي كان منقوشًا عليه حروف شانيل بخط أسود أنيق ، وفتحت الصندوق لتخرج من طياته ثوبًا قصيرًا من الشيفون الأسود ، وصاحت في ذهول:

فستان شانيل يا توني!!

وابتسم توني قائلًا:

لما يبقى أكبر دار نشر في بريطانيا عاملة حفلة كبيرة لأنجح مؤلفة على أرضها اليومين دول .. يبقى مش ممكن تروحي إلا بفستان شانيل .. ادخلي البسيه ..

وغابت عايدة لحظات لتخرج ؛ وهي ترتدي الثوب الأسود ، الذي يكشف مساحة كبيرة من ظهرها ، ويقف بحبل سميك من اللؤلؤ الأبيض حول عنقها ليترك كتفيها عاريين تمامًا .. ومن الأمام يطل صدرها الأبيض المستدير من خلف قصة الصدر الواسعة المكشوفة ، ثم تنسدل بقية الثوب حول جسدها في خفة واتساع ، منتهيًا قبل ركبتيها البيضاء الجميلة بحوالي عشرة سنتيمترات ، وفي قدميها الجميلة ارتدت حذاء أيضًا ، وجدته في صندوق توني من اللون الأسود ، وحافته الأمامية بيضاء وكعبه 7سم أيضًا أبيض عاجي ، وفي نهاية كعبه حلقة فضية مستديرة ..

ووقفت عايدة أمامهما تدور بثوبها الرائع في دهشة ، لا تصدقها ، وأخذها توني بين ذراعيه ، وهو يهمس:

ولا أجمل نجمات هوليوود يا عايدة .. يللا بينا .. كريستين وبيتر زمانهم في العربية .

****

في إحدى أكبر قاعات المؤتمرات في قلب لندن ، كان الحفل والمؤتمر الصحفي الذي أقامته دار النشر لعايدة وروايتها ، التي حركت قلوب مئات الألوف من القراء في أوروبا وأمريكا في وقت قصير ..

وتحدث رئيس الدار عن سعادته وفخره برواية عايدة .. تحدث أيضًا عن سعادته الأكبر باقتراب إصدار روايتها الثانية ، في بداية العام المقبل ..

ودارت المناقشات وصورتها الكاميرات ، وحادثها الصحفيون ، وعندما طلبوا منها الإدلاء بكلمة ، توجهت عايدة بخطواتها الرقيقة لتعتلي تلك المنصة الصغيرة ؛ لتقول بعد لحظات ، وهي تنظر حولها في حنان:

لم أكن أعلم أو أتوقع أبدًا أن تحقق روايتي كل هذا النجاح ، وأن تلك الأحداث التي رصدها قلبي ستحملني يومًا إلى هنا .. ولكن أنا سعيدة لأنني أصبحت أكثر إيمانًا بأن الصدق والحب هما اللغة التي يحبها الجميع ويفهمها الجميع .. روايتي حروفها كانت صادقة .. أحداثها جميعًا كانت حبًا .. حبًا للسلام .. للعطاء .. للحياة ، ولهذا أحبها من قرأها .

أنا أيضًا أصبحت أكثر إيمانًا بالمجتمع ، الذي أحيا فيه ، وأشرف بأنني أصبحت أحمل هويته وجنسيته .. أصبحت أؤمن أنني على أرض ، تقدّر الصدق ، وتفتح ذراعيها له وللحب بكل الحب ..

وبحب كبير ، نظرت عايدة إلى وجه توني وكريستين ، وابتسمت ابتسامة صغيرة ، ثم عادت تنظر إلى آدم وبيتر ، ثم قالت:

مستر توني والتر .. مسز كريستين والتر .. أنا أهديكما هذا النجاح ؛ لأنكما وحدكما من صنعاه .. وأهدي قلبي وكل مشاعر الحب للصغيرين ، اللذين علماني كيف يكون الحب ، وكيف يمحو ويخلق ، ويجعل من امرأة صغيرة ضئيلة مثلي امرأة تقف الآن على هذا المنبر الرائع ، مستمتعة بكل هذا الدفء والنجاح ..

وقبل أن تغادر مكانها ، وقف آدم في ثبات ليسمعه الجميع يقول:

ممكن أقول كلمة؟!

وابتسم مستر چونز رئيس الدار ، وهو يشير له بالتقدم إلى جوار عايدة ؛ حيث وقف آدم إلى جوارها ، وابتسم قائلًا:

أنا سعيد بوجودي هنا .. أنا سعيد لأني فقدت أمًّا ، وأصبح عندي أم أخرى .. لكن سعادتي الكبيرة هي أن عايدة جعلتني سعيدًا وفخورًا بأنني مسلم ..

زمان كنت أخجل من دیانتي التي اكتسبتها من والدي .. ولكن عايدة جعلتني أشعر أنني أول مسلم صغير يتكلم عن دينه ، وهو يفهمه ومقتنع به؛ لأن هذا الدين جعلها أمي ، وجعلني لا أحمل لقب يتيم أبدًا ..

ووضعت عايدة ذراعها حول كتف آدم في حنان ؛ ليعلو صوت تصفيق هادئ من كل الحاضرين!!

****

في هدوء رفعت عايدة عينيها ؛ ترقب بيتر وآدم ، وهما يلعبان في الحديقة من خلف زجاج النافذة ..

إنهما سعيدان .. لقد أعلنت عايدة أنها لن تترك هذا الملحق ، الذي تسكنه مع آدم أبدًا .. لقد وفرت لها دار النشر سكنًا كبيرًا وأنيقًا في إحدى البنايات المطلة على الهايدپارك .. ولكنها بعد تفكير طويل ، وبعد مناقشات كثيرة مع آدم وتوني وبيتر ، قالت إن السعادة ليست بعدد الأمتار التي يحيا فيها الإنسان ، ولكنها بعدد الأشخاص الذين يحبهم ويقتسمون معه الحياة بكل ما فيها .. قالت عايدة إن هذا الملحق الصغير يجمع أكثر من أحبتهم ، وأكثر من ساهموا في خلق الأديبة الناجحة التي تسكن جلدها .

وابتسمت في حنان ، وهي ترى بيتر يقع على أرض الحديقة ، وآدم يمنحه يده ليستند إليها ، ويقف من جديد ؛ لينطلقا إلى لعبهما مرة أخرى ..

ليس عيبًا أن نسقط .. ليس خطيئة أن نخطئ .. أخطأت هي يوم ظنت الأرض بأكملها شخصًا واحدًا اسمه هاشم .. أخطأت دينا يوم ظنت أن حبها لحسن يجب أن يجعل منه قديسًا ، لا يضعف أو يخطئ ..

إن لم نخطئ كيف نتعلم .. إن لم نذنب كيف إذن نتطهر .. إن لم نبك كيف نبتسم؟!

هاشم ليس كوكب الأرض .. لكنه حبيبها .. حسن ليس قديسًا .. لكنه رجل دينا ورجل بيتها ويومًا سيعودان ..

قد يعود هاشم وقد تصفح دينا ، ولكن ستبقى الحياة تمضي .. ستضحك عايدة وتكتب وتبكي .. ستسقط كثيرًا ، ولكن كما مدَّ آدم كفه الصغير منذ لحظات إلى بيتر ، ستجد عايدة من يمد كفه نحوها ، وإن لم تجد سيبقى القلم عكازها .. لن تتبعثر عند أقدام الأحلام .. الواقع وحده من يستحق أن نحياه .

ونهضت في هدوء تقلب في أوراقها ، تبحث عن ورقة قديمة ، وجدتها بين طيات أحد الكتب ، التي منحها إياها هاشم يومًا ، وعندما وجدتها فتحتها وأغمضت عينيها تتذكر ..

إنها قصيدة لشاعرة مجهولة ، لم تنجح هي أو هاشم في الوصول إلى دواوينها .. وجدوا القصيدة يومًا على صفحات الإنترنت ، وكتبها هاشم يومها ووضعها في أحد الكتب ..

ترى هل كان يعني أن تجدها عايدة ، أم أنه نسيها بداخلها يوم منحها هذا الكتاب ، وفتحت عايدة الورقة ، وأخذت تقرأ من جديد:

إذا ما جاء الفراق يومًا [1]

وجمعني بك بعد الفراق طريق

وكانت تمسك ذراعيك

وكنت أتعكز ذراعيه ..

فلا تقل لها كنا ..

ولن أقول له كنا ..

فوحدنا نعلم سيدي ..

(1) قصيدة وجدتها يومًا على بريدي الإليكتروني ، ولم أعرف مؤلفها !! .

بأنَّا رغم الفراق

مازلنا ومازلنا ومازلنا ..!!

إذا ما جاء الفراق يومًا

وأباحوا لنا تشريح جثة الحب

وتشويه البقايا ..

فلا تفعل .. ولن أفعل ..

بدأنا الحكاية قبل الفراق أنقياء ..

فلننه الحكاية بعد الفراق عظماء!!

****

دينا ..

رحيل حسن وسفره ليس نهاية القصة ..

خطبة هاشم وزواجه ليس أيضًا نهاية القصة ..

فراقي عن مصر وعجزي وضعفي عن مواجهة هاشم ليس أيضًا نهاية القصة ..

كبريائي التي تمنعني من الحضور والوقوف بباب هاشم ، ليس قوة بل هو الضعف الحقيقي والضعف الكبير ..

رحيل ماري عن آدم ورحيل سيلفيا عن بيتر ، واختفاء ماما نجوى ، ومصيرها الذي قد نعرفه أو لا نعرفه ليس أبدًا نهاية الحكاية ..

في الحب قد يكون الفراق هو البداية ..

في العشق قد يصبح الحب أكبر ، وقد يحيا عمرًا أطول ، وقد يصنع نجاحات وينير دروبًا وطرقات ، إذا ما حلّ به الفراق ..

مازال آدم يحادث ماري .. مازال توني يحمل الزهر إلى سيلفيا .. مازال الأمل بعثورك على طنط نجوى قويًا .. ومازال حسن في عروق أيامك وضحكات مختار ودمعاته .. ومازلت أنا .. مازلت أرى رأس هاشم على كل حرف أكتبه في رواياتي وكتاباتي!

مازلت أختبئ للقائي به أثوابًا وعطورًا ..

مازلت أقرأ له أشعارًا وقصائد ..

ومازلت أنت صديقتي الوحيدة .. مازلت ابنتي وحبيبتي رغم الفراق..

الحب في الفراق لا يموت .. وأنا أراكِ تضمين «مختار» إلى صدرك وتتنفسين رائحة حسن ، وتلتصقين به أكثر ، وتشعرين به أكثر رغم الألم ورغم الفراق!!

يا صديقتي:

إن كان الحب كبيرًا لا يموت ، فهناك يوم تنتهي فيه أيام الفراق ، وتموت ليأتي الحب محمولاً من جديد على كف النسيان والرحمة!!

عايدة

****

ولا أنا غرقت !!

أشهد أنك رحلت في تحضر وهدوء ..
وحدي سقطت في بربرية أشواقي ..
وثورات أحزاني وعويل ذكرياتي ..
أشهد أنك في اللحظة التي تعثر فيها
جواد الحب ..
أطلقت رصاصة الموت في رحمة وحكمة ..
وحدي بقيت أتلو الصلوات ..
وأطارد الأمل ..
وأقتات فتات الزهر والكلمات ..
أشهد أنك في ثبات حطمت الهدايا
ومزقت الرسائل وأحرقت الصور ..
وحدي بقيت خلف قضبان الذكريات
أجتر اللحظات وألعق الجراح ..
وألملم العطور والأثواب ..
وحدي أصدرت على النسيان

حكمًا بالإعدام!!
أشهد أنك أشعلت عود ثقاب صغير
وأحرقت أكبر الجسور
وآخر الجسور
ومضيت في سكون!!
وحدي وقفت على حافة النهر
أرقبك في جنون ..
أشهد أنك وأشهد أني ..
أشهد أني أراك على حافة النهر
يأكلك الندم ..
وأشهد أني في قلب النهر
يكممني الكبرياء ..
لا أنت تنقذني ..
ولا أنا بك أستغيث ..
يا سيد الحكمة:
لا أنت نجوت ..
ولا أنا غرقت!!

من ديوان
« وعادت سندريلا حافية القدمين »
لـ «نور عبدالمجيد»